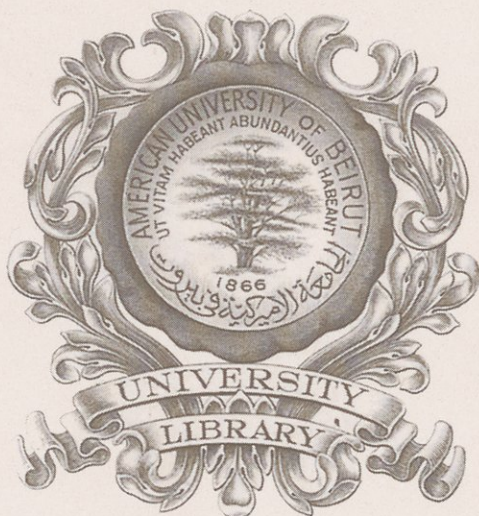


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



N. MAKHOUL
BINDERY

28 SEP 1972

Tel. 260458

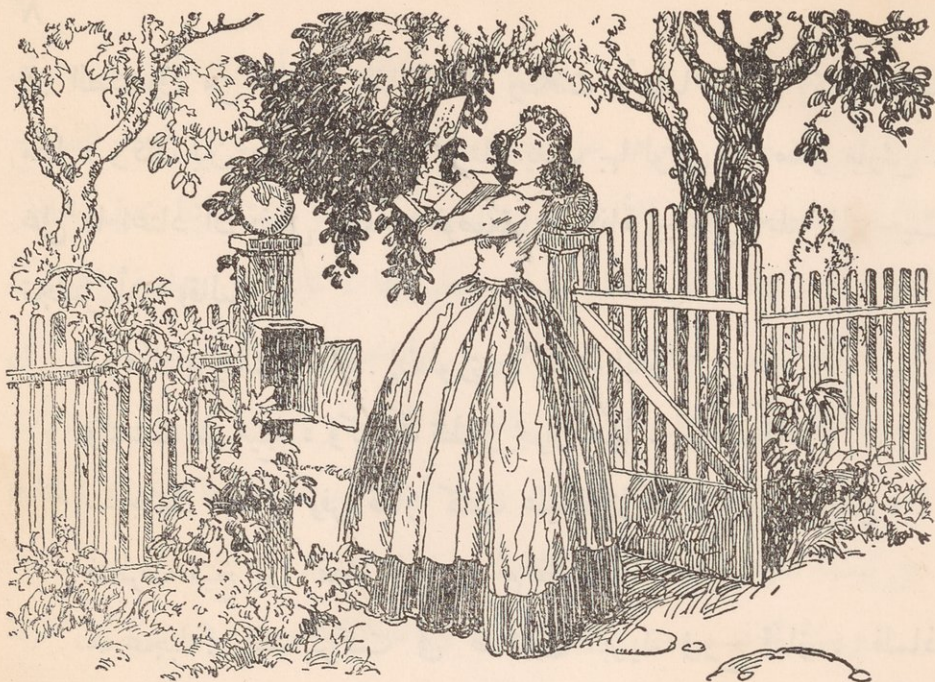
نساء و صغیرات

الصور الملوّنة والرسوم من عمل لويس جامبور
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق نشر الصور من صاحب هذا الحق

Color prints and drawing by Lois Jambor
reproduced by special permission of copyright
owner. Copyright 1947 Grosset and Dunlop.

محتويات الكتاب

صفحة	
٧	١٢ - معسكر لورنس
٥١	١٣ - قصور في الهواء
٧٤	١٤ - أسرار
٩٦	١٥ - البرقية
١١٥	١٦ - رسائل
١٣٢	١٧ - المؤمنة الصغيرة
١٤٩	١٨ - أيام سود
١٦٦	١٩ - وصية أمي
١٨٣	٢٠ - أمور عائلية
١٩٧	٢١ - لوري يصنع الشر وچو تنشر السلام
٢٢٣	٢٢ - عودة السعادة
٢٣٦	٢٣ - العمة مايش تحل مشكلة



الفصل الثانى عشر

معسكر لورنس

كانت بث ، بحكم وجودها فى البيت معظم الوقت ، قد اعتادت أن تقوم بتوزيع البريد على أفراد الأسرة ، وكانت أحب مهمة إليها أن تتوجه إلى صندوق البريد كل يوم ، فتفتح بابه الخشبي الصغير ، ثم تحمل محتوياته إلى صاحباتها .

وفى يوم من شهر يولية دخلت البيت ، وقد امتلأت يداها بما وجدته

فى الصندوق من رسائل ولفافات ، وطافت بأهلها تعطى كلا نصيبه منها ، وكان بين ما تحمله باقة أزهار بعث بها لورى إلى مسز مارش ، على ما اعتاد أن يفعل دائماً ، فوضعتها فى إناء زجاجى حملته إلى حيث تجلس أمها وقالت :

— هاك بريدك يا أماه . إن لورى لا ينساه أبداً .

والفتت إلى ميج ، وكانت تطرز بجوار أمها ، وقالت لها :

— جاءك خطاب وفرد قفاز كتب عليه « إلى الآنسة ميج مارش » .

فنظرت ميج إلى القفاز الرمادى ثم قالت :

— عجباً ! لقد تركت فى صندوق البريد زوج قفاز ، فلماذا

جئتني بفرد واحد ؟ ألا يحتفل أن تكونى قد أسقطت الثانى فى الحديقة ؟

فقالته بث :

— لم يكن فى الصندوق سوى فرد فقط ، وأنا واثقة من ذلك كل

الثقة .

قالت ميج :

— لا بأس عليك ، وربما وجدنا الآخر فى مكان ما .

وفتحت الخطاب الذى أتها به بث ، وقرأت محتوياته ثم قالت :

— هذه ترجمة الأغنية الألمانية التى كنت قد طلبتها من لورى ،

وأغلب الظن أن مستر بروك هو الذى كتبها ، فليس هذا خط لورى .

وتطلعت مسز مارش إلى ابنتها بإعجاب وحنان ، وكانت ميج

تطرز أمام منصدة ازدحمت فوقها كرات الخيط وأدوات التطريز ، وقد تهدلت خصلات شعرها على جبينها المشرق ، فبدت في ثوب الصباح الأبيض صورة حية للأنوثة والجمال . ولم تشعر الفتاة بما يحول بخاطر أمها ، إذ كانت في شغل شاغل بتطريزها ، تؤديه في حماسة واهتمام ، وهى تترنم بأغنية عذبة ، وقد سرح بها خيالها إلى أحلام تحاكى في براءتها وطهرها ، تلك الأزهار النضيرة التى ترين بها ثوبها . وامتلأت نفس مسز مارش غبطة وسروراً بحسن ابنتها وبراعتها ، فانفجرت شفتها عن بسملة ملؤها الرضا والاطمئنان .

وبينما كانت مسز مارش غارقة فى تأملاتها ، هرعت بث إلى غرفة المكتبة تبحث عن أختها چو ، فلما وجدتها تجلس فى ركنها المعتاد ، قالت لها ضاحكة :

— جاءك كتاب وخطابان ، ثم قبعة عتيقة مضحكة الشكل ، كانت تملأ صندوق البريد وتبرز من جوانبه .

قالت چو :

— يا للفتى الماكر ! قلت له إني أتمنى لو تعود « مودة » القبعات الواسعة ، حتى يمكننى أن أحمى بشرتى من فعل أشعة الشمس التى تحرقنى فى الأيام الصحوه ، فسألنى لماذا أهتم بما يلبسه غيرى ؟ ولم لا أغطى رأسى بقبعة واسعة، ما دمت أشعر بالحاجة إليها ؟ فأكدت له أنى لا أهتم مطلقاً بمثل هذه الاعتبارات النسائية التافهة ، ولو كنت أملك

قبعة واسعة ما ترددت في الخروج بها على سبيل التفكهة . وها هو ذا يتحدثاني فيرسل إلى بواحدة .

ووضعت القبعة على رأس تمثال نصفي في غرفة المكتبة ، ثم شرعت تقرأ الخطابين ، وكان أحدهما من أمها ، فما إن تلت سطوره المعدودة حتى احمر وجهها تأثراً واغرورت عيناها بالدموع ، فقد كتبت أمها تقول :

« عزيزتي

يسرنى أن أكتب إليك كلمة صغيرة ، أعبر لك فيها عن مزيد غبطتي وسروري بما تبذلينه من جهود مشكورة في ترويض مزاجك الحاد . ورغم أنك لا تتحدثين عن كفاحك في بلوغ غايتك ، ولا تذكرين شيئاً مما تلاقين من توفيق أو إخفاق ، راضية بإخفاء شجونك وشئونك ، إلا عن صديقك الأوحـد ، كتاب النصائح ، الذي تسألينه الهداية في إخلاص وإيمان ، فقد أمكنني بغير جهد أن أشاهد كفاحك النفسي في تلك الصفحات التي بليت لكثرة ما قرأتها ، وألمس النتائج الطيبة التي وصلت إليها في سعيك إلى الارتفاع بنفسك فوق سقطات الغضب والاندفاع ، فسيري يابنتي في جهادك موفقة بإذن الله ، وتسلحي دوماً بالصبر والشجاعة ، وثقي أن أكثر من يشاركك في وجدانك هي أمك التي يمتلئ قلبها بحبك .

أمك »

وأسندت چو رأسها إلى ذراعها ، وانهمرت دموع الفرح من مقلتيها على صفحات الكتاب الذي كانت تقرأه . قالت تحدث نفسها :
 — كلماتك يا أمي آثمن عندي من ملايين الجنيهات ، وأعلى من أكوام المديح والثناء ، وما دمت إلى جانبي ، فلن أكف عن الجهاد ، ولن ينالني اليأس بحال من الأحوال .

وكانت تظن أنها تجاهد وحدها ، ولا من يعلم بجهادها أو يقدره ، فلما جاءت رسالة أمها ، اطمأنت إلى أنها ليست في هذه الحياة وحدها ، ما دامت تلك العين الرحيمة ترعاها . وقد ضاعف من تأثيرها بهذه الرسالة أنها لم تكن تنتظرها أو تتوقعها ، وإن كانت تكن لأمرها أخلص الحب والتقدير . ومنحها الخطاب عزيمة جديدة تعينها على قهر شيطان الشر ، فطوته وشبكته بدبوس في ثوبها ، كتعويذة تقيها من الزلل . وأقبلت على الرسالة الثانية تفضها وهي على تمام الاستعداد لما قد تحويه من خير أو من شر ، ولكن خط لوري الكبير طالعها يقول :

« عزيزتي چو

دعوت بعض أصدقائي وصديقاتي الإنجليز لزيارتي غداً ، وأحب أن نقضى معاً وقتاً ممتعاً ، وأملئ أن يكون الجو صحوً فنقيم مخيماً في « لونج ميدو » . وسوف نعبّر النهر إلى المخيم في قوارب ، وهناك نلعب الكريكت ثم نشعل النيران لنطهى طعامنا بأنفسنا على الطريقة البوهيمية .

إني أرحب بحضوركن جميعاً ، ولن أقبل اعتذاراً من بث ، فطمئنيها

إلى أن أحداً لن يضايقها ، وسيتولى بروك الإشراف على النظام ، وتعنى
 كات قون براحة الفتيات ، وستجدن أن أصدقائي جماعة مرحة طيبة .
 وأرجو أن لا تحضرن معكن شيئاً ، فقد أعددت كل صغيرة وكبيرة مما
 نحتاج إليه ، ولست أنشد غير صحبتكن الممتعة ، فلا تخين ظني ، وكن
 كعهدي بكن زميلات طيبات .

أودعك على كره ، إلى الموعد المضروب

من لورى صديقك المخلص الودود «

وهرعت چو تحمل الخبر المثير إلى ميج ، وصاحت بها تقول :
 — هكذا تكون الدعوات وإلا فلا ! ولن تمنعينا من الذهاب طبعاً
 يا أماه ، فسيكون وجودنا عوناً للورى ، فأنا أساعده في التجديف ،
 وميج تتولى إعداد الطعام ، وتقوم الصغيرتان بالأعمال الأخرى البسيطة .
 سألتها ميج :

— أتعرفين شيئاً عن آل قون ؟ أرجو أن لا يكونوا من المتغطرسين .

أجابت چو :

— كل ما أعرفه عنهم أنهم أربعة من الإنجليز : كات وهي أكبر
 منك سناً ، ثم التوأمان فريد وفرانك وهما في مثل عمري ، أما جريس
 ففي التاسعة أو العاشرة . لقد قابلهم لورى في الخارج ، وأعجب بخلق
 الصبيين ، ولكنني فهمت من التواء شفتيه أثناء حديثه عن كات ، أنه
 لا يميل إليها .

فقلت ميج فى اغتباط ظاهر :

— يسرنى أن ثوبى الفرنسى المنقوش ما زال فى حالة جيدة ،
فضلا عن أنه يلائمنى تماماً ، فهل لديك ما ترتدينه يا چو ؟
قالت :

— عندى ثوب التجديف الرمادى ، وفيه الكفاية ، فلست أحتاج
إلى ثوب منشى ما دمت أنوى أن أستمتع بيوم رياضى .
والتفتت إلى بث تسألها :
— أتأتين معنا يا بث ؟
أجابت :

— نعم ، ولكن بشرط أن لا يبادلنى الحديث أحد من الفتيان .
قالت :

— لن أسمح لهم بذلك .
فقلت بث :

— أحب أن أفعل كل ما يسر لورى ، ولست أخشى مستر بروك
فهو رجل طيب ، ولكنى أكره أن ألعب أو أغنى أو أتكلم فى حضرة
الغرباء . سأقوم بنصيبى من العمل كاملاً ، ولن أضايق أحداً . وما دمت
تعين بى يا چو فلا أرى مانعاً من الذهاب .

قالت چو :

— هذا كلام جميل ، وهكذا تحاربين خجلك ، وتعجبين فيك

تلك الرغبة الشديدة في التغلب على ضعفك ، فليست المعركة بين المرء وأخطائه بالأمر الهين ، والتشجيع يمنحنا قوة على الكفاح .

وسارت چو إلى أمها ، فطبعت على خدها الضامر ، قبلة عامرة بالشكر ، وقالت :

— شكراً لك يا أماه .

ولو عاد الشباب لمسز مارش ما اغتبطت به مثلما اغتبطت بقبلة ابنتها المحبة .

قالت آمى وهى تبرز ما جاء به البريد إليها :

— أما أنا فقد وصل إلى صندوق من الشيكولاته ، وصورة أود أن أنسخها .

قالت بث ، وكانت صداقتها مع مستر لورنس العجوز قد توطدت :

— وأنا تلقيت بطاقة يدعوني فيها مستر لورنس أن أعزف له الليلة ، ويسرنى أن ألبي دعوته .

نهضت چو تستبدل القلم بالمكنسة وتقول :

— هيا بنا نؤد عمل اليوم وغد ، حتى نذهب إلى الرحلة وليس بنا ما يشغلنا أو يقلق بالنا .

وفي صبيحة اليوم التالى أرسلت الشمس أشعة صافية تنبئ بيوم صحو جميل ، وتسللت الأشعة إلى غرفة الفتيات ، فكشفت عن منظر

طريف : فقد كانت كل واحدة منهن قد استعدت للرحلة المرتقبة بطريقتها المميزة ، فزحمت ميج رأسها بنحصلات ملفوفة ، ودبابيس مجمدة للشعر ، وطلت چو وجهها بطبقة كثيفة من دهان مرطب للجلد ، واحتضنت بث دميها چوانا طول الليل لتعوضها عن فراق اليوم الطويل ، أما آى فقد ضغطت أنفها بمشبك من مشابك الرسم ، حتى تلتئم فرطحته ويبدو صغيراً جميلاً أمام ضيوف لورى . وكأن منظر الفتيات قد سر الشمس وأضحكها ، فأضاعت أشعتها الحجره ، وعندئذ استيقظت چو من نومها العميق ، وقامت إلى أخواتها تستحهن على النشاط ، فلما رأت ما فعلته آى بأنفها انطلقت تضحك عالياً .

وكانت الشمس المشرقة والضحكات السعيدة فألاً حسناً يبشر بيوم سعيد ، فسرعان ما دبت الحركة ونشطت فى المنزلين . وكانت بث أول من ارتدت ملابسها ، فوقفت خلف النافذة ترقب ما يحدث فى البيت الآخر ، وتنقل الأخبار إلى أخواتها فى عبارات مرحة مقتضبة وجعلت تقول :

— هذا رجل يحمل خيمة . . . أرى مسز باركر ترتب الطعام فى سلة كبيرة . . . ها هو ذا مستر لورنس يتأمل السماء ويدرس اتجاه الرياح . . . فليته يأتى معنا . . . كم يبدو لورى أنيقاً فى ملابس البحارة ! . . . أقبلت عربة ملأى بالأشخاص : سيدة طويلة ، وفتاة صغيرة ، وصبيان فظيعان . . . يا للمسكين ! إن أحدهما أعرج ، وفى

يده عصا يتوكأ عليها . . . إني أرى ند موفاً أيضاً . . . انظري يا ميج ،
أليس هذا هو الرجل الذى حياك يوماً عندما كنا فى السوق ؟

وأسرعت ميج إلى النافذة تطل منها وتقول فى اغتباط :

— إنه هو ، ويدهشنى أن حضر ، فقد سمعت أنه مسافر إلى
الجبال وهذه سالى أيضاً ، يسرنى أن عادت فى الوقت المناسب .

والتفتت إلى أختها تقول :

— اصدقينى القول يا چو ، هل أبدو على ما يرام ؟

قالت چو :

— كأنك زهرة يانعة ، ولكن ارفعى ثوبك قليلاً ، وأصلحى وضع
قبعتك ، فلست أراها مستقرة على رأسك ، وأخشى أن يطير بها الهواء .
والآن هيا بنا . . .

وتناولت چو القبعة العتيقة الواسعة ، التى كان لورى قد بعث بها
إليها على سبيل المزاح ، فوضعتها على رأسها ، وثنت طرفها بشریط أحمر ،
فصاحت بها ميج تقول فى احتجاج شديد :

— لا . . . لا . . . يا چو ، لا يصح أن تلبسى هذه القبعة ، إنها

قبيحة المنظر مضحكة ، وشكلك فيها كالفتى !

قالت چو ، وهى تنصرف عن الغرفة مطمئنة :

— وهل يضيرنى أن أبدو كالفتى ؟ لا يهمنى أن تكون القبعة جميلة



استقل الفتیان والفتيات قاربين ودلفوا بهما إلى النهر

الشكل أو قبيحته ، ويكفينى منها أنها تحمينى من الشمس ولا تثقل رأسى .

وخرج الأخوات الأربع جنباً إلى جنب ، وكأنهن باقية من الورود البشرية الياقة ، وكن يرتدين ثياباً صيفية أنيقة ، وقد فاضت وجوههن التى تظلمها القبعات بأبلغ أمارات السعادة والاعتباط .

واستقبلهن لورى مرحباً ، وقدمهن إلى أصدقائه فى أدب واحترام ، فلما انتهت مهمة التعارف ، جلسن مع الضيوف الآخرين على المرج الأخضر ، الذى استعاض به صاحب الدار عن غرفة الاستقبال . وشعرت ميج بمزيد من الراحة والاطمئنان عندما شاهدت مس كات ، وكانت فى العشرين من عمرها ، ترتدى ثياباً أمريكية بسيطة ، ولكنها أدركت لفورها لماذا التوت شفتا لورى عندما كان يتحدث عنها إلى چو ، فقد كانت الفتاة متكبرة متغطسة ، فيها غرور لا يتفق مع ما عرف عن بنات لورنس من تواضع مستحب . واكتملت سعادة ميج بوجود ند موفاة ، وأثلج صدرها قوله لها بأنه لم يحضر إلا من أجل رؤيتها .

ووجدت بث بعد أن راقبت الفتیان بعض الوقت أن الصبى الأعرج لطيف المعشر ، وليس فظيلاً كما تراءى لها وهى تطل من نافذتها . وكان ضعيفاً بعاهته فاستقر رأيها أن تكون صديقة له ، وأن ترعاه طوال الرحلة برفق وحنان . أما آمى فقد رأت فى جريس فتاة مهذبة مرحة ، فتبادلت

وإياها النظرات ، وسرعان ما تآلف قلباهما وأصبحتا صديقتين .

وكانت الخيام وسلال الطعام وأدوات لعبة الكريكت قد سبقت المدعوين إلى المعسكر ، فلما اكتملت الجماعة ، استقل الفتیان والفتيات قاربين ، ودلفوا بهما إلى النهر معا ، تاركين مستر لورنس العجوز على الشاطئ يودعهن ملوحاً بقبعته . وتولى لورى وچو التجديف فى أحد القاربين وتولى مستر بروك وند القارب الثانى ، أما فريد التوأم الثائر فقد جعل يضرب الماء بيديه على غير هدى حتى كاد يقلب القارب بمن فيه . وحازت قبعة چو إعجاب أصدقائها وصديقاتها ، وأدت خدمات جلييلة كان لها أثرها فى نجاح الرحلة . وكان من أفضال هذه القبعة ، أنه عندما دخلت بها چو إلى الضيوف لأول مرة انفجروا فى عاصفة شديدة من الضحك ، كانت بداية طيبة لإزالة التوتر ورفع الكلفة وكذلك كانت حركاتها وانثناءاتها مع الهواء كلما جذفت چو مثاراً للمزاح والتسلية .

ودهشت كات لأسلوب چو فى الحديث ، وعجبت عندما رأت لورى يطاء قدمها خطأ فيعتذر إليها قائلاً : « فتاى العزيز .. هل آذيت قدمك ؟ » ، ولكن قلبها مال إليها لغرابة أطوارها ومهارتها ، فاستقر رأيها أن تكون صديقة لها ، ومن ثم جعلت تبتسم لها فى كل فرصة ممكنة .

وكانت ميج تجلس فى نهاية القارب الآخر ، وفى مواجهتها

يجلس المعجبان بها ، يتأملان جمالها ويجدفان في حماسة ومقدرة . وكان
مستر بروك شاباً هادئ الطبع مترناً ، له عينان عسلتان وصوت متند
رخيم ، وكانت ميج تعجب بخلقه الكريم ، وتعتبره موسوعة علمية ثمينة .
وبالرغم من أنه جلس أمامها صامتاً ، لا يبادلها الحديث إلا قليلاً ، فقد
ظلت نظراته عالقة بوجهها ، لا تتحرك عنه كأنه لا يرى في القارب
غيرها . وكان ند موفاً قد التحق بالجامعة أخيراً . فاختار أن يتشبه
بالفرنسيين في أخلاقهم وأحوالهم ، ولأهمه هذا التشبه ، فكان رفيقاً مؤنساً ،
رغم تفاهة عقله . أما سالى جاردنر فلم يك يعنها سوى المحافظة على
ثوبها الأبيض الأنيق ، وظلت تثرثر مع فريد الذى أرسل الرعب فى قلب
بث ، من جراء حركاته العنيفة وقفزاته الخشنة .

ولم تكن المسافة إلى لونج ميدو طويلة ، فسرعان ما وصل المركب
إلى الوجهة المنشودة ، فوجدوا أن الخيمة قد نصبت ، وأطواق الكريكييت
غرس في الأرض استعداداً للعب ، وكان المعسكر جميلاً فسيحاً ،
اكتست أرضه ببساط سندسى تظله ثلاث أشجار بلوط كبيرة في
الوسط ، ويمتد فيه شريط ناعم من العشب للكريكييت . وقفز الضيوف
من القارين إلى الشاطئ ، وهم يهللون في سرور ، فقال لهم لورى :
— مرحباً بكم في معسكر لورنس . إن بروك قائد هذا المعسكر ،
وأنا أركان حربه ، وبقية الفتيان ضباطه ، أما السيدات فضيوفنا .
وقد نصبنا الخيمة خصيصاً لراحتكم . ستكون قاعة الاستقبال في ظل

الشجرة ، وتحت الشجرة الأخرى مخزن المؤن والحاجات ، والمطبخ في ظل الشجرة الثالثة . وأقترح أن نلعب مباراة في الكريكت قبل أن تشتد حرارة الشمس ، وعندما ننهي منها ننظر في أمر الطعام .

وجلس فرانك وبث وآمي وجريس على الحشائش لمشاهدة اللاعبين ، واختار مستر بروك ميج وكات وفريد زملاء له ، كما اختار لوري سالي وجو وند ، وبدأ الإنجليز اللعب بداية حسنة ، ولكن الأمريكيين لم يلبثوا أن تفوقوا عليهم خطوة خطوة ، كأنما قد عادت إليهم روح الكفاح التي نصرت شعبهم على الإنجليز عام ١٨٧٦ . وتعكر الجو بين جو وفريد ، فقد ضربت الفتاة آخر كرة لها فغاضها أن أخطأت الهدف . وضرب الفتى كرتة فحادت عن الخط الصحيح مسافة صغيرة ، ولكن الفتى أسرع وراءها ليتتبع سيرها عن قرب ، وكان الهدف بعيداً عن اللاعبين ، فانتهاز هذه الفرصة ودفع الكرة بقدمه دفعة خفيفة وجهتها التوجيه الصحيح . وهنا صاح قائلاً وهو يلوح بصولجان اللعب :

— لقد أصبت الهدف يا مس جو ، وبهذا أبدأ الدور قبلك .

قالت الفتاة في حدة :

— بل أنا التي أبدأ قبلك ، فقد رأيته تدفع الكرة بقدمك .

قال :

— أوكد لك أني لم أحركها ، ولعلها تدرجت قليلاً من تلقاء

ذاتها ، فابتعدى من فضلك ، ودعيني أكمل دوري .

فقال غاضبة :

— امض في اللعب إن شئت ، ولكننا لا نعرف الغش في أمريكا .

فقال وهو يزيح كرتها بعيداً :

— بل الأمريكيون أكثر الناس خديعة وغشاً !

وفتحت چو فمها ، وازدحمت الشتائم المقذعة على لسانها ، ولكنها أمسكت عن الكلام في الوقت المناسب ، وقد احتقن وجهها غضباً وثورة .

وبينما مضى فريد في اللعب حتى انتهى من الشوط ، ظلت چو في مكانها تضرب الأرض بصولجانها ، وفي يدها رجفة تدل على بالغ حنقها . وأعلن فريد انتصاره في زهو وفخار ، فابتعدت چو متظاهرة بالبحث عن كرتها ، وغابت لحظات تضرب في المرج على غير هدى ، حتى إذا سكن جأشها ، عادت إلى إخوانها هادئة . وبدأ شوط جديد ، فصاعفت چو جهودها لتسترد مكانتها ، فلما حالفها الحظ ، وأوشكت أن تنتهي منتصرة ، صاح فريد يقول لأخته منفعلًا :

— لم يبق لها إلا كرة واحدة ثم تنتصر ، لقد خسرنا الدور يا كات وانتهى أمرنا .

وألقت چو على الفتى نظرة جعلت دماء الحجل تتصاعد إلى وجهه وقالت :

— إن للأمريكيين أساليب في التسامح مع خصومهم ، خصوصاً
إذا كانت الهزيمة نصيب هؤلاء الخصوم !

وقذف لورى قبعته في الهواء احتفالاً بالنصر ، ثم عاد فتذكر أنه
ليس من حسن الأدب أن يحتفل بهزيمة ضيوفه ، فحبس صيحات
الفرح في فمه ، وهمس في أذن صديقه يقول :

— أحسنت في تأديبه يا چو ، فقد رأيته يغش ، بيد أنى لم أتكلم
تأديباً ، ولكنك لقنته درساً لن ينساه ، وأعتقد أنه لن يعود إلى الخديعة
مرة أخرى .

واقتربت ميج من أختها چو وتظاهرت بأنها تعينها على إصلاح
هندامها ، وهمست في أذنها قائلة :

— لقد كان سلوكه مشيناً ، ولكنك احتفظت بسلوكك ، ولم
تطلقي العنان لغضبك ، وأنا فخورة بك يا چو :
فقالت چو وهى تعض على شفتها في غيظ وتسترق النظر إلى غريمها
فريد :

— لا تمدحيني ، فما زالت مراحل الغضب تغلى في صدرى ، وبودى
لو استطعت أن أعرك أذنه مؤدبة ، لست أدرى كيف كان ينتهى
الموقف لو لم أبتعد عنه متظاهرة بالبحث عن كرتى .
قال مستر بروك وهو يتطلع إلى ساعته :

— حان وقت الغداء ، فهيا يا أركان الحرب إلى النار توقدها ،

ولا تنس أن تحضر لنا ماء . أما أنا فسأعد مائدة الطعام ، وسأطلب إلى مس مارش ومس سالى أن تساعدانى فى هذا العمل ، من منكم يتقن عمل القهوة ؟

قالت ميج فخورة بأن تزكى إحدى أخواتها :

— ليس من يصنع القهوة مثل چو .

وهكذا أتيح لچو أن تستفيد بدروس الطهى التى تلقتها فى المدة الأخيرة ، فقامت إلى القهوة تعدها ، وتطوع معظم أفراد المعسكر لمعاونتها ، فأتاها الصغار بحطب للوقود ، وحمل لها الكبار ماء من ينبوع ، وعكفت مس كات على لوحاتها ترسم المناظر الخلابة التى تراها حولها ، وانشغل فرانك بالحديث مع بث التى جعلت تجدل من فروع الأشجار وأوراقها صحنوناً للطعام . وسرعان ما هيا القائد بمعونة مساعديه مائدة للطعام بديعة الترتيب ، رصت فوقها المأكولات والمشروبات وقد زينت بأوراق الأشجار الخضراء . وعندما انتهت چو من إعداد القهوة ، جلس الضيوف إلى المائدة يأكلون فى حماسة وهمة ، لأن الشباب لا يعرف سوء الهضم إلا نادراً .

وكانت الوليمة مريحة عامرة بأسباب البشر والسرور ، وقد تخللتها عواصف الضحك مرات كثيرة ، حتى انزعج الحصان الذى كان يرعى الحشائش على مقربة من الجماعة . وتتوالى الأحداث الصغيرة المضحكة ،



لتضاعف مرح الفتيان والفتيات ، فتسقط الحشرات فى أكواب اللبن ،
 ويأكل النمل الأسود من الحلوى دون أن يدعى إلى الوليمة ، وتنحدر بعض الديدان
 من أفرع الشجرة لتستطلع ما يجرى تحتها . ومن وراء السياج القريب ،
 وقف ثلاثة أطفال يسترقون النظر إلى الآكلين فى ظل الدوحة الباسقة ،
 ومن الضففة الأخرى للنهر ظل كلب عنيد يحتج فى نباح ملح مستمر .
 قال لورى مازحاً ، وهو يعطى چو صحناً من الفراولة ، ويذكرها بما فعلته
 يوم وليمتها المشهورة .

— إذا كنت تفضلين الفراولة بالملح فلدينا ملء علبة منه .

قالت وهى تلتقط عنكين غرقاً فى القشدة المخفوقة :

— شكراً لك ! إني أفضل الفراولة بالعناكب ، ولست أرى من اللياقة
 أن تذكرنى بأكلتى البشعة ونحن أمام هذه الوليمة الفاخرة .
 وكانت الصحون النظيفة قد نفدت ، فجعل الاثنان يأكلان الفراولة
 من صحن واحد .

وبعد أن انتهى الأصحاب من تناول الطعام ، شعر لورى أن أبهج
 ما فى اليوم قد مضى ، فقال لحو :

— كان يوماً فريداً فى متعته ، والفضل لك وليمج وبروك ، فلولاكم
 ما نجحت النزهة كل هذا النجاح ، ولكنى أخشى ، وقد انتهينا من
 تناول الطعام ، أن لا نجد ما نفعله خلال الساعات الباقية .

قالت :

— أقترح أن نقوم ببعض الألعاب المسلية ، وقد أحضرت معي لعبة المؤلفين ، ولكنى أفضل أن تستطلع رأى مس كات ، فلعلها ترشدنا إلى لعبة جديدة . اذهب إليها واسألها ، ورأى أن تبقى بجانبها بعض الوقت ، فهي فتاة لبقة بارعة ، ومن واجبك كمضيف أن تعنى بها وتعاملها .

قال :

— أولست بدورك لبقة بارعة ؟ لقد تركتها لبروك ، ولكنه انصرف عنها إلى ميج ، ففقتعت بأن تنظر إليهما من خلال نظاراتها المضحكة ، ولكنى سأذهب إليها على كل حال لأننى أعرف واجبى ، ولست فى حاجة إلى نصائحك .

وقد أصابت چو فى حدسها ، إذ كانت مس كات تعرف ألعاباً جديدة طريفة ، فلما أبى الفتيات مزيداً من الطعام ، ولم تتسع بطون الفتيان لمزيد منه ، انتقلوا إلى مكان الجلوس تحت شجرة البلوط ، ليستمعوا إلى مس كات ، وهى تشرح لهم لعبة « القصة » ، قالت :

— إنها لعبة لطيفة ، وإذا أحسننا القيام بها اجتمعت لنا قصة كبيرة مملوءة بالحوادث المحزنة والمواقف المضحكة . والطريقة أن يبدأ أحدنا بقصة ما ، فيروى لنا ما يعن له من حوادثها ، فإذا وصل إلى موقف مشير ، سكت فجأة ، وترك لمن يجلس بجانبه أن يمضى بها من حيث انتهى ، وهكذا تستمر القصة ، كل يروى جزءاً منها بطريقته الخاصة ، حتى

تنتهى بانتهاء اللاعبين .

ثم التفتت إلى بروك وقالت له في لهجة أمرة ، أدهشت ميج التي كانت تكن له كل تجلة واحترام :

— هيا ابدأ يا مستر بروك .

وكان مستر بروك يرقد على الحشائش عند أقدام الفتاتين ، فلم يتحرك من مكانه ، وبدأ يروى القصة ، وقد اتجهت عيناه العسليتان الجميلتان نحو صفحة النهر التي تلمع تحت أشعة الشمس المشرقة .

قال :

— يحكى أن فارساً في قديم الزمان ، خرج يبحث عن الحظ والمال ، وليس معه سوى سيفه ودرعه . وتلقفته الصعاب ثمانية وعشرين عاماً ، قضاهما في السفر والترحال ، ثم قادته قدماه ذات يوم إلى قصر ملك طيب القلب ، يقتنى جياداً كثيرة من بينها مهر جميل عنيد استعصى عليه قياده ، فرصد مكافأة لمن ينجح في ترويضه . وقبل الفارس أن يجرب حظه مع المهر العنيد طمعاً في المكافأة . وكان من حسن حظه أن استأنس إليه الجواد وأسلس له قياده ، فكان يمتطيه كل يوم ليدر به ، ويسير به في طرق المدينة ، وهو يقلب النظر حوله باحثاً عن وجه جميل ، طالما داعب أحلامه . وبينما كان يتروض بالمهر ذات يوم ، في درب هادئ بعيد ، رأى الوجه الذى ينشده يطل عليه من نافذة قلعة خربة ، فاستخفه الفرح ، وراح يسأل الناس عن سكان هذه القلعة .

فقالوا له : إنهن أميرات سجينات ، ضرب حولهن نطاق من السحر لا خلاص منه إلا بفدية كبيرة ، ولذلك يقضين الأيام في الغزل والنسج ، حتى يجتمع لهن مال الفدية المطلوبة . وكان بود الفارس أن يحرر السجينات ، ولكنه كان فقيراً ، لا يملك مالا كثيراً أو قليلاً ، فقع بمتعة النظر ، وظل يمر بالقلعة كل يوم ليمتع عينيه بمراى الوجه الجميل . وأخيراً اعتزم أن يدخل القلعة ، ليعرض خدماته على سجيناتها ، فطرق الباب الذى ما لبث أن انفتح عن . . .

وسكت بروك فجأة ، ففضت كات بالقصة دون تردد ، قالت :

— وما لبث الباب أن انفتح عن سيدة رائعة الجمال . عندما رآته يقف أمامها صاحت به قائلة : « ها أنت ذا قد جئت أخيراً ! » . قال الكونت جوستاف وهو يركع أمامها : « إنها حبيبتي » ، فهدت إليه يداً مرمرية تعينه على النهوض وقالت : « قم أيها الفارس ! » فقال : « لن أقوم حتى ترشدينى كيف أنقذكن » . قالت : « لن تستطيع إنقاذى وأأسفاه ! فقد كتب على حظى العاثر أن أبقى هنا حتى يهلك الطاغية الذى سحرنى » قال : « وأين هذا الوغد ؟ » قالت : « فى البهو الأرجوانى ، فاذهب إليه ياذا القلب الشجاع ، وأنقذنى من شروره وآثامه » . قال : « سألبى رغبتك يا أميرتى وأذهب إليه لأنتصر عليه أو أموت بيده » . واندفع الفارس متحمساً نحو البهو الأرجوانى ، فلما وصل إلى بابه فتحه على مصراعيه ، وما كاد يخطو خطوة إلى الأمام ، حتى تلقى . . .

وسكتت مس كات عن الرواية فجأة ، فقال ند :

— ضربة قاصمة من هراوة ضخمة ، قذفه بها عجوز يرتدى جلباباً
أسود ، ولكن سرعان ما استرد صديقنا صوابه ، فهجم على الطاغية ،
وحمله بين يديه ، وقذف به من النافذة ؛ ثم ارتد عائداً إلى أميرته ، وقد
تورم جبينه من أثر الضربة ، فإذا به يجد أن باب البهو الأرجواني قد
أقفل عليه ، وانسدت أمامه مسالك العودة ، فجدل من الستائر سلماً
يعينه على النزول من النافذة إلى الطريق . وما إن توسطت المسافة نحو الأرض
حتى انقطع السلم ، فهوى الفارس في خندق يبلغ عمقه عشرين متراً ،
وغاص رأسه في مياهه الآسنة ، ولكن سرعان ما تغلب على محنته ،
فطفأ فوق سطح الماء ، وظل يسبح حول القلعة ، حتى وجد باباً صغيراً
يخرسه جنديان سمينان ، فانقض على رأسيهما وضرب الواحد منهما بالآخر
فكسرها إلى قطع صغيرة . وضرب الباب بكتفه الهرقلية ، فتحطم لأول
ضربة ، وتناثرت شظاياه . ثم دخل الفارس إلى دهليز مظلم تسعى على
أرضه المتربة هوام طول الواحد منها مثل قبضة اليد ، وعناكب يرتجف
لضخامتها قلب مس مارش ، وقادته قدماه إلى سلم عتيق ، ولما صعد
إلى آخر درجاته طالعه منظر يجمد له الدم في العروق ، فقد رأى

وسكت ند فجأة . فقالت ميج :

— شعباً طويلاً ، تغطيه ثياب بيضاء فضفاضة ، وقد أسدل على
وجهه نقاباً ، وأمسك بيده مصباحاً . وأشار الشبح إلى الفارس ليتبعه ،

وتقدم إلى الأمام كأنه يسبح في الهواء ، ومن خلفه سار الفارس في درب مظلم بارد ، تقوم على جانبيه تماثيل تلبس دروعاً حديدية ، وكان السكون شاملاً ، والبرد قارساً ، والمصباح يبعث في الدرب نوراً خافتاً ، وبين حين وحين كان الشبح يلتفت إلى الفارس ، فتلمع عيناه الخفيفتان من وراء قناعه الأبيض . وأخيراً وصل الاثنان إلى باب أسدلت فوقه الستائر ، وانبعثت من ورائه أنغام موسيقية عذبة ، فتقدم الفارس نحو الباب مندفعاً ، ولكن الشبح رده إلى الوراء مهدداً ، ثم قدم له

وسكتت ميج ، فاستطردت چو تقول في لهجة حزينة :

— ثم قدم له علبة سعوط ، فشكر الفارس الشبح ، وأخذ قليلاً من السعوط بين أصبعيه واستنشقه ، فعطس سبع عطسات ، انفصل لشدتها رأسه عن جسده ، واسترق الشبح النظر من ثقب الباب إلى السيدة التي كانت تغزل وتنسج لتدفع فديتها ، ثم قهقهه عالياً ، وأخذ جثة الفارس ، ووضعها في صندوق كبير ، مع إحدى عشرة جثة أخرى لفرسان بلا رعوس . وفجأة شرع الفرسان جميعاً في

وتوقفت لتلتقط أنفاسها ، ولكن فريد ظن أنها انتهت من روايتها ، فقال متحمساً :

— شرع الفرسان جميعاً في رقصة بديعة ، فإذا بالقلعة تنقلب إلى سفينة حربية ، ملاً الهواء شراعها ، فسارت تشق عباب البحر مسرعة . ورأى ربانها سفينة القرصان تقترب يرفرف عليها علم أسود ، فصاح

فى رجاله يقول : « انشروا الشراع الأكبر ، وحولوا الدفة ، واحشوا المدافع والزموا أما كنكم ، وقاتلوا لتتصروا أيها الأبطال » . وبدأت معركة هائلة انتصرت فيها السفينة الحربية ، وأسرت القرصان بعد أن قتلت رجاله ، وصاح القبطان يقول لمساعدته : « دع هذا الوغد يكتب اعترافاً بما اقترفت يده ، وعليك بتعذيبه إن توانى عن كتابته » . ولكن القرصان أبى أن يعترف بجريسته ، ثم غافل مساعد القبطان ، وقفز إلى البحر ، وغطس تحت السفينة ، وفتح فى قاعها ثقباً كبيراً ، فغرقت لتوها

وسكت فريد فجأة ، فصاحت سالى وقد حل دورها وهى على غير استعداد :

— يا إلهى ، ماذا أقول ؟ . . . ماذا أقول ؟

ولكنها لم تلبث أن تغلبت على حيرتها وقالت :

— وغاصت السفينة إلى قاع البحر ، فاستقبلتها حورية بحرية بكل ترحاب ، وما إن رأت الحورية الصندوق الكبير ، وما حوى من فرسان بلا رعوس ، حتى استبد بها الحزن عليهم ، وأخذتها الشفقة بهم ، ورأت أن تحتفظ بهم حتى تحين لها الفرصة فتعرف قصتهم ، فغمرت بالخشخشة بمزيج من الماء والملح والخل . وكانت تعتزم أن تنقل الصندوق إلى سطح الماء ، لتعيد الحياة إلى الفرسان المساكين ، ولكنها عجزت عن حمله وحدها ، فتركته فى قاع البحر حتى تجد من يعينها على نقله .

وحدث ذات يوم أن غاص أحد الصيادين إلى القاع يبحث عن اللؤلؤ ، فقالت له الحورية : « هذا الصندوق مملوء باللؤلؤ ، فهو لك إن استطعت أن تحمله إلى الشاطئ » . وفرح الصياد بالصندوق فرحاً شديداً ، وحمله إلى الشاطئ بعد عناء شديد، ولكن صدمته كانت بالغة عندما وجد فيه جثثاً بدل اللآلئ ، وترك الصياد الصندوق في حقل فسيح ، حيث عثرت عليه

وسكتت سالى ، فقالت آمى :

— حيث عثرت عليه فتاة ترعى مائة إوزة ، فلما رأت الفتاة الفرسان ، حزنت عليهم كل الحزن ، وسألت عجوزاً حكيمة كيف تنقذهم مما أصابهم ، فأجابت العجوز : « سلى الأوز يخبرك بما تريدن » . وسألت الفتاة الأوز عما يصلح رعوساً للفرسان بدل رعوسهم الطائحة ، ففتحت الأوزات مناقيرها وصاحت

وسكتت آمى ، فقال لورى :

— عليك بالكرب ! فقالت الفتاة : « صدقت يا أوزاتى » ، ثم هرعت إلى حديقتها تجمع خير كرنباتها ، ووضعت واحدة منها مكان كل رأس من رعوس الفرسان . فإذا بهم يبعثون إلى الحياة مرة أخرى ، وبعد أن شكروا الفتاة على حسن صنيعها ، مضوا إلى حال سبيلهم ، وهم لا يدركون الفارق بين رعوسهم الأولى ورعوس الكرب ، شأنهم في ذلك شأن كثيرين من ذوى العقول الفارغة . أما فارسنا فقد عاد يبحث

عن حبيبته ، فعلم أن الأميرات الأسيرات اشترين حريتهن وتزوجن جميعاً إلا واحدة منهن . وقلق الفارس لما سمع ، وأراد أن يعرف حقيقة ما حدث ، فامتطى صهوة جواده الذى لازمه فى سرائه وضرائه ، واندفع يجرى به نحو القلعة ، حتى وصل إلى أسوارها العالية . وأطل من فوق الأسوار ، فرأى حبيبته تقطف الأزهار فى حديقتها ، فقال لها : « أعطينى وردة ! » . قالت له بصوت حنون : « تعال وخذها ، فليس من اللائق أن أذهب إليك » . وقام إلى السور يتسلقه ، ولكن السور بدأ يزيد ارتفاعاً ، فحاول أن يدفعه ، فازداد ضخامة وسمكاً ، وأخيراً استطاع صاحبنا أن يخفر فجوة صغيرة فيه ، أطل منها برأسه ، وقال يتضرع لحبيبته : « دعينى أدخل . . . دعينى أدخل » . ويبدو أن الأميرة لم تسمع رجاءه ، فقد جمعت أزهارها ، وانصرفت عنه بهدوء إلى قلعتها . . .

وأشار لورى إلى فرانك وقال :

— أما ما حدث بعد ذلك ، فهذا ما سيقصه علينا صديقنا فرانك .

قال فرانك وقد شعر بعظم مسئوليته فى إنقاذ بطلى القصة من مأزقهما

العاطفى :

— لا . . . لا يمكننى . . . لست مشتركاً معكم فى هذه اللعبة .

وكانت جريس قد استغرقت فى النوم ، وتوارت بث خلف چو ،

فلم يبق من يسير بالقصة إلى نهايتها .

قال بروك ، وما زال يتأمل صفحة النهر القريب ، ويداعب بأصابعه

زهرة برية مثبتة في عروة سترته :

— وهل يصح أن نترك الفارس المسكين محشوراً في السياج ؟

فابتسم لورى ، وقذف رائده ببعض الحشائش مداعباً ، ثم قال :

— أغلب الظن أن الأميرة أعطته باقة من أزهار حديقته ، وفتحت له باب القلعة على مصراعيه .

وضحك الأصدقاء لسخافة القصة التي ألفوها من وحي ساعتهم ، وقالت سالى :

— إننا في حاجة إلى بعض المراتة ، وإذا مارسنا هذه اللعبة مرات ، فلن يصعب علينا أن نؤلف قصصاً بارعة .

والتفتت إلى ميج تسألها :

— أتعرفين « الصدق » ؟

أجابت ميج وقد أخذت الكلمة بمعناها الحرفي :

— أرجو ذلك .

قالت سالى مستدركة :

— إنى أقصد لعبة « الصاق » .

قال فرانك :

— وكيف نلعبها ؟

قالت :

— نكتب أرقاماً على قصاصات صغيرة ، ونخلطها في إناء أو قبة ،

ثم نختار رقماً معيناً من الأرقام المكتوبة على القصاصات ، وبعد ذلك
يسحب كل منا قصاصة ، فمن يكون نصيبه الرقم المحدد ، وجب عليه
أن يجيب صادقاً عن أسئلتنا مهما كانت .

قالت چو وكانت مغرمة بكل جديد :

— فلنجرب هذه اللعبة !

ولكن لعبة « الصدق » لم تلق هوى في قلوب أفراد الجماعة كلهم ،
فقد اعتذر من الاشتراك فيها كيت وبروك وميج وند ، وبذلك اقتصرت
اللعبة على فريد وسالى وچو ولورى ، فكتبوا القصاصات ، واقترعوا عليها ،
وكان الرقم المختار من نصيب لورى .

وبدأت چو تسأله فقالت :

— من أعظم الناس في رأيك ؟

أجاب لورى :

— جدى ونابليون .

وسأله سالى :

— من تراها أجمل آنسات اليوم ؟

قال :

— مارجريت .

سأله فريد :

— وأيهن أحب إليك ؟

قال :

— چو بالطبع .

وقد أجاب عن السؤال الأخير في جد وصراحة ، فضحك الجالسون ملء أشداقهم ، وقالت چو وهى تهز كتفها بغير اكتراث :

— يا للأسئلة السخيفة !!

قال فريد متحمساً :

— إنها لعبة مسلية ، فدعونا نجربها مرة أخرى .

قالت چو بصوت خفيض ، وقد تذكرت غشه في لعبة الكريكييت :

— والله إنها لعبة تفيدك ، فقد تتعلم منها الصدق .

وحل دورها في الإجابة عن الأسئلة ، فقال لها فريد ، وغرضه أن يمتحن فيها فضيلة الصدق التى تنقصه :

— ما أعظم « أخطائك » .

قالت :

— حدة الطبع .

سألها لورى :

— ما الذى تتمنين الحصول عليه ؟

قالت ، وقد أدركت رغبته فى استدراجها :

— رباطاً للحذاء !

قال :

— ليس هذا جواباً صادقاً ، فصارحينا بأكثر ما تودين أن تحصلي عليه .

وتبدى الضيق في وجهه ، فابتسمت له بمكر وقالت :

— أليست هذه وسيلة ماهرة تعرف بها ما أريد فتهديه إلى ؟

سألها سالى :

— ما أحب فضائل الرجال إليك ؟

قالت :

— الشجاعة والأمانة .

واقترعوا مرة ثالثة ، فرفع فريد قصاصة في يده وقال :

— جاء دورى .

همس لورى في أذن چو يقول :

— فلنؤدبه على ما فعل .

فأومأت برأسها موافقة ، وسألت فريد :

— هل عمدت إلى الغش في لعبة الكريكييت ؟

أجاب :

— قليلا ! .

سأله لورى :

— ألم تقتبس الجزء الذى رويته في لعبة القصة من كتاب « أسد

البحار » ؟

قال :

— بلى !

سألته سالى :

— أأست تعتقد أن الإنجليز المثل الأعلى فى الكمال ؟

أجاب :

— عار علىّ إذا لم أكن أعتقد ذلك .

وأومات چو برأسها لفريد فى رضا عن صراحته وصدقه ، وقال له

لورى :

— أنت إنجليزى وقح .

ثم التفت إلى سالى وقال :

— لم يبق إلّاك ، فلنسألك ، ولا داعى للاقتراع . سأبدأ بهذا السؤال

المخرج : ألا توافقينى على أنك تميلين إلى المغازلة ؟

قالت :

— طبعاً لا أيها الفتى الوقح .

وسألها فريد :

— ما أبغض الأشياء إليك ؟

قالت :

— العناكب وعصيدة الأرز .

سألتها چو :

— وما أحب الأشياء إليك ؟

قالت :

— الرقص والقفازات الفرنسية .

التفتت چو إلى الجالسين وقالت :

— هذه لعبة مملة ، فلنجدد نشاطنا بلعبة « المؤلفين » .

وأيدها في ذلك ند وفرانك والفتيات الصغيرات ، أما مس كات فقد عادت إلى لوحاتها ترسم فيها ، وجلست مارجريت بجوارها ترقب عملها ، في حين استلقى مستر بروك على الحشائش ، وأمامه كتاب مفتوح لا يقرأ فيه . وانشغل الثلاثة في حديث طويل .

قالت ميج في خليط من الإعجاب والأسف :

— هذا رسم جميل ، فليتني أستطيع أن أعمل مثله .

قالت مس كات في عظمة :

— ولم لا تتعلمين الرسم ؟ إن لديك الذوق والموهبة .

قالت ميج :

— ولكن ليس لدى الوقت .

قالت :

— لا بد أن والدتك ، كوالدتي ، تفضل ألواناً أخرى من الثقافة ،

ولكنى تلقيت بضعة دروس خاصة ، فلما رأيت نتيجتها ، آمنت بموهبتي ، وتركتنى أتعلم الرسم . أليس فى مقدورك أن تفعل ما فعلت فتمرنى يدك على الرسم مع مربيتك ؟

قالت ميج :

— ليس لى مربية .

قالت كات :

— نسيت أن الفتيات فى أمريكا يتعلمن فى المدارس ، لا فى البيت كما هو شأننا فى إنجلترا ، وقد أكد لى والدى أن مدارسكم راقية جداً . فىلإى أية مدرسة خاصة تذهبين ؟

قالت ميج :

— إنى لا أذهب إلى مدارس ، لأننى أعمل مربية .

قالت مس كات :

— كذا ؟ !

وكان فى صوتها رنة اشمزاز ، فاستبد الخجل بميج ، وندمت على صراحتها .

ورفع مستر بروك رأسه بسرعة وقال :

— إن الفتيات فى أمريكا يؤمن بالحرية والاستقلال ، ومن دواعى فخرنا أنهن يعملن ليعلن أنفسهن .

قالت مس كات فى إشفاق آلم ميج ، وزادها احتقاراً لمهنتها :

— طبعاً ، وليس فى ذلك حرج ، فلدينا أيضاً فى إنجلترا ، فتيات من أسر كريمة يشتغلن فى بيوت النبلاء مربيات ، ويؤدين عملهن فى براعة وإتقان ، بحكم نشأتهن الطيبة مهذبات مثقفات .

قال مستر بروك يغير الموضوع :

— هل أعجبتك الأغنية الألمانية يا آنسة مارش ؟

أجابت ميج وقد أشرق وجهها مرة ثانية :

— أعجبتنى جداً ، وأنا شاكرة لمن قام بترجمتها .

سألها مس كات فى دهشة :

— ألا تعرفين اللغة الألمانية ؟

أجابت ميج :

— أعرفها قليلاً ، وكان أبى يدرسها لى ؛ ولكن منذ أن سافر إلى ميدان القتال وأنا لا أجد من يصحح أخطائى ، ولذلك أتقدم فيها ببطء شديد .

وحمل مستر بروك كتابه ، ووضعوه فى حبرها ، ثم قال بابتسامة

مشجعة :

— هاك كتاباً ألمانياً ، فجربى أن تقرئى فيه ، وستجدين فى مدرساً

ومرشدًا .

وخجلت ميج أن تقرأ فى الكتاب على مسمع من الإنجليزية المثقفة ،

فقالت :

— إنها مهمة شاقة ، وأخاف أن أجرب .

قالت مس كات :

— سأقرأ مقطوعة لأشجعك .

وأخذت الكتاب ، وجعلت تقرأ صفحة فيه ، وكانت قراءتها صحيحة ونطقها سليماً ، ولكن صوتها كان رتيباً مملاً لا روح فيه ولا حياة ، فانتبهت الصفحة ، وكأن لا معنى لها .

وأعادت الكتاب إلى مستر بروك ، فأخذه صامتاً ، ولم يشأ أن يعلق على قراءتها بكلمة . قالت ميج :

— ظننته شعراً !

قال بروك في ابتسامة غامضة :

— إن بعضه شعر ، فحاولي أن تقرئي هذه المقطوعة .

وكانت مقطوعة حزينة ، تصف آلام امرأة ، فبدأت ميج تقرأها في صوت موسيقي ، أكسب الكلمات الكبيرة الصعبة رنيناً حلواً شجياً . ولم تلبث الفتاة أن اندمجت في قراءتها ، فنسيت الجالسين معها ، وجعلت تقرأ لنفسها في رنة حزينة أضفت على المقطوعة ظلاً واقعياً مؤثراً .

وظلت تقرأ ، ومستر بروك يرنو إليها ، وفي عينيه العسليتين إعجاب بالغ ، لم تره لحسن الحظ ، وإلا كانت توقفت عن القراءة لفورها .

وتوقفت عند آخر المقطوعة ، فقال مستر بروك متجاهلاً أخطاءها

الكثيرة :

— عظيم جداً .

قالت مس كات فى تواضع ، وهى تلقى نظرة أخيرة على رسمها :
— إن لك لهجة حلوة ، وستكونين قارئة ممتازة فى يوم من الأيام ،
ونصيحتى أن تمضى فى دراسة الألمانية ، فإنها ثقافة لازمة للمربيات .
والآن سأذهب للبحث عن جريس .

وابتعدت عنهما ، وهى تقول فى نفسها :

— هل أتيت اليوم لأجالس مربية ، وأحميها من صحبة الرجال ؟
إن الأمريكيين غريبو الأطوار ، وأخشى أن تفسد أساليبهم أخلاق لورى
وشخصيته .

ونظرت ميج خلف الأرستقراطية المتعجرفة ، وقالت بضيق :

— ليتنى ما أخبرتها بمهنتى ، فالإنجليز لا يحترمون المربيات ، مثلما
نحترمهن فى أمريكا .

قال بروك :

— ولا يحترمون المربين أيضاً .

وكان فى صوته أجلى معانى الرضا بحاله ، حتى خجلت ميج

لثورتها على عملها . قالت :

— من حسن الحظ أننا نعيش فى أمريكا ، حيث يقدر الناس
مهنتنا . حقيقة أننى لا أميل إلى عملى ، ولكنى أجد فيه ترضية كافية .
لست أتذمر وإن كنت أتمنى أن أحب التدريس مثلما تحبه .

قال بروك وهو يلهو بحشائش الأرض :

— ما كنت تكرهين التدريس ، لو كان لورى تلميذك ، ويؤسفنى
أننى سأفقدته فى العام القادم .

قالت ميج :

— عندما يلتحق بالجامعة ؟

قال :

— نعم ، لقد حان الوقت ، وعن قريب يتم إعداده للجامعة ،
وسألتحق بالهندية عندما يذهب .

قالت ميج :

— يسرنى أن أسمع ذلك ، فمن واجب الشباب أن يذهبوا إلى القتال ،
وإن شق فراقهم على الأمهات والأخوات .

وكان مستر بروك قد حفر فى الأرض حفرة صغيرة ، فأودعها زهرته
الذابلة ، وغطاها بالتراب ، كما لو كانت قبراً صغيراً ، وقال بمرارة :

— ليس لى أم تبكىنى ، ولا أخوات يحزن لفراقى ، ولن يهتم بأمرى
غير أصدقاء قليلين .

قالت ميج بجرارة :

— أمرك يهم لورى وجده ، وكلنا نتمنى أن لا يصيبك سوء .

وعاد وجه مستر بروك إلى إشراقه ، وقال :

— شكراً على هذه التحية الطيبة .

ولكن قبل أن ينتهى من كلامه أقبل ند يمتطى صهوة جواد عجوز ،
ليعرض على أنظار الفتيات فروسيته ، فانقضت بقدمه الخلوة
المهذبة ، وأحاط الضجيج بالجالسين .

سألت جريس آمى ، بعد سباق حول المعسكر :

— أتحبين ركوب الخيل ؟

أجابت آمى ضاحكة :

— بل أعبدته . وكانت أختى ميج تتركب الخيل أيام عزنا القديم ،
ولكننا لا نملك اليوم جياداً سوى « آلان ترى » .

سألها جريس باهتمام :

— وما « آلان ترى » ، أهو حمار ؟

قالت :

— لا ، وكل ما فى الأمر أننى وچو نغرم بركوب الخيل ، ولما
كنا لا نملك غير سرج قديم ، فقد اعتدنا أن نحمله إلى الحديقة ،
ونضعه على غصن منخفض من شجرة التفاح ، ونثبت عنانه فى جذعها
ثم نمتطيه كلما هزنا الشوق إلى الركوب .

قالت جريس ضاحكة :

— فكرة مسلية ! أما أنا فعندى مهر فى البيت ، وقد اعتدت أن
أخرج به مع فريد وكات كل صباح تقريباً ، فنذهب إلى البستان
حيث نتقابل مع أصدقائنا . إن « ميدان الرماحة » لا يخلو أبداً من

السيدات والسادة .

قالت أمى التى لم تكن تعرف ما هو « ميدان الرماحة » ، ولم يكن يرضى لها غرورها أن تسأل عنه :

— مدهش ! . كان بودى أن أسافر إلى الخارج يوماً من الأيام ، ولكنى أفضل أن يكون سفرى إلى روما ، لا إلى ميدان الرماحة .

وكان فرانك يجلس خلفهم ، فلما ترمى إلى سمعه بعض حديث البنات ، ورأى الفتیان يلهون ويلعبون ، دفع عنه عكازه فى ضيق واضح . وكانت بث تجمع القصاصات الصغيرة المتخلفة عن اللعب ، فلما شعرت بضيق الفتى رفعت إليه وجهها وقالت بأسلوبها الخجل الحنون :

— إنى أراك تعباً ، فهل من خدمة أؤديها لك ؟

أجاب فرانك ، الذى اعتاد دائماً أن يكون محور عناية أهله :

— أرجو أن تتحدثنى إلى قليلا ، فقد كاد السأم يقتلنى .

وكانت مهمة عسيرة جداً على بث ، ولم يكن أمامها مكان تلوذبه هرباً من الكلام ، ولم تكن چو بجانبها حتى تختفى وراء ظهرها ، فضلاً عن أن الفتى كان ينظر إليها وفى عينيه رجاء واستعطاف ، لذلك استجمعت شجاعتهما ، وقررت أن تستجيب لرغبته . قالت وقد غلبها الارتباك ، حتى سقطت معظم القصاصات من بين يديها :

— أى موضوع تفضل أن نتكلم فيه ؟

ولم يكن فرانك قد أفلح فى إخضاع مزاجه لظروفه الجثمانية ،

فقال :

— حدثني عن الكريكات والتجديف والصيد .

وجزعت بث ، لأنها كانت تجهل كل ما يتصل بهذه الرياضات ،
فقالت وقد تملكها الغيظ حتى أنساها محنة الفتى وآلامه :
— لم أشترك في صيد قط ، ولم أر أحداً يصيد ، وأغلب ظني أنك
ملم بشئون هذه الرياضة .

قال فرانك ، وقد ندت عنه تنهدة حزينة ، جعلتها تندم على
ملاحظتها البريئة :

— لقد خرجت إلى الصيد مرة ، ولكنني لن أستطيع ذلك مرة أخرى ،
فقد ألقاني الجواد عن ظهره ، وهو يقفز من فوق حاجز مرتفع ، فسقطت
على الأرض ، وأوذيت في ظهري كما ترين . وبذلك انتهى عهدي بالحياد
والكلاب .

قالت تدير دفة الحديث إلى وصف البراري التي قرأت عنها في
كتاب اقترضته مرة من أختها چو :

— يقال إن غزلانكم أجمل كثيراً من جاموسنا القبيح .

وأتى الحديث عن الجاموس بأثره المطلوب ، فاشترك معها فرانك
في محادثة مرحة طويلة شغلتها عن الالتفات إلى أختها ، التي راحت تتطالع
إليها ولا تكاد تصدق أن بث تغلبت على حياؤها ، ورضيت أن تتبادل
الحديث مع واحد من الصبيين الفظيعين على حد تعبيرها .

قالت چو فخورة بأختها :

— يا لقلبها الطيب ! لقد أخذتها الشفقة به ، فجلست إليه تؤنس وحدته .

أجابت ميج تؤكد قول أختها :

— ألم أقل لك دائماً إنها قديسة صغيرة ؟

وكانت جريس مشغولة مع آمى فى حديث طويل عن الدمى واللعب ، فلما سمعت أخاها الكسيح يقهقه عالياً ، التفتت إلى صاحبها تقول :

— لم أسمع فرانك يضحك هكذا منذ أمد طويل .

أجابت آمى فخورة بتوفيق أختها :

— تستطيع بث أن تكون « مجذوبة » عندما يحلو لها . . .

وكانت تقصد « جذابة » فأخطأت وقالت « مجذوبة » ، ولكن جريس لحسن الحظ لم تكن تعرف الكلمتين ، فمرت الغلطة بسلام .

ومضت بقية اليوم فى لعب ومرح ، حتى إذا غربت الشمس كانت أدوات المخيم قد جمعت ونظمت ، وعادت القوارب بأفراد الجماعة وهم يغنون ملء حناجرهم .

وجاشت عواطف ند ، فجعل يترنم بأغنية حزينة مطلعها :

« وحدى . . وحدى . . مع الآلام وحدى »

واتجهت عيناه إلى ميج ، وعندما وصل إلى مقطوعة تقول :

« كلانا شباب ، ولكلينا قلب خفاق »

فلماذا نقف في جفاء وابتعاد . . . ؟ »

كانت ترتسم في نظره معاني الحزن والأسى ، فلم تملك ميج زمام نفسها وانفجرت في وجهه ضاحكة ، وبذلك أفسدت عليه أغنيته الطافحة بالعاطفة . قال يهمس في أذنها :

— لماذا تقسين علىّ هكذا ؟ لقد تركتني طول اليوم إلى صحبة هذه الإنجليزية المتعجرفة ، والآن تسخرين مني وتهزئين بي .

وكانت ميج لا تزال تذكر وليمة آل موفات ، والأحاديث التي سمعتها في نهايتها ، ولذلك اختارت أن تبعد عنه طول اليوم ، وأن تتجاهل صحبته على قدر الإمكان ، فلما سمعته يهمس في أذنها معاتباً ، قالت وهي تتظاهر بأنها لم تفهم قصده :

— يؤسفني أن أسأت إليك ، ولكن منظرك كان مضحكاً للغاية ، فلم أتمالك نفسي .

وتألم ند لقلوها كل الألم ، فالتفت إلى سالى يطلب العزاء ، وقال لها في غيظ :

— هذه الفتاة غير قابلة للغزل .

أجابت سالى مدافعة عن صديقتها :

— صدقت ، ولكنها فتاة لطيفة للغاية !

قال مستظرفاً :

— لا يوجد من هو أظرف منك !

وعادت الجماعة إلى حديقة آل لورنس ، وكما تجمعت فيها أول
اليوم ، كذلك تفرقت منها في آخره ، وسارت الأخوات الأربع ، عائدات
إلى البيت عبر الحديقة . فلما ابتعدن قليلا ، التفتت كات تنظر إليهن ،
وقالت في عجرفة وقسوة :

— إن الفتيات الأمريكيات لطيفات المعشر رغم أساليهن العجيبة .

أجاب مستر بروك :

— وأنا معك في هذا الرأي .



الفصل الثالث عشر

قصور في الهواء

في مساء يوم من أيام شهر سبتمبر ، جلس لوري في أرجوحته يهزها يميناً وشمالاً ، وهو يتساءل عما يشغل جاراته في البيت الآخر . . . وكان بوده أن يذهب إليهن ليستطلع الخبر ، ولكنه كان يشعر بضيق شديد ، بعد أن مضى به اليوم دون فائدة أو لذة ، حتى تمنى لو كان في استطاعته أن يعيشه من جديد ، ليختار له منهجاً أفضل .

وكانت حرارة اليوم قد أورثته كسلاً وقلقاً ، فتمرد على دروسه ،

وعاكس رائده حتى استنفد صبره ، وضايق جده بعزف الموسيقى طوال المساء ، وأفزع الخدم إذ أوههم بأن كلبه مريض ، وحتى خادم الحظيرة المسكين ، لم يسلم من شر لسانه ، فقد اتهمه لورى ظمناً بأنه أهمل العناية بأمر جواده .

وعندما نال كفايته من مضايقة الناس وإزعاجهم ، خرج إلى أرجوحته في الحديقة فاستلقى عليها يفكر في سخافة أحوال العالم أجمع ، ثم لم يلبث جمال الطبيعة أن رد إليه هدوء نفسه المفقود ، فانطلق مع أحلامه إلى آفاق بعيدة ، وتخيل أنه يركب البحر في رحلة ممتعة حول العالم . وفجأة انبعثت من الحديقة المجاورة أصوات عالية ، رأى على أثرها بنات مارش يخرجن من البيت في نشاط كأنهن أفراد رحلة كشفية .

ودهش لورى إذ رأى الأخوات الأربع يرتدين قبعات واسعة ، ويحملن أكياساً بنية اللون ، ويمسكن بعصى غليظة ، وكانت ميج تحمل وسادة ، وچو تهز كتاباً في يدها ، وبث تجر خلفها مجرفة ، أما آمى فكانت تسير بخيلاء وتحت إبطها حافظة أوراق كبيرة .

قال لورى لنفسه مغيظاً :

— يا للخيانة ! إنها نزهة يخرجن إليها من غيرى ، لست أستبعد أن يكون القارب مقصدهن ، ولكن مفتاحه معى ، فالأفضل أن أحمله إليهن .

ومع أن لورى كان يملك نصف دسته من القبعات ، إلا أنه تعب

فى البحث حتى عثر على واحدة ، ثم جاء دور المفتاح ، فجعل يفتش عنه فى كل مكان من البيت ، ثم وجدته أخيراً فى جيبه ، وهكذا ضاع الوقت هباء . فلما خرج يبحث عن صديقاته ، كن قد اختفين عن الأنظار .

ولم يشأ أن يضيع مزيداً من الوقت ، لذلك اتجه إلى مرتبط القارب من أقرب طريق يعرفه ، ووقف بجواره ينتظرهن ، ولكن الوقت مضى ولم يظهر للفتيات أثر . وأدرك أنهن قد ذهبن إلى مكان آخر ، فأسرع يصعد التل ، عسى أن يهتدى إلى مكانهن من عل . وتلفت حوله مستكشفاً فرأى على مقربة منه ، حرجاً من أشجار الصنوبر تناهت إليه منه أصوات خافتة ليست من فعل اهتزاز الغصون أو تغريد الطير . قال :

— يا للمنظر الجميل !

وكان المنظر بالفعل جميلاً ، فقد كان الأخوات الأربع يجلسن معاً فى ركن ظليل بين أحضان الصنوبر ، والشمس تلمع من حولهن ، والنسيم العليل يداعب خصلات شعورهن ، أما الخطابون ، فكانوا فى شغل عنهن بعملهم ، وكأن لا غريب يجلس بينهم . وكانت ميج تجلس على الوسادة ، وهى تطرز بيديها البيضواين ، وفى جبينها إشراق ونضرة . وكانت بث تنسق كيزان ثمار الصنوبر التى جمعتها من تحت الأشجار ، وتنظمها فى أشكال جميلة . وكانت آى ترسم مجموعة من نباتات السرخس ، راق لها أن تجعل منها موضوع لوحها الجديدة .

أما چو فكانت تطرز بيديها ، وفي الوقت ذاته تقرأ في كتابها بصوت مرتفع .

وغشت وجه لورى سحابة من الوجوم ، فقد كانت كرامته تهيب به أن ينصرف عن البنات ما دمن قد قصرن في دعوته إلى الخروج معهن . ولكنه كان يكره أن يترك صحبتهن المرحه إلى وحدة البيت وكآبته . واستبدت به الحيرة ، فوقف في مكانه بلا حراك ، حتى إن سنجابا كان يرعى على مقربة منه فوجيء بمراه ، فصرخ منزعجاً ، وأسرع بالهرب من هذا الغريب الذي يأبى أن يعلن عن وجوده بكلمة أو حركة . وحمل الهواء صرخة السنجاب إلى الجالسات بين أشجار الصنوبر ، فرفعت بث رأسها ، وعندئذ رأت لورى ، فأشارت إليه تستقدمه .

قال وهو يقترب منهن متردداً :

— أأسمحن لى بالجلوس معكن ؟ أم ترين أن صحبتى تزعجكن ؟

وهمت ميج بالاعتراض ، ولكن چو سبقتها إلى الكلام قائلة :

— تفضل بالجلوس معنا على الرحب والسعة ، لقد كنا نريد أن

ندعوك إلى الخروج معنا ، ولكننا خشينا أن تبرم بالعباب الفتيات ووسائلهن في التسلية .

قال :

— إني أحب ألعابكن وتسلياتكن ، ولكن إذا كان لميج اعتراض

على وجودى ، فلن يسوعنى أن أنصرف .

قالت ميج فى وقار وجد :

— لا مانع من بقائك ما دمت تقوم بعمل من الأعمال ، فإن لكسل مخالف لدستورنا ، وقد اتفقنا أن نخلف الكسل فى هذه النزهة .

قال لورى وفى وجهه علام الخضوع والإذعان :

— أشكرك إذ سمحت لى بالانضمام إليك ، فاليست ممل كئيب ، لا تسلية فيه ولا متعة ؛ أما من حيث العمل ، فأنا على تمام الاستعداد ... ماذا تريد منى أن أعمل ؟ أأطرز ، أم أقرأ ، أم أرسم ، أم أقوم بكل هذا فى وقت واحد ؟ لن أتأخر عن شىء ... فمرى ... أطع ...

قالت چو ، وهى تناوله كتابها :

— اقرأ لنا ، ريثما أعيد تنظيم حداثى .

وأراد لورى أن يظهر شكره لسماحهن له بالانضمام إليهن فقال فى أدب :

— سمعاً وطاعة ...

ولم تكن القصة التى طلب إليه أن يقرأها طويلة ، فلما انتهى منها ، كان حب الاستطلاع قد استبد به ، وتاق أن يفهم المقصود من هذه النزهة التى قالت ميج إن الكسل مخالف لقوانينها . قال فى لهجة رسمية :

— أرجو أن تسمح لى يا حضرات الآنسات أن أسألكن إذا كان

هذا الاجتماع العامر بالثقافة والفائدة ، فكرة جديدة اهتدتين إليها ؟

ونظرت ميج لأخواتها مستفسرة ، وقالت :

— أنخبره ؟

قالت آحى محدرة :

— سيضحك منا إذا عرف .

قالت چو :

— وهل يضيرنا أن يضحك ؟

قالت بث :

— أنا واثقة أن الفكرة ستعجبه ! .

قال لورى :

— ستعجبني حتما ، وأعد كن بشرفى أن لا أضحك ، فأخبريني

بها يا چو ، ولا تخافى .

قالت چو :

— وهل يعقل أن أخاف منك ؟ القصة وما فيها أننا كنا طوال العام

نلعب فى البيت لعبة الحجاج .

قال لورى :

— أعرف ذلك .

فسأله چو :

— وكيف عرفت ؟

قال :

— همست العصفورة فى آذنى .

قالت بث فى خجل :

— بل أنا التى أخبرته بلعبة الحجاج ، وكان ذلك عندما جاء لزيارتنا ذات مساء ، ولم يكن بالبيت غيرى ، فأردت أن أسرى عنه بما نفعل فى أوقات فراغنا ، وقد راقته اللعبة ، فلا تؤنّبينى يا چو .

قالت چو لأختها :

— ألا يمكنك أن تحفظى سرّاً واحداً ؟ ولكن لا بأس ، فقد جنبتنا مشقة شرح اللعبة له !

وعادت چو إلى تطريزها ، وفى وجهها علامة الضيق ، فقال لورى لها :

— ألا تحدثينى بما جاء بكن اليوم هنا ؟

قالت :

— كنا قد اتفقنا فى بداية العطلة أن نستفيد بأوقاتنا ، وأن لا ندع الأيام تمر بنا هباء . وبالفعل قامت كل منا بعمل مفيد ، وحرصت على أدائه بعزيمة وإتقان ، وها قد أوشكت العطلة أن تنتهى ، ومعها أوشكت أعمالها أن تنتهى أيضاً ، ولم تذهب ضحية للكسل كما كان الحال فى الأعوام الماضية .

قال لورى وقد تذكر الأيام المتعاقبة التى يقضيها فى كسل متصل :

— والله إنها فكرة طيبة .

قالت چو :

— إن أمى تفضل أن نقضى معظم أوقاتنا فى الهواء الطلق ، ولذلك اعتدنا أن نأتى إلى هذا المكان كل يوم ، وعلى سبيل التفريج عن أنفسنا ، ترانا نرتدى هذه الثياب العتيقة ، ونحمل أشغالنا فى أكياس كبيرة ؛ أما العصى فتعيننا على صعود التل . لقد حورنا فى لعبة الحجاج بعض التحوير ، واستعضنا بالتل عن سلم البيت ، وقد أطلقنا عليه اسم « تل الأناقة » ، لأننا إذا وقفنا على قمته ، تكشف لنا أطراف الريف الذى نتمنى أن نعيش فيه يوما ما .

وأشارت چو بيدها إلى الناحية الأخرى ، فهض لورى ينظر حيث أشارت ، فرأى من بين سيقان أشجار الصنوبر ، مياه النهر الزرقاء ، ومن خلفها حقول واسعة مترامية الأطراف ، تحتضنها جبال شامخة ، تكاد رعوسها تناطح السحاب ، وكانت الشمس فى غروب ، وأشعتها الحمر تضيف على الكائنات جمالا وروعة ، وعند قمم الجبال تتجمع السحب فى فيض من الأضواء الذهبية والحمر .

وكان لورى فى مرهف الحس ، يستجيب للجمال بقلبه وإحساساته

فقال برقعة :

— يا للجمال الرائع !

قالت آمى :

— إنه دائماً هكذا ، ونحن نحب أن نرقب الكون من هذه البقعة العالية ،

والعجيب فيها أن المنظر يتغير ويتبدل كل يوم ، ولكنه دائماً جميل
أخاذ .

قالت بث بهدوئها المعهود :

— إن چو تتحدث عن الريف ، حيث تتمنى أن تعيش فى يوم
من الأيام . وهى تقصد الريف الحقيقى بخنازيره ودجاجه وكومات تبته .
إنها فكرة رائعة ، فىا ليت الريف الذى نحلم به كان حقيقة واقعة .
ويا ليتنا نستطيع أن نذهب إليه .

قالت ميج بصوتها الحنون :

— فى هذه السماء العالية مدينة خالدة ، ريفها يفوق جماله كل
جمال ، وسنذهب إليها فى يوم من الأيام ، إذا أحسنا فى دنيانا وعشنا
طيبات .

قالت بث :

— ولكن هذا اليوم يبدو بعيداً ، والكفاح من أجله عصبى ، وبودى
أن أطير إلى الخلد حالا ، وأدخل من بابه الجميل .

قالت چو :

— صبراً يا بث ، فلا شك فى أنك ستذهبين إليه قريباً أو بعيداً ،
أما أنا فعلىّ أن أكافح وأعمل وأجاهد وأجد ، وربما بعد هذا كله لا يكون
لى نصيب فيه .

قال لها لورى :

— وسأكون فى رفقتك ، إذا كنت ترين فى رفقتى عزاء ، فإن على أن أكافح كثيراً قبل أن أصل إلى مدينتكن الخالدة .

والتفت إلى بث وقال :

— إذا سبقتنى إلى المدينة الخالدة ، يا بث ، فلا تنسى أن تذكرينى هناك بكلمة طيبة .

وكان فى عيني الفتى تعبير عجيب أقلق بث الصغيرة الوديعه ، ولكنها أجابت فى هدوء ، وعيناها عالقتان بالسحب العالية :

— إذا كان الإنسان فى شوق إلى دخول الجنة ، وإذا كان قد قضى حياته يجاهد من أجل ذلك ، فلا بد له من أن يدخلها . لست أصدق أن للجنة أبواباً وأقفالاً وحراساً ، بل إنى أتصورها أرضاً خضراء فيها ملائكة مضيئة تمد أيديها مرحبة بالقادمين .

قالت چو بعد فترة صمت :

— لو تحققت القصور التى نبنها فى الهواء ، وأمکننا أن نعيش فيها ! ..

قال لورى ، وهو يرمى السنجاب الذى كشف عن وجوده بثمرة من ثمار الصنوبر :

— لقد بنيت آلاف القصور فى الهواء ، وسيصعب على إذا تحققت أن أختار لسكنائى واحداً منها .

قالت ميج :

— اختر أقربها إلى قلبك ، فما هى أعظم أمنية لك فى الحياة ؟

قال لورى :

— وهل إذا أجبتك صادقاً ، تجيبينى بأعظم أمنية لك ؟

قالت :

— نعم ، بشرط أن يعترف البنات بأمنياتهن أيضاً !

قالت چو وبث وآمى :

— سنعترف ، ولنبدأ بلورى .

قال لورى :

— لقد طفت ببلاد كثيرة ، ورأيت العالم كما أشتهى ، وقد تركزت آمالى فى أن أعيش فى ألمانيا ، حيث أستطيع أن أتعلم الموسيقى ، لأصبح موسيقياً شهيراً ، يفد الناس لسماع عزفه من كل بقاع الدنيا . لن يهمنى المال أو الأعمال ، فكل ما أريده أن أمتع نفسى بما تشتهيهِ ، وأن أعيش من أجل الفن الذى أعبدُهُ . . . هذه أعظم أمنية لى فى الحياة ، فهاذا عندك أنت يا ميج ؟

وترددت مارجريت قليلاً ، كأنها تجد مشقة فى وصف أمانيتها ، ثم مرت بيدها على وجهها ، وقالت :

— أتمنى أن يكون لى بيت جميل عامر بكل ألوان الترف ، طعام

لذيد ، وملبس أنيق ، ورياش ثمين ، وأناس ظرفاء ، وأكداس من المال . وأحب أن أدير هذا البيت كما اشتهى ، وأن يقوم على خدمتي فيه خدم كثيرون ، حتى لا أكون ملزمة بعمل ما . . . ولكنى لن أعمد للكسل ، فسأكون امرأة طيبة ، حتى يجمع الناس على محبتي وتقديرى .
سألها لورى بنجث :

— وهل سيكون لهذا البيت سيد يا ميج ؟

قالت بنجثل :

— لقد قلت إننى أريد معى أناساً ظرفاء .

وأطرقت برأسها ، وتشاغلت بربط حذاءها ، حتى لا يكشف الجالسون مبلغ خجلها .

وكانت چو ما زالت أصغر سنّاً من أن تحلم بالزواج بعد ، وكانت بطبعها تحتقر العاطفيات إلا فى القصص ، فقالت بصراحتها المعهودة :

— لن يكون قصرک شيئاً مذکوراً بغير زوج حکيم وسيم ، وأطفال فى براءة الملائكة ، فلماذا لم تكمل الصورة كما يجب ؟

أجابت ميج مخنقة :

— وماذا عن قصرک أنت ؟ لا أظن إلا أنك ستملاينه بالخيول

والمحابر والكتب .

قالت چو بحماسة :

— طبعاً ! سيكون لى فيه حظيرة بها خيول عربية أصيلة ، وغرف

مملوءة بكتب لا عداد لها ، وسأغمس قلمي في محبرة سحرية ، حتى
تكتب لى فى عالم التأليف شهرة كالتى ينشدها لورى فى الموسيقى . أريد
أن أكون كاتبة أولف الكتب وأنال الشهرة العريضة . ولكنى أريد قبل
ذلك أن أقوم بعمل رائع يخلد اسمى بعد موتى ، ويذكر الناس بى جيلا
بعد جيل . لا تسألونى عن هذا العمل ، فإن رأى لم يستقر عليه بعد !
وما زلت أترقب الفرص ، وسأدهشكم يوماً ما ببطولتى !

وحل دور بث فقالت فى رضا وقناعة :

— كل أملى فى الحياة أن أعيش مع أبى وأمى فى أمن واطمئنان ،
أساعدهما فى إدارة البيت ورعاية شئون الأسرة .

سألها لورى :

— أليست لك أمنية أخرى ؟

قالت :

— كنت أتمنى فيما مضى أن يكون لى معزف ، أما وقد حصلت
عليه ، فأنا راضية بحالى ، وأرجو من الله أن يحفظ لنا صداقتنا ، ويجمع
دائماً شملنا . . . لا شىء أكثر من هذا .

قالت آمى :

— إن لى أمنيات كثيرة ، ولكن أقربها إلى نفسى أن أسافر إلى
مدينة روما لأتعلم الرسم ، حتى أصنع لوحات عظيمة ، وأصبح أعظم
رسامة فى الدنيا .

قال لورى فى تفكير ، وهو يلوك قطعة قش بين أسنانه :

— يا لطموحنا العظيم ! كلنا ما عدا بث نريد أن نكون أغنياء
عظماء سعداء ، إني أشك فى أن أحدا سيتحقق له أمل واحد من هذه
الآمال الكبار

قالت چو فى لهجة غامضة :

— إن لدى الوسيلة إلى بلوغ أملى ، ولست أدري بعد إذا كان
فى مقدورى أن أستعين بها .

وتم لورى فى ضيق :

— وأنا أيضاً لدى الوسيلة ، ولكنهم يمنعونى من الاستعانة بها ،
وكل هذا من أجل إتمام دراسة الجامعة ، لعنة الله عليها .

وقالت آمى وهى تلوح بقلمها :

— هذا وسيلتى إلى تحقيق أحلامى .

وقالت مارجريت بوجوم :

— أما أنا فليس لدى ما يعيننى على تحقيق آمالى .

وهتف بها لورى :

— بل لديك الوسيلة الفعالة .

قالت :

— أين ؟

قال :

— وجهك الجميل .

قالت :

— كلام فارغ وهراء ، فالجمال لا يفيد .

وكان لورى يعتقد أنه يلم بسر يؤكد كلامه ، فقال ضاحكاً :

— انتظرى ، وسوف ترين كيف يأتيك جمالك بما تتمنين .

وتخضب وجهه ميج بحمرة الخجل ، ولكنها لم تسأله تفسيراً لكلامه ، إنما تطلعت إلى الأفق البعيد ساهمة ، مثلما فعل مستر بروك يوم جلس فى المخيم يروى للجماعة قصة الفارس المغوار . . .

وكان لحو قدرة عجيبة على ابتكار أفكار جديدة ، فقالت :

— اقترح أن نتفق من الآن على الاجتماع فى مثل هذا اليوم بعد

عشر سنوات ، إذا قدر لنا أن نعيش إلى هذا الحين ، لرى إذا كان بعض أحلامنا قد تحقق ، أو إذا كنا قد اقتربنا من تحقيقها أكثر من الآن قالت ميج ، وكأن السنين أثقلت كاهلها ، مع أنها ما تزال فى السابعة

عشرة من عمرها :

— سأكون إذ ذاك عجوزاً فى السابعة والعشرين . . . فطيع !

قالت چو :

— وسأكون أنا ولورى فى السادسة والعشرين ، وآمى فى الثانية

والعشرين ، وبث فى العشرين فقط ، فى للجماعة الوقورة !

قال لورى :

— أرجو أن أكون إذ ذاك قد قمت بعمل أفخر به ، وإن كنت
أخشى أن أظل كسلان طول حياتى

قالت چو :

— تعتقد أى أنك فى حاجة إلى حافز يحفزك ، وهى واثقة أنك
ستأتى بجلال الأعمال عندما يتوفر لك هذا الحافز .

وانتصب لورى جالساً من رقدته وقال بحماسة :

— أعتقد ذلك حقيقة ؟ والله إن فى مقدورى أن أفعل كثيراً ،

إذا ما أعطيت الفرصة !

ثم سكت قليلاً وقال :

— من واجبى أن أكون راضياً بحالى ، لأدخل السرور على قلب
جدى ، وأنا أبذل منتهى جهودى لأسعده ، ولكن أعصابى تكاد تتحطم ،
فهو يريدنى أن أكون تاجراً فى الهند ، ولكنى أكره الشاى والحرير
والتوابل ، ولو ترك لى بواخره العظيمة فلن يسوءنى أن تغرق جميعها فى
قاع البحر . سأدخل الجامعة لإرضاء له ، ولكنى أعلم أننى سأعيش فيها
على غير هواى ، اللهم إلا إذا خرجت على طاعته ، واخترت الحياة
التي تروقنى ، كما فعل والدى من قبل . ولو كان للرجل العجوز عزيز
غيرى ، ما توانيت عن تغيير حياتى فى أقرب فرصة .

وكان لورى يتكلم فى حماسة شديدة ، حتى ليحس المستمع إليه أنه على أتم الاستعداد لتنفيذ تهديده عند أول إثارة . ولعل السر فى ذلك أنه كان ينمو بسرعة ، وكان له ، على رغم سنه الصغيرة ، أخلاق الرجال بكل ما فيها من كراهية للخضوع ، ورغبة فى الاعتماد على النفس .

وكانت چو تقدر لورى ، وتميل دائماً إلى اغتفار أخطائه ، هذا إلى حبا الغريزى للمخاطرات والمغامرات ، فقالت :

— أنصحك أن تسافر فى إحدى بواخر جدك ، ولا تعد حتى تجرب حظك فى الحياة .

ولكن ميج لم توافق على نصيحة أختها ، فقالت فى لهجة الأم العاقلة :

— هذا لا يصح يا چو ، ولا ينبغي أن تتكلمى إليه بمثل هذا القول ، وأعتقد أن لورى أعقل من أن يعمل بنصحك السيء .

والتفتت إلى لورى تقول :

— ابذل جهدك فى الجامعة ، حتى يرى جدك أنك تضحى فى سبيل إرضائه ، وعندئذ لن يشتد معك ، أو يقاوم رغباتك . وما دمت قريبه الوحيد ، فمن واجبك أن تبقى معه وتحبه ، وثق أنك إذا لم تفعل ذلك ، فسوف تقضى حياتك معذباً نادماً ، فلا تحزن ولا تتعذب ، بل امض

فى حياتك راضياً ، وقم بواجباتك كما ينبغى . إن مستر بروك يقول :
كفى المرء فخراً أن يكون محبوباً مبجلاً .

ونزلت كلماتها على قلب لورى برداً وسلاماً ، ومع ذلك فقد استاء
بعض الاستياء لمحاضرتها الأخلاقية الطويلة ، فقال لها :
— والله إنك لا تعرفين شيئاً عن جدى .

قالت :

— لست أعرف أكثر مما سمعته والدتى عنه من أبيها ، فطالما تحدث
إليها عن خلقه الكريم ، وروى لها كيف تفانى فى خدمة أمه إلى آخر
لحظة فى حياتها ، ولم يرض أن يسافر إلى الخارج إكراماً لها ، وكيف
أنه يعول امرأة عجوزاً كانت خادمة لأمه ، ويبقى إحسانه فى الخفاء ،
كارهاً أن يعلن عنه ، وأنه فوق كل هذا رجل طيب صبور ، عميم
الفضل ، عظيم الإحسان على الفقراء .

وسكتت مبيج عن الكلام وقد توردت وجنتها حماساً ، فقال لورى
مصدقاً على كلامها :

— والله إنه كذلك ، وأعظم ما فيه أنه لا يعلن عن طبياته ، إنما
يعلن عنه غيره ممن عرفوه ولسوا أفضاله . ولقد تعجب رائدى بروك لكرم
أملك فى معاملة جدى ، ومثابرتها على دعوته مع بروك إلى بيتكم ،
وتفانيها فى مجاملته والترحيب به . ولقد كان يظن ذلك مظهراً لأدبها الوفير ،

فظل يمتدحها لى طيلة المساء ، ثم انتقل إلى الحديث عنك بحرارة منقطعة النظير . والله لو تحققت آمالى ، لفعلت الكثير من أجل بروك . . .

قالت ميج فى حدة :

— ولم لا تبدأ من الآن ، فتخفف من غلوائك فى معاملته ؟ إن أعمالك أحياناً تكاد تزهق أنفاسه .

قال لها :

— ومن أين لك هذا الكلام ؟

قالت :

— إنى أراه بنفسى ، عندما تكون هادئاً مطيعاً ، ينصرف عنك باسمنا نشيطاً ؛ وعندما تتنابك أزمات العناد والعصيان ، أراه يسير واجماً متردداً ، كما لو كان يريد أن يعود إليك لبدأ الدرس معك من جديد .

قال لورى :

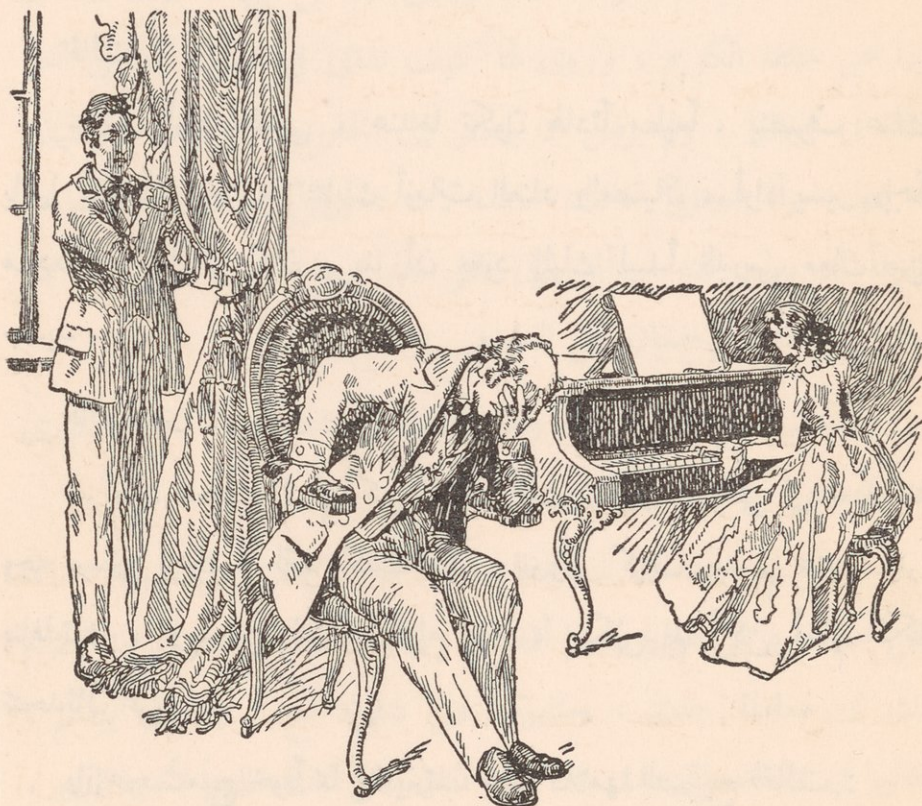
— أمرك عجيب ! لم أكن أعرف أنك تراقبين سلوكى فى تعبيرات وجه مستر بروك ، لقد كنت أرى بدورى كيف يبتسم عندما يمر بنافذتك ، وينحنى لك باحترام بالغ ، ولكنى لم أكن أعلم أنكما تتحدثان عنى .

وانزعجت ميج خوفاً مما قد يترتب على كلامها الصريح ، تمالت :

— لم نتحدث عنك قط ، فلا تغضب ، ورجائي أن لا تخبره
بما قلت لك الآن . لقد أردت فقط أن أثبت لك اهتمامي بأمرك ، وقد
اعتدنا الصراحة معك دائماً .

أجاب لوري مترفعاً :

— ليست الوشاية من أخلاقي ، ولم أعود ترديد الأحاديث التي
أسمعها ، ولكن إذا كان بروك قد قرر أن يكون ترمومتراً لأخلاقي ، فمن



واجبى أن أحيطه دائماً بالجو الملائم ، حتى تطيب معلوماتك عنى .
 قالت ميج :

— لا تتألم لما ذكرت ، فما أردت أن أجرح شعورك أو أغضبك ،
 إنما خيل إلى أن چو تعرضك على ما قد تندم عليه فى يوم من الأيام .
 لقد كنت طيباً معنا ، ونحن نشعر كما لو كنت أختاً شقيقاً لنا ،
 ولذلك نصارحك بكل ما يحول فى خواطرننا ، ولا نخفى عنك رأياً أو فكرة .
 كنت حسنة القصد فيما قلت ، فسامحنى .

ومدت له يدها فى خجل وإخلاص تريد مصالحته .

وأسف لورى على اندفاعه المفاجئ ، فتناول يدها يصافحها
 بحرارة ، وقال بصراحة :

— بل أنا الذى يجب أن أطلب منك المغفرة ، وأرجوك أن تتجاوزى
 عن خشوتى ، فقد كنت قلقاً ضيق الصدر طول اليوم . ويسرنى أن
 تكونى لى أختاً ، وتعددى أخطائى . وأرجو أن لا تستأنى إذا رأيت منى
 جموحاً فى بعض الأحيان . وأنا أيضاً شاكر لكن صراحتكن وعطفكن .

ولكى يطمئنها إلى أنه غير غاضب أو متألم ، بذل جهده ليكون
 لطيفاً مع الجميع ، فساعد ميج على لف خيوط التطريز ، وقرأ لحو
 فى كتابها كما أرادت ، وعاون بث على تنسيق ثمار الصنوبر ، ورسم
 فى لوحة آمى ، وبذلك شعر أنه قد أصبح عضواً نافعاً فى حلقة
 آل مارش .

وبينما كانت الجماعة فى مناقشة حامية حول طبائع السلاحف ، ومزايها العديدة ، حمل الهواء إلى آذانهم زنين جرس آتياً من بعيد ، إيذاناً لبنات مارش بأن حنا قد أعدت لهن الشاى ، وأصبح لزاماً عليهن أن يعدن إلى البيت مسرعات .

قال لورى :

— أسمحن لى أن أشارككن فى مثل هذه الجلسة ؟

قالت ميج باسمه :

— نعم . بشرط أن تكون طيباً وتحب دروسك ، كما يقولون للأطفال فى المدارس الابتدائية .

قال :

— سأحاول .

وعندما بلغوا أبواب البيت ، قالت چو للورى وهى تلوح بيدها مودعة :

— إذاً يمكنك أن تشترك معنا ، وسأعلمك كيف تشتغل التريكو ،

فإن الطلب قد ازداد فى هذه الأيام على الجوارب الصوفية .

وفى هذا المساء عندما جلست بث إلى المعزف تسمع مستر لورنس العجوز بعض قطعها الموسيقية ، وقف لورى وراء الستار يرقب جده ، وقد جلس فى مقعده معتمداً رأسه على يده ، وهو يفكر فى حفيدته الصغيرة المحبوبة التى فقدتها منذ سنوات . وتذكر لورى فى هذه اللحظة

حديثه مع ميج ، فشعر برغبة شديدة في التضحية بآماله من أجل جده
العزير . قال في نفسه :

— أنا كل من بقي له من الأهل والأحباب ، فلا تنازل عن قصور
الأماني والأحلام ، وأبقى معه ما دام في حاجة إلى .



الفصل الرابع عشر أسرار

أقبل شهر أكتوبر وسرت البرودة في الجو ، وقصرت ساعات اليوم ،
فانشغلت چو بأمورها في غرفة السطح . وكانت الشمس ترسل أشعتها
ساعتين أو ثلاثاً في اليوم ، فتنفذ خلال النافذة العالية ، لتنعكس على
الفتاة وهي قابضة على الأريكة العتيقة ، وقد انهمكت في الكتابة ، وألقت
بالمسودات على حقيبة قديمة ، على حين جعل صديقها الفأر « سكرابل »
يروح ويحيى آمناً مصطحباً ابنه الأكبر ، وهو فأر فتى يتيه عجباً بشواربه

الطويلة . وفي ذات يوم من هذه الأيام ، ظلت چو غارقة في كتابتها حتى إذا ما انتهت من آخر صحيفة بين يديها ، وقعت باسمها في ذيلها بخط واضح كبير ، ثم ألقت بالقلم وقالت :

— لقد بذلت كل ما في وسعي ، فإذا لم يكن ما كتبت مناسباً ، فلا مناص من الانتظار حتى أتمكن من تأليف قطعة أفضل .

واستلقت على الأريكة ، وشرعت تقرأ المسودات في عناية ، فتضيف نقطة هنا ، وشرطة هناك ، وهي لا تنسى أن تسرف في وضع علامات التعجب والاستفهام في كل مناسبة في أثناء مراجعتها ، ولما انتهت حزمت الأوراق بشريط أحمر ، وتأمّلت الحزمة في جد ينم عن مبلغ اهتمامها بما كتبت .

وكانت مكتبة چو في هذه الغرفة لا تتعدى منضدة صغيرة مغطاة بالصفيح ، كانت تحتفظ في درج محكم منها بمسودات كتاباتها وبعض كتبها ، حتى لا تصل إليها أنياب سكرابيل ذى المزاج الثقافى ، الذى يدفعه إلى قرض الكتب والأوراق التى تترك أمامه . ومن ذلك الدرج الأمين أخرجت چو رزمة من المسودات ، ثم وضعت الرزمتين في جيبيها ، ونزلت السلم بهدوء ، تاركة صديقها الفأر يقرض ما يشاء من قلمها ويتذوق ما يحب من محبرتها .

وارتدت مئزرها وقبعتها في هدوء ما أمكن ، ثم استرقت الخطى نحو النافذة الخلفية للطابق الأرضى ، وخرجت منها إلى سقف مظلة منخفضة ،

قفزت من فوقه إلى أرض الحديقة ، ثم دارت في طريق طويل حتى وصلت إلى الشارع ، وهناك تماكنت نفسها ، فاستقلت عربة الأوتوبيس إلى المدينة وفي عينيها وميض الفرح والغموض .

وكان الغموض يكتنف كل حركاتها وتصرفاتها : فما إن نزلت من العربة ، حتى سارت بخطى سريعة نحو بناء معين بأحد الشوارع المزدهمة ، فلما بلغته ، دخلت من بابه ، ونظرت لحظة إلى درجات سلمه القذرة ، ثم لم تلبث أن عادت على أعقابها إلى الشارع مسرعة . وتكررت هذه العملية مرات ، مما أثار الاهتمام في نفس شاب أسود العينين كان يراقبها من نافذته عبر الشارع . وأخيراً عادت للمرة الثالثة ، وقد جمعت شجاعتها وأرخت حافة قبعتها فوق عينيها ، ثم صعدت السلم وهي تبدو كأنها ذاهبة لخلع أسنانها جميعاً .

وكان يزين مدخل البناء لافتة لطيب أسنان — بين لافتات آخر — رسم عليها فكان صناعيان يتحركان في بطء ، ليلفتا الأنظار إلى جمال صنعتهما ودقتهما . فارتدى الفتى معطفه ، وأخذ قبعته ، وهبط من مكانه إلى الشارع ينتظرها أمام الباب المقابل للبناء الذي دخلته الفتاة . قال لنفسه وهو يتسم :

— لا يدهشني أن تأتي إلى هذا المكان وحيدة ، ولكنها ستحتاج إلى من يصحبها في عودتها إذا انتهت الأمور بما لا تشتهي .

ولم تمض دقائق عشر ، حتى خرجت چو تجرى إلى الطريق

محتقنة الوجه غاضبة ، وعندئذ وقع بصرها على الفتى ، فأومأت إليه تحييه ، وهى راغبة عن رؤيته ، ولكنه تبعها فى هدوء وقال يواسيها :

— هل مررت بمحنة شديدة ؟

قالت :

— لم تكن شديدة .

قال :

— ولكنك لم تمكثى بالداخل طويلا !!

قالت :

— نعم ، لحسن الحظ .

قال :

— ولم ذهبت وحدك ؟

قالت :

— لم أشأ أن يعلم أحد بمهمتى .

قال :

— لم أر فى حياتى من هو أعجب منك يا چو !! كم مرة نشر لك ؟؟

ونظرت چو إلى صديقها كأنها لا تفهم سؤاله ، ثم جعلت تضحك ،

كأن فكرة طارئة أشاعت السرور فى نفسها . قالت :

— لم ينشر لى شىء بعد . وكنت أتمنى أن ينشر لى اليوم اثنان ،

ولكنى مضطرة إلى الانتظار أسبوعاً .

ونظر لورى إليها كمن أغلق عليه فهمها ، وقال :

— ماذا يضحكك ؟ وماذا كنت تفعلين فى الخفاء يا چو؟

قالت تغير دفعة الحديث :

— بل أخبرنى أنت يا سيدى ، ماذا كنت تفعل فى قاعة البلياردو

هذه ؟

قال :

— عفوك يا سيدتى ! لم أكن فى قاعة البلياردو ، بل كنت فى

معهد للرياضة البدنية أتدرب على المبارزة بالسيف .

قالت :

— يسرنى أن أسمع ذلك .

قال :

— لماذا ؟

قالت :

— لأنك ستعلمنى المبارزة ، حتى نستطيع أن نؤدى منظرًا فريدًا

عندما نمثل رواية هاملت عن قريب .

فانفجر لورى ضاحكًا فى صوت عال مرح أثار اهتمام بعض

المارة ، فابتسموا بدورهم .

قال :

— سوف أعلمك المبارزة ، سواء مثلنا هاملت أم لم نمثلها ، فهى

رياضة جميلة تكسب الجسم قوة ورشاقة ؛ ولكن لماذا أبديت رضاك عندما علمت بوجودى فى معهد الرياضة البدنية ؟

قالت :

— خشيت أن تكون من المترددين على قاعات البلياردو ، ولست أحب لك أن تندمج فى مثل هذه الأماكن . أتميل إلى الذهاب إليها ؟

قال :

— أحياناً .

قالت :

— وددت لو انقطعت عنها .

قال :

— وهل فى التردد عليها ضرر يا چو ؟ إن لدينا بالبيت منضدة للبلياردو ، ولكن اللعب لا يكون ممتعاً إلا مع لاعبين مهرة . إنى أحب هذه الرياضة ، ولذلك أتردد على القاعة لألعب بعض الأشواط مع ند موفات أو غيره من الفتيان .

قالت چو وهى تهز رأسها :

— يؤسفنى أن أسمع ذلك ، وأخشى أن يجتذبك المكان ، فتكثر من التردد عليه ، لتضيع وقتك ومالك هباء ، مثلما يفعل هؤلاء الفتيان الطائشون كان أملى أن تظل محترماً ، وتتصرف بما يرضى أصدقاءك .

قال لورى وقد بدا عليه الارتباك :

— وهل بعض المتعة البريئة يفقد الفتى احترام الناس إياه ؟

قالت :

— هذا يتوقف على نوع المتعة وأين تكون ، إنى لا أميل إلى ند
وصحبه ، وأتمنى أن تبتعد عنهم ، فقد أبت أُمى أن ندعوه إلى بيتنا رغم
رغبته الشديدة فى زيارتنا ، وأخشى أن لا ترحب بصدافتك لنا إذا
حدوت حدوه .

قال فى لهفة :

— أحقاً ما تقولين ؟

قالت :

— نعم ، إنها لا تحتمل الفتيان المستهترين ، وتفضل أن تغلق علينا
باب دارنا من أن تدعنا نختلط بهم .

قال :

— لا داعى لكل هذا ، فأنا لست مستهتراً ، ولا أحب أن أكون
كذلك ، ولكنى أميل إلى التسلية البريئة أحياناً . أأست مثلى فى ذلك ؟

قالت :

— نعم . إن التسلية لا تضر أحداً ، فتسل كما شئت ، ولكن لا تشتط
وإلا انتهت أوقاتنا السعيدة معا .

قال :

— سأكون أكثر من القديسين طهراً ونقاوة .

قالت :

— ولكننا لا نحب القديسين أيضاً ، فكن بسيطاً ، أمينا ، محترماً ،
وبذلك تبقى صداقتنا إلى الأبد . ويعز عليّ أن تصير إلى ما صار إليه
ابن مستر كننج ، الذي أفسده المال والفراغ ، فانحرف عن الطريق
السوى ، وبلغ الأمر به أن قامر ، وهرب من البيت ، ثم زور إمضاء
أبيه ، وبذلك ارتكب وزراً كبيراً .

قال :

— أوتعتقدين أنني أنحدر إلى هذا الدرك ؟ أشكرك على حسن
ظنك !

قالت :

— لا ، لست أسىء الظن بك ، ولكنى أسمع الناس يتحدثون عن
خبث إغراء المال ، فيستبدى بالقلق عليك ، وأتمنى لو كنت فقيراً حتى
لا تتعرض للشرور .

قال :

— أيقظك حالى يا چو ؟

قالت :

— أحياناً ، عندما أراك واجماً أو متدمراً ، إن لك شخصية قوية ،
فإذا انحدرت إلى طريق الخطأ ، كان من العسير أن تعاد إلى صوابك .
وسار الفتى بضع دقائق دون أن يقول شيئاً ، واختلست چو نظرة

إليه ، ورأت الغضب يلتهم في عينيه ، رغم الابتسامة التي ظلت حائرة على شفثيه ، عندئذ ندمت على كلامها أشد الندم . وقال لورى أخيراً :
 — هل في نيتك أن تسمعي نصائحك ومواعظك طوال الطريق ؟
 قالت :

— قطعاً لا . . ولكن لم تسأل ؟

قال :

— لأنك إذا كنت تنوين ذلك ، فالأفضل أن نركب عربة الأتوبيس حتى نختصر الوقت ، وإذا سكت عدنا إلى البيت سيراً على الأقدام ، إذ عندى أبناء مسلية أحب أن أرويهما لك .
 قالت :

— سأكف عن النصيح ، فأسرع بما لديك .

قال :

— ولكن أنبأني أسرار دفينه ، فإذا قصصتها عليك ، وجب عليك أن تحدثني بأسرارك أيضاً .
 قالت :

— ليس عندى ما أخفيه عنك .

ثم وقفت عن السير فجأة ، وقد تذكرت أنها بالفعل تخفى عنه بعض الأنباء .

فصاح لورى :

— أنا واثق أنك تخفين عني سرّاً ، فها اعترفي بالحق ، حتى أقص عليك أخبارى .

قالت :

— أهى أخبار طيبة ؟

قال :

— دون شك ، وأى أخبار !! إنها تخص أناساً تعرفينهم ، ويجب أن تعلمى بها ، وقد مضى وقت طويل وأنا أتحرق شوقاً لإطلاعك عليها ، ولكن ابدئى بما عندك أولاً .

قالت :

— وهل تحفظ سرى ، ولا تخبر به أحداً فى البيت ؟

قال :

— لن أبوح بكلمة منه .

قالت :

— أتعد بأن لا تغىظنى به ؟

قال :

— وهل تعودت أن أغىظك ؟

قالت :

— أحياناً . . . وتدهشنى طريقتك الناجعة فى انتزاع أسرار الناس ، لقد ولدت محباً للاستطلاع على ما أعتقد .

قال :

— شكراً لك . . . هيا أسرعى بالكلام .

فهمست چو في أذن صديقها قائلة :

— خلفت ورأى قصتين مع صاحب جريدة ، وقد وعد بأن يبلغني رأيه فيهما بعد أسبوع .

وقذف لورى بقبعته في الهواء عالياً ، ثم تلقفها بيده وصاح قائلاً :

— مرحى مرحى . . . مس مارش . . . الكاتبة الأمريكية الشهيرة .

قالت :

— صه ! لا تسرع بالتفاؤل فقد يرفضهما صاحب الجريدة . على كل حال ، لم يكن ليهدأ لى بال ، حتى أجرب حظى في الكتابة ، وقد احتطت للأمر فلم أخبر أحداً بنيتى ، حتى لا أخيب آمال غيرى في إذا أخفقت .

قال :

— لن تخفقي ! فكتاباتك وقصصك تعتبر في مستوى شكسبير إذا ما قورنت بالسخافات التي تنشرها الجرائد كل يوم . . . ما أجمل أن نرى قصصك مطبوعة في الجرائد ، سيكون من حقنا أن نفخر بمؤلفتنا البارعة !

والتمعت عينا چو سروراً لثقة الناس بها ، فقد كان تقدير أصدقائها أثمن لديها من تقريظ عشرات الجرائد التافهة .

قالت وهي تحاول أن تخفى الآمال التي انتعشت بتقدير صديقها ومديحه :

— والآن علىّ بسرك ، وإياك أن تخفيه ، وإلا فقدت ثقتي بوعودك .

قال :

— لن أرجع في وعد قطعته على نفسي ، وقد يخرجني أن أفصح السر ، ولكن لا بأس من المخاطرة ، فمن عادتي أن لا أرتاح حتى أتحدث بما لدى من أخبار مثيرة . . . إني أعرف أين ذهب قفاز ميج !!
وكانت نظرات لوري عامرة بالغموض ، ولكن چو وجدت الخبر نافهاً ، فقالت بخيبة أمل ملحوظة :

— أهذا كل شيء ؟

قال :

— ستجدينه خيراً هاماً ، عندما أخبرك أين يوجد القفاز !

قالت :

— أخبرني إذاً .

وانحنى لوري على أذن چو ، وهمس بكلمات ثلاث ، أحدثت في وجهها تغيراً شديداً مفاجئاً . ووقفت الفتاة في مكانها جامدة ، وهي تتأمله في غضب ودهشة ، ثم استأنفت سيرها ، وهي تقول في حدة :

— كيف عرفت ؟

قال :

— رأيته .

قالت :

— أين ؟

قال :

— في جيبه .

قالت :

— طول الوقت ؟

قال :

— نعم . . . ألا ترينه خبراً عاطفياً مثيراً ؟

قالت :

— لا ، بل خبر قبيح .

قال :

— ألا يسرك ذلك ؟

قالت :

— لا طبعاً ، هذه سخافة ، ولا يجوز أن نسمح بها . . . ترى ماذا

تقول ميج إذا عرفت ؟

قال :

— ولكنك لن تخبريها ، وإياك أن تفعل . . .

قالت :

— لا أذكر أنني وعدتك بالكتمان .

قال :

— كان الکتمان أساس حديثنا ، ولقد وثقت بك .

قالت :

— إذاً لن أفصح السر في الوقت الحاضر ، ولكنني مشمئزة جداً ، وليتلك ما أخبرتني .

قال :

— ظننت أن الخبر يسرك !

قالت :

— أيسرنى أن يأخذ إنسان أختي ميج ؟ لا . . . لقد أخطأت .

قال :

— قد يسرك أن يأخذك إنسان في الوقت المناسب ؟ !

قالت چو بجدة :

— أحب أن أرى أحداً يحاول ذلك !

قال لورى ضاحكاً :

— ويسرنى أيضاً أن أرى مثل هذه المحاولة ! !

قالت چو في جمود :

— إن الأسرار لا توافق مزاجي ، ولقد أربكتني بما قلت . . .

قال لورى :

— سيعود إليك هـدوؤك إذا هبطت معى هذا التل جرياً .

وكان الطريق خالياً من العابرين ، وسفح التل ينحدر ناعماً معبداً ، فراقت الفكرة جو ، ولم تلبث أن اندفعت إلى الأمام جرياً ، وقد خلفت وراءها قبعتها ومشطها ، ووصل لورى أولاً إلى نهاية الطريق ، ولحقت به جو بعد قليل ، وقد زالت ثورة نفسها فى غمرة المجهود البدنى العنيف الذى قامت به .

قالت ، وقد توردت وجنتاها ، والتمعت عيناها سرواً :

— لىنى كنت حصاناً ، حتى أجرى أميالا فى هذا الجو الجميل . . كانت متعة رائعة ، ولكن انظر ما فعل الجرى نى ؟ كن ظريفاً واجمع الأشياء التى سقطت منى .

وألقت الفتاة بنفسها تحت شجرة ، فرشت الأرض ببساط من أوراقها القرمزية .

وعاد لورى على عقبه يجمع الأشياء التى سقطت من جو ، وجمعت جو غداثرها ، راجية أن لا يمر بها أحد حتى تكون قد أصلحت هندامها . ولكن رجاءها لم يتحقق ، فقد مر شخص فى اللحظة الحرجة ، ولم يكن هذا الشخص سوى أختها ميج التى كانت تسير فى أناقة ملحوظة ، بعد أن أدت بعض الزيارات لصديقاتها .

ووقعت أنظار ميج المبهدة على أختها التى بعثر الهواء شعرها وهندامها ،

وقالت فى دهشة واستنكار :

— ماذا تفعلين هنا بالله عليك ؟

أجابت چو ، وقد ملأت يدها ببعض الأوراق المتساقطة من الشجرة :
— أجمع أوراق الأشجار .

وأقبل لورى يحمل الأشياء التى سقطت من چو ، فألقى بها فى حجر صاحبها ، وهو يقول لميج مداعباً :

— إنها تجمع أيضاً دبائيس الشعر ، فهذه الدبائيس تنمو على جانبي الطريق ، وكذلك تنمو الأمشاط وقبعات القش البنية اللون .

ورفعت ميج يدها إلى رأسها تصلح قبعتها وتنظم شعرها ، بعد أن عبث الهواء بهما بعض العبث ، ثم قالت تؤنب أختها :

— بل كنت تجرين ، وإني أرى فيك آثار الجرى واضحة ، فكيف جرؤت على ذلك ، ومتى تكفين عن هذه الفوضى ؟

قالت چو :

— لن أكف عنها حتى أصير عجوزاً كسيحة أسير على عكازين دعيني استمتع بفتوتي أطول وقت ممكن ، ولا تدفعيني إلى الأخذ بأساليب الكبار قبل الأوان ، وكفاني عذاباً أن أراك تتغيرين تغيراً مفاجئاً هكذا .

وكانت چو تتكلم وهى تحنى رأسها ، لتخفى ارتعاج شفيتها الواضح ، فقد كان يحزنها فى العهد الأخير أن ترى ميج تدخل فى طور الشباب سريعاً ، وتتقدم حثيثاً نحو النضج النسوى ، ثم جاء سر لورى ،

فزادها خوفاً من أن تتزوج ميج في يوم من الأيام فتفارقها . وقد رأى
الصبي رجفة چو ، وخشى أن تراها ميج بدورها ، فقال يشغلها بالحديث :
— أين كنت بهذه الثياب الأنيقة الجميلة ؟

قالت : — كنت في زيارة آل جاردنر ، وقد حدثني سالى بتفاصيل
عرس بيل موفات . . . كان عرساً رائعاً ، سافر العروسان بعده لقضاء
شهر العسل في مدينة باريس . . فتصور هذه المتعة ! !
سألها لورى :

— أتغطينها على حظها يا ميج ؟

قالت :

— أظن ذلك .

قالت چو بلهفة ، وهى تربط شريط قبعتها :

— يسرنى أن أسمع منك هذا الكلام .

وبدت الدهشة على ميج ، فسألت أختها تقول :

— ما الذى يسرك فى كلامى ؟

قالت چو :

— إذا كنت تغطين الفتاة على ثرائها ، وتقدرين المال هذا التقدير

كله ، فلن تجرى وراء رجل فقير ، وتتزوجيه .

قالت ميج بلهجة الوقار :

— لن أجرى وراء أحد للزواج !

وضحك رفيقاها ، وسارا خلفها إلى البيت يتقاذفان بالحصى وأوراق الأشجار ، كما يفعل الصغار على حد تعبير ميج ، وإن كانت الفتاة في قرارة نفسها تود أن تشاركهما في مرحهما ، ولا يحول بينها وبين ذلك غير ثوبها الأنيق الذي ترتديه .

ومضى أسبوعان ، وتصرفات چو كلها غريبة ، حتى انزعجت أخواتها لأحوالها العجيبة ، وبتن في قلق لما أصابها ، فقد كانت تجري إلى الباب كلما سمعت جرسه يدق ، وتتوقح على مستر بروك دون مبرر ، وإذا رأيته يختلس النظر إلى وجه ميج ، نهضت فجأة من مجلسها ، وانحنت على أختها تقبلها بلهفة ، كأنها تخشى أن تفقدها . وكانت تبادل لوري الإشارات خفية في بعض الأحيان ، حتى أعلنت أخواتها بأنها وصديقتها قد أصابتها لومة أفسدت عقليهما .

وبعد أسبوعين من اليوم الذي خرجت فيه چو بمخطوطاتها إلى الناشر كانت ميج تجلس بجوار نافذة غرفتها تطرز ، فأزعجها أن ترى لوري يجري في الحديقة وراء چو ، ويلاحقها في كل ركن تلجأ إليه ، ثم يتأسكان وهما يضحكان عالياً .

وبدا الألم على وجه ميج ، وقالت في تهدة وأسف :

— ماذا نفعل بهذه الفتاة الطائشة ؟ ومتى تأخذ بأساليب السيدة الصغيرة المهدبة ؟ !

وكان يسىء بث أن تخفى چو — أختها المفضلة — أسرارها عنها ،

ولكنها أخفت استيائها ، وقالت تدافع عن أختها :

— أرجو أن لا تفعل ذلك ، فهي لطيفة عزيزة كما هي الآن .

وقالت آمي ، وقد عقصت شعرها بشكل جميل ، وانشغلت في إعداد قطعة من الأهداب « الفرنشا » لثوبها ، مما جعلها تشعر بأنها قد أصبحت سيدة صغيرة أنيقة :

— لن نستطيع أن نجعلها مهذبة !

ولم تمض دقائق ، إلا واندفعت چو إلى الغرفة ، واستلقت على الأريكة ، وهي تتظاهر بقراءة مجلة في يدها .

قالت ميج بتواضع :

— أبالجملة ما يسلينا ؟

أجابت چو ، وهي تخفي اسم الجريدة بيديها :

— ليس بها سوى قصة ، لا تستحق الذكر .

قالت آمي بوقار الكبار :

— الأفضل أن تقرئها لنا لتسلينا ، وتشغلي نفسك عن خلق المتاعب .

قالت بث ، وقد أدهشها أن تخفي چو وجهها وراء المجلة :

— ما عنوان القصة ؟

قالت :

— الرسامان الغريمان .

قالت ميج :

— إنه اسم جذاب ، فاقرئى لنا القصة .

وتنحنحت چو استعداداً ، ثم بدأت تقرأ بسرعة ، والفتيات يصغين لقراءتها باهتمام ، فقد كانت القصة عاطفية محزنة ، تنتهى بموت أبطالها جميعاً

قالت آمى عندما انتهت أختها :

— لقد أعجبتنى القطعة الخاصة باللوحة .

وقالت ميج ، وهى تمسح الدموع عن عينيها :

— إنى أفضل الموقف الغرامى ، ومن العجيب أن اسمى فيولا وأنجيليه من الأسماء المألوفة لنا .

قالت بث ، وهى تتأمل وجه أختها :

— من ألف هذه القصة ؟

واعتدلت چو فى مجلسها لهذا السؤال ، وألقت بالجملة جانباً ، وقالت فى صوت عامر بالحماسة والجد :

— أختكن !

هتفت ميج ، وقد سقط تطريزها من يدها :

— أنت التى ألّفت هذه القصة ؟

قالت آمى فى نغمة الناقد الفنى :

— قصة رائعة بمعنى الكلمة .

أما بث ، فقد غلبتها الحماسة لنجاح أختها المفضلة ، فأسرعت إليها

تحتضنها وتقبلها وهي تقول :

— كنت واثقة من ذلك كل الثقة ، وأنا فخورة بك يا چو .

وشاعت الغبطة ، واستبد السرور ، وأبت ميج أن تصدق الخبر العظيم ، حتى قرأت بعينها اسم أختها مطبوعاً في المجلة . وجعلت آمل تبدى انتقاداتها البريئة بروح الفئانة ، ثم تقترح زيادات يستحيل تحقيقها بعد أن مات أبطال القصة كلهم . وغلبت الحماسة بث ، فراحت تدور في الغرفة ، وهي ترقص طرباً وتغنى . وانتشر الخبر في أرجاء البيت ، فأقبلت الطاهية حنا مهنئة ، واغبتت مسر مارش بما أصاب ابنتها من نجاح يبشر بمستقبل عظيم . ودارت مجلة «النسر الطائر» من يد إلى يد ، فتضاعف سرور أهل البيت وفخرهن .

والتف أفراد الأسرة حول چو يسألونها ضاحكين :

— حدثينا بما جرى . . متى فعلت ذلك ؟ وكم تقاضيت ثمناً لها ؟ . .

ترى ماذا يقول أبونا إذا عرف ؟ وكم سيضحك لورى للخبر !!

هتفت بهم چو ، وقد خيل إليها أن أعظم كاتبات أمريكا لا يمكن أن تكون قد أصابت مثل هذا النجاح العظيم :

— كفى ثثرة يا بنات ، وسأحدثكن بكل شيء .

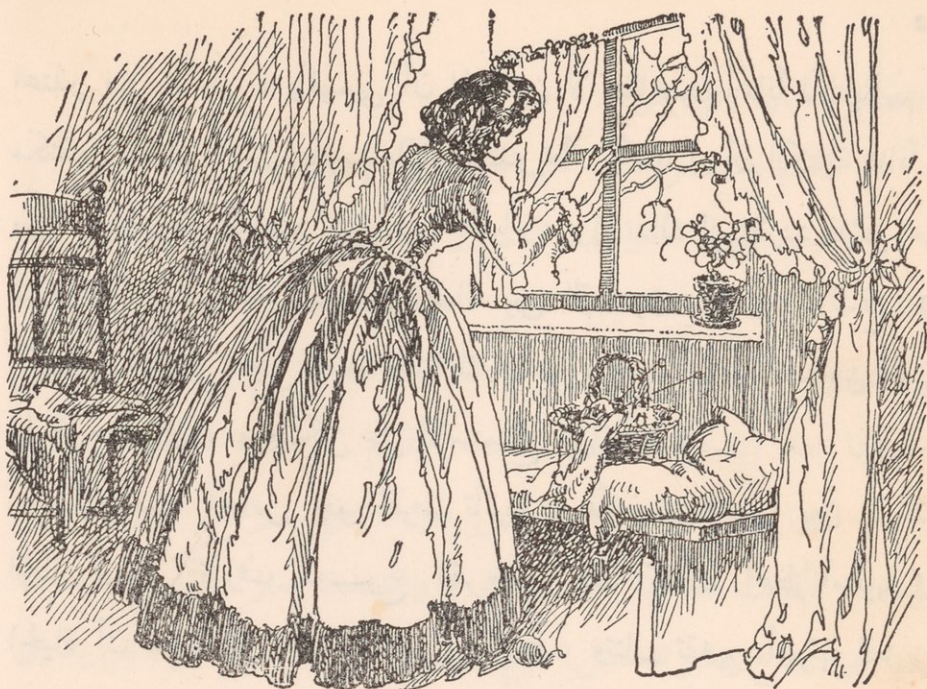
وروت لهن چو كيف كتبت قصتين سراً ، وكيف قدمتهما لصاحب

المجلة ، فوعدها بإبداء رأيه فيهما بعد أسبوع ، ثم قالت :

— وعندما ذهبت إليه أسأله رأيه ، أبدى إعجابه بالقصتين ، ولكنه

اعتذر من الأجر ، وأفهمنى أن المبتدئين لا يتقاضون أثماناً لكتاباتهم ،
مكتفين بالنشر الذى يأتهم بالشهرة تدريجاً . وأكد لى أن الكتابة مجاناً ،
مرانة طيبة حتى يعرف اسمى بين القراء ، وإذ ذاك لن يتردد ناشر عن
شراء مؤلفاتى . لقد أكد لى رضاه عن القصتين ، ووعد بالدفع فى
القصص المقبلة ، وأنا سعيدة جداً لما حدث ، وأمل أن أكسب من قلمى
ما يقوم بأودى ، ويعينكن على الاستمتاع بحياة أفضل .

وتقطعت أنفاس چو لفرط تأثرها ، فأخفت وجهها بين طيات
المجلة ، وهى تذرف دموع الفرح ، فقد كانت أعظم أمانيتها فى
الحياة أن تعتمد فى حياتها على جهودها ، وتنال تقدير أسرتها العزيزة
الحبيبة . وخيل إليها فى هذه اللحظة أنها خطت الخطوة الأولى نحو النهاية
السعيدة المبتغاة .



الفصل الخامس عشر

البرقية

وقفت مارجريت تتطلع من نافذتها إلى الحديقة التي أجدها برد الشتاء وصقيعه ، وقالت :

— إن نوفمبر أسوأ شهور السنة كلها .

فقالَت چو مفكرة ، وهي لا تحس ببقعة الحبر التي علقت بأنفها :

— لعل السبب أنني ولدت في هذا الشهر .

وكانت بث متفائلة بطبعها ، تتعلق بالأمل وتستبشر بالحياة ، حتى

فى شهر نوفمبر المقبض ، فقالت :

— لو أن حدثا سارا جاء فى هذا الشهر ، فسوف نعتقد أنه شهر رائع .

وكانت ميج فى ذلك اليوم ضيقة الصدر متشائمة ، فقالت :

— ربما . ولكنى لا أرى شيئا يفرح أو يسر فى حياة هذه الأسرة ، فنحن نكد ونكدح يوماً بعد يوم ، والسنون تمر بنا على وتيرة واحدة ، لا تتغير ولا تبدل ، ولسنا ننال ترفيها ولا تسلية . نحن كمن يعيش فى طاحونة لا تكف عن الدوران .

فصاحت بها چو تقول :

— صبراً . . . صبراً ! . إننا نشاءم دائماً ! لا يدهشنى أن تتبرمى بحياتك الشاقة وأنت ترين غيرك من الفتيات يتمتعن بكل شىء . كم أتمنى أن أقدم لك بعض ما أقدمه لبطلات قصصى من ألوان المتعة والرفاهية . إنك جميلة الشكل سوف تنالين كل ما تشتهين ، فستسافرين إلى الخارج فى رحلات طويلة ، ثم تعودين إلينا أرسقراطية عليك هالة من العظمة والأناقة .

فقالت ميج فى مرارة .

— إن الثروات المفاجئة لا تهبط على الناس فى أيامنا هذه ، وعلى الرجال أن يكدحوا فى سبيل الرزق ، وعلى النساء أن يتزوجن من أجل لقمة العيش . إننا نعيش فى دنيا ظالمة .

وكانت أمي تقبع في جانب من الغرفة وييدها قطعة من الصلصال تصنع منها تماثيل صغيرة لبعض الطيور والفاكهة . ولم تكن التماثيل على شيء من الجمال ، حتى إن حنا كانت تسميها الفطائر الطينية لشدة بشاعتها . وسمعت أمي حديث أختها ، فقالت تطمئن لها :

— سأكون لك أنا وچو ثروة طائلة ، فانتظري عشر سنوات ،

وسترين بعدها العجب !

قالت ميج :

— لا طاقة لي على الانتظار طول هذه المدة ، ويؤسفني أنني قليلة الثقة بقلم چو وصلصالك . ولكني أشكر لك حسن نياتك على كل حال .

ثم تنهدت وأدارت وجهها إلى النافذة التي علق بها الصقيع ، وأسندت چو مرفقيها إلى المائدة مزججة ، وعادت أمي إلى صلصالها تعمل أصابعها فيه بنشاط . وكانت تجلس عند النافذة الثانية للغرفة ، فقالت وهي تبسم :

— أرى أمي مقبلة عند أول الطريق ، وأرى لوري يسرع السير إلينا ،

كمن يحمل أخباراً سارة .

ودخل الاثنان ، فبادرت مسز مارش بناتها بسؤالها المعهود :

— ألم تأت رسالة من والدكن يا بناتي ؟

وقال لوري بلهجة مستعطفة :

— ألا من تصحبني إلى النزهة ؟ إن الجو لطيف في الخارج رغم تلبد السماء بالغيوم ، فتعالى معي يا چو وأنت يا ميج نوصل مستر بروك إلى منزله بالعربة ، ثم نطوف بها في نزهة قصيرة .

أجابت چو دون تردد :

— سنذهب معك ولا شك .

وقالت ميج وهى تبحث عن شىء داخل سلة التطريز :

— أشكرك على دعوتك ، ولكنى مشغولة الآن .

وكان اعتذارها هذا نتيجة لرغبة أمها في أن تقلل ما أمكن من مقابلاتها مع الشاب بروك .

وصاحت آمى وهى تهرع إلى غسل يديها تقول :

— سنكون على أتم استعداد في بحر دقيقة واحدة .

وانحنى لورى نحو مقعد مسر مارش ، وقال وهو ينظر إليها بمنتهى

العطف والحنان :

— ألا من خدمة أؤديها لك يا سيدتى الوالدة ؟

قالت :

— لا ، شكراً ، ولكنك إذا شئت أن تطوق عنقى بجميلك فامض لمكتب

البريد لتستفسر عما إذا كانت لى رسالة فيه ، فقد تعودت أن ألتقى من

زوجى خطاباً في مثل هذا اليوم كل أسبوع ، ولكنى لم ألتق شيئاً بعد ،

وعهدى بزوجى أنه دقيق في مواعيد خطاباته ، فلعل البريد تأخر لسبب

من الأسباب .

وفى تلك اللحظة رن جرس الباب رنيناً حاداً ، ثم أقبلت حنا تحمل مظروفاً ، وقالت وهى تقدمه مرتجفة كأنما هى تخشى أن يتفجر فى يدها :

— إنها رسالة من تلك التى يسمونها برقيات .

وما إن سمعت مسز مارش كلمة برقية ، حتى اختطفها وقرأت السطور التى احتوتها بمنتهى السرعة ، ثم غاض الدم من وجهها ، وتهالكت على مقعدها كأن رصاصة أصابتها فى قلبها . واندفع لورى إلى خارج الغرفة يحضر ماء من أسفل الدار ، وهرعت مبيج وحنا إلى الأم تسندانها ، وقرأت چو البرقية فى صوت واجف ، وكانت كلماتها القليلة تقول :

« مسز مارش ، زوجك مريض جداً ، احضرى حالا .

من س . شيل

مستشفى بلانك . واشنجنجتون »

وفعلت البرقية عجباً فى الغرفة ، فقد خيم على الجالسين صمت مطلق ، وغشى الوجوه عبوس وشجن ، والتفت البنات حول أمهن فى ذعر على أبيهن الحبيب ، مصدر سعادتهن فى الحياة وعائلتهن الوحيد .

وعندما استردت مسز مارش سيطرتها على نفسها ، عادت إلى البرقية تقرأها من جديد ، ثم مدت ذراعها إلى بناتها ، وقالت فى صوت عامر بالتأثر :

— سأذهب إليه حالا ، ولعل أصل قبل فوات الأوان ، آه يا أطفالى !
ساعدنى وكن لى عوناً على الاحتمال .

ومضت دقائق لم يكن يسمع خلالها سوى نحيب البنات ، وقد
اختلفت بعبارات التشجيع والمواساة ، أو همسات الأمل التى تتلاشى بين
الدموع السخية ، وكانت حنا أول من أفاق من الصدمة ، وضربت
للجميع مثلاً يحتذى لرجاحة العقل والثبات ، إذ قالت وهى تمسح دموعها
بطرف مرولتها ، وتشد على يد سيدتها مشجعة :

— ليحفظ الله زوجك ويشفيه يا سيدتى ، فلا تضيعى الوقت فى
النواح ، وأسرعى بإعداد حقيبتك .

وانصرفت فى عزيمة كأنها ثلاث نساء تقمصن جسد امرأة واحدة ،
فقالت الأم لبناتها :

— إن حنا على صواب ، فليس فى الوقت متسع للدموع ، فاهدأن
واتركننى أفكر قليلا .

وبينما حاول البنات المسكينات أن يعملن بنصيحتها ، جلست مسر
مارش رابطة الجأش رغم شحوب لونها ، تحاول السيطرة على حزنها لتفكر
فيما يجب أن تفعل .

قالت بعد قليل :

— أين لورى ؟

وكانت أشجان الفتيات أوجعت قلب صديقتهن الحنون ، فاختلف

إلى الغرفة الأخرى وحده ، فلما سمع مسز مارش تسأل عنه ، أقبل عليها
مسرعاً يقول :

— ها أنا ذا يا سيدتى .

قالت له :

— إن أول قطار يقوم صباح الغد ، فأبرق إلى المستشفى بموعد
وصولى .

قال ، وقد بدا على استعداد لخدمتها وتلبية رغباتها ، حتى إذا كانت
فى آخر الدنيا :

— وماذا تريدین أيضاً؟ إن العربۃ تنتظر بالبَاب ، ويسرنى أن
أذهب إلى أى مكان وأعمل ما تريدین .
قالت :

— أرجو أن تحمل رسالة إلى العمۃ مارش ، أعطينى يا چوقلماً وورقاً .
وأحضرت الفتاة ورقة بيضاء من كراس مذكراتها ، وسحبت
منضدة صغيرة وضعها أمام أمها . وكانت تعلم ألا مفر من اقتراض
بعض المال ، حتى تستطيع أمها أن تقوم بنفقات رحلتها المحزنة ، وتمت
فى قرارة نفسها أن لو كان فى مقدورها أن تفعل أى شىء لتضيف قليلاً
إلى المبلغ ، فى سبيل أبيها الحبيب .

ولما انتهت مسز مارش من رسالتها ، قالت للورى :

— خذ هذه الرسالة يا عزيزى ، ولا داعى لأن تستमित فى الإسراع

بها ، فما زال أماننا يعرض الوقت .

ولكن الفتى لم يستمع لرجائها ، فما إن مضت خمس دقائق ، حتى كان يمتطى حصانه ، ويمر به كالسهم أمام النافذة ، فى طريقه إلى بيت العمه مارش .
وقالت الأم :

— اذهبي يا چو إلى مسز كنج واعتذرى لها من عدم حضورى ،
وفى عودتك أحضرى الأشياء المكتوبة فى هذه الورقة ، فإن المستشفيات فى هذه الأيام غير كاملة الاستعداد ، وربما احتجت إلى بعض العقاقير فى تمريض أيبك ، وأنت يا بث اذهبي إلى مستر لورنس واطلبي منه زجاجة نبيذ معتق ، فأنى أحب أن أقدم لأيبك أحسن الأشياء ، ولو اضطررنى الأمر إلى التسول فى الطرقات . وأنت يا آمى قولى لحنا أن تأتيني بحقيبتى السوداء ، أما أنت يا ميج فعليك أن تساعدني فى جمع حاجاتي لأننى فى أشد الاضطراب .

وكان خليقاً بالسيدة أن تضطرب ، وعقلها موزع بين الكتابة والتفكير ، وإصدار الأوامر ، فرجتها ميج أن تجلس فى غرفتها هادئة ، وترك لهن العمل . وانتشر البنات فى أرجاء البيت ، كما تنتشر أوراق الخريف فى يوم عاصف ، واختفى السكون والهدوء عن البيت السعيد ، كأنما كانت تلك البرقية نذير شؤم وشر .

وجاء مستر لورنس العجوز مع بث مسرعاً ، وكان يحمل معه

كل ما يراه مفيداً للمريض ، وطمأن الأم إلى أنه سيرعى النبات في غيابها ، وبذلك أدخل على قلبها راحة واطمئناناً . ولم يقف في سخائه عند حد ، فقد أعطاها معطفه ليقبها من البرد ، وأبدى منتهى استعداداه لمرافقتها في رحلتها ، ولكنها أثبت عليه أن يتحمل هذه المشقة ، وإن كانت تتمنى في قرارة نفسها من يعينها على وعناء السفر ، ويقويها على احتمال متاعب الرحلة الطويلة . ورأى السيد العجوز ما ارتسم على وجهها ، فقطب حاجبيه وفرك كفيه ، ثم انصرف عن الحجرة هادئاً . ولم ينتبه أحد لخروجه ، ولم يفكر فيه ، إلى أن أقبلت ميج تجرى وقد حملت في إحدى يديها حذاء أمها المطاط ، وفي الأخرى فنجاناً من الشاي . وما إن ولجت الباب حتى رأت فجأة مستر بروك يقف بمدخل الدار . قال لها في صوت هادئ عطوف بعث بعض الطمأنينة إلى قلبها الحائر :

— تأملت كثيراً لتلك الأخبار السيئة يا آنسة مارش ، وقد جئت أقدم نفسي راجياً أن تسمح لي والدتك بمرافقتها في سفرها ، ومن دواعي راحتي وسعادتي أن تقبل مني هذا الرجاء .

وسقط الحذاء من يد الفتاة ، وكاد الشاي ينسكب من يدها الأخرى وتورد وجهها اعترافاً بجميله ، ومدت يدها إليه تصافحه شاكرة . وكان مستر بروك يعتبر هذه اليد مكافأة عظيمة تزيد كثيراً على توضيحته الصغيرة ببعض مجهوده ووقته .

قالت الفتاة :

— يا للعطف والكرم ! لست أشك في أنه يسر أمى أن تسافر في رفقتك ، ولا أظن إلا أنها ستنال كل الراحة معك ، فشكراً لك ، شكراً جزيلاً .

وكانت ميج تتحدث بإخلاص وحرارة أنستها نفسها ، ولكن شيئاً في تلك العيون العسلية التي تنظر إليها ، جعلها تذكر فنجان الشاى الذى كاد يبرد في يدها ، فقادت الضيف إلى الردهة ، وذهبت تنبئ أمها بقدمه .

وعاد لورى من عند العمة مارش ، يحمل المبلغ المنشود ، مع رسالة تعيد فيها ما سبق أن قالته مراراً ، من أنها كانت سخافة من مستر مارش أن يلتحق بالخدمة العسكرية التي لن تعود عليه بالخير ، وأنها تأمل أن يستمع لنصحها في المرة القادمة . وألقت مسر مارش الرسالة في الموقد ، وأودعت النقود حقيبتها ، وراحت تكمل استعدادها ، وقد زمت شفيتها ، دليل ثورتها النفسية المكبوتة .

ومضى عصر ذلك اليوم الحزين ، وقد أدى كل عمله على أكمل وجه ، ثم جلست ميج مع أمها تحوك الأشياء الضرورية ، وعكفت أمى وبث على إعداد الشاى ، وانتهت حنا من كى الملابس . وقد حدث ذلك كله ، وچو لم تعد إلى البيت بعد ، مما بعث القلق في نفوس أمها وأخواتها ، لأنها لم تكن قد أخبرت أحداً بوجهتها ، فخرج لورى يبحث عنها وهو يسأل نفسه : أية فكرة عجيبة تملك رأس

الفتاة ؟ ولكن بحثه ذهب عبثاً ، فما إن انصرف عن البيت يبحث عنها ، حتى أقبلت من طريق آخر تسير بسرعة ، وفي عينيها نظرة عجيبة يمتزج فيها الخوف بالسرور ، ويختلط الرضا بالندم . وتوجهت إلى أمها مباشرة ، وقدمت لها رزمة من الأوراق المالية ، وقالت بصوت مختنق بالتأثر :

— هذا نصيبي من واجبنا نحو أبي ، فأرجو أن تستعيني به على توفير بعض الراحة له ، حتى يعود .

قالت الأم في دهشة بالغة :

— خمسة وعشرون ريالاً ! كيف أتيت بها ومن أين ؟ أرجو أن لا تكوني قد أتيت عملاً طائشاً لتحصلي عليها يا چو ؟

قالت الفتاة :

— لا . إنه مال حلال ، لم أتسوله ولم أقترضه ولم أسرقه ؛ إنما جئت به عن أشرف الطرق وأنظفها ، ولن يلومني أحد إذا كنت قد بعت شيئاً أملكه .

ورفعت قبعتها عن رأسها ، فبان شعرها وقد قصته قصيراً جداً ، فتصايح أخواتها ، وقالت أمها في انزعاج شديد :

— شعرك ! شعرك الجميل ! كيف جرؤت على قصه يا چو ؟ إنه الشيء الجميل الوحيد فيك ! لم نكن في حاجة إلى هذه التضحية يا بنيتي العزيزة ؛ ولكني ازددت لك حباً بما فعلت .

وبينا الأسرة في هرج ومرج لما فعلته چو بشعرها ، قامت بث إلى

أختها الحبيبة تحتضنها في إعزاز وحنان ، وتمر بيدها الرقيقة على رأسها ، كأنها تريد بذلك أن تعبر لها عن تقديرها العظيم لتضحيتها الغالية .
فقالت چو وهي تثير بيدها شعرها القصير وتظاهر بعدم الاكتراث :

— كفى نواحاً يا بث ، فلن يصيب الوطن ضرر مما جرى . كان غرورى بشعري قد بدأ يقهرنى ، فرأيت من صالحى أن أقصه . لقد خففت الحمل عن رأسى ، وسوف ينشط عقلى بزوال هذه المعرفة ، كما أنى أحس بطراوة الجو وجماله . لقد أكد لى الحلاق أن شعرى لن يلبث أن ينمو سريعاً ، فتظهر به تجاعيد جديدة ، تجعله صبيانياً أنيقاً ، سهل الترتيب والتنظيف . إننى راضية بما حدث فأرجو أن تتقبلى النقود يا أماه ، وهيا بنا إلى العشاء .

قالت مسر مارش :

— أما أنا فغير راضية عما فعلت يا چو ، ولست ألومك ، لأنى أعرف مدى استعدادك للتضحية بكبريائك فى سبيل من تحبين . لم يكن من الضرورى أبداً أن تقصى شعرك ، وأخشى أن يلحقك الندم فى يوم من الأيام ، فأخبرينى بكل ما جرى .

قالت چو فى كبرياء ، وقد اطمأنت إلى أن فعلتها لم تلق رفضاً على طول الخط :

— لا ، لن أخبرك يا أماه .

وقالت آمى ، وكان أهون عليها أن تقطع رقبتها من أن يقص شعرها

الجميل :

— ما الذى دفعك إلى فعل ذلك ؟

قالت چو ، وقد التأم شمل الأسرة حول مائدة الطعام ، وجلس البنات — كشأن الشباب — يأكلن بشهوة رغم أحزانهن :

— انتابتني رغبة صارخة في أن أساهم بشيء في معونة أبي على الشفاء ، ولما كنت كأُمّي أمقت القروض ، وأعلم أن العمة مارش سترفض معونتنا لشحها ، وكانت ميج قد ساهمت بمرتبتها في دفع أجرة البيت ، لذلك بحثت عن شيء أبيع ، فلم أجد سوى ملابس قليلة ، فأشقتني شعوري بالعجز ، ولم أجد أُمامي سييلا إلى الحصول على المال سوى أن أجدع أنفي وأبيع .

فقالت مسر مارش وهي تلتقي عليها نظرة حنان أفعمت قلب الفتاة بالسعادة :

— ما كان يجدر بك أن تشقى يا بنيتي ، فإن راتبك الضئيل لم يسمح لك بشراء ملابس هذا الشتاء رغم احتياجك الشديد إليها .

قالت :

— لم يحل بخاطري أول الأمر أن أبيع شعري ، ولكن بينما كنت أسير في الطريق ، وأنا أفكر فيما يمكنني عمله ، وأتمنى لو كان في مقدوري أن أدخل حانوتاً من تلك الحوانيت الأنيقة ، أغترف منه ما أريد ، مررت بمحل حلاق ، ورأيت في واجهته جداول سوداء مستعارة ، ليس فيها

ما يضارع جدائلي جمالا وطولا ، ومع ذلك كان ثمن الواحدة منها أربعين ريالا ، وعندئذ واتتني الفكرة ، واستقر رأيي على أن أبيع شعري من أجل أبي . ولم أقف لأفكر في الأمر ، بل اندفعت إلى داخل المحل مسرعة ، وسألت الحلاق إن كان يشتري شعري وكم يدفع ثمنًا له .

فقلت بث في صوت مليء بالهلع :

— لست أدري كيف جرئت على ذلك ؟

قالت :

— كان الحلاق رجلا صغير الحجم ، بالغ الأناقة ، يصفف شعره ويلمعه بالدهون ، فوقف يحملني في أول الأمر ، كما لو كنت أول فتاة اقتحمت عليه محله لتبيعه شعرها ، ثم قال إن لون شعري كثير في السوق ، وإعدادة للبيع يتكلف غاليلًا ، إلى غير ذلك من العبارات المقبضة . وكان الوقت قد تأخر بي ، فخشيت إن طال الجدل بيننا أن أعدل عن بيع شعري ، وهو مالا أريده أمام رغبتى الجارفة في تحقيق غرضي بأى شكل كان ، ولذلك شرعت أرجوه وأستعطفه أن يشتريه ، وفي غمرة انفعالي سردت عليه لماذا أريد النقود . كانت سخافة مني ولا ريب ، ولكن الانفعال الذي تملكني وأنا أحدثه عن والدي أثر فيه ، فعدل عن رأيه ، كما أن زوجته سمعت حديثي ، فقالت في رقة : « خذه يا توماس إرضاء للسيدة الصغيرة ، لو كنت مكانها ما ترددت في التضحية بشعري من أجل چيمى ، وما توانيت عن بيعه إذا كان

يساوى شيئاً » .

وكانت آوى بطبعها تهتم بالتفاصيل ، فقالت :

— ومن يكون چيمى هذا ؟

قالت چو :

— إنه ابنها الذى تطوع فى الجيش ، وقد قربنى إلى قلبها تشابه ظروفنا ، وأزال الكلفة بينى وبينها ، فجعلت المرأة تحدثنى وتلهينى عن التفكير فى أثناء قيام زوجها بقص شعرى .

فسألته ميج وبدنها يقشعر لهول الوصف :

— ألم تشعرى بفضاعة الأمر عندما قص أول خصلات شعرك ؟

قالت :

— ليس من عادتى أن أنوح على صغائر الأمور ، ولذلك اكتفيت بأن ألقىت على شعرى نظرة وداع قبل أن يعمل الحلاق فيه بمقصه ، ولكنى شعرت بغصة فى حلقى عندما رأيت جدائلى على المائدة ، وخيل إلى أننى بترت ذراعى أو ساقى ، ورأيتى زوجته أتطلع إلى شعرى فى أسف وحسرة ، فتناولت منه خصلة وقدمتها لى تذكاراً . وسوف أعطيك إياها يا أماه كى تذكرك بمجد شعرى الزائل ، فلست أعتقد أننى سأرسله على ظهرى مرة أخرى ، كما كنت أفعل فيما مضى . إن الشعر القصير مريح للغاية على كل حال .

وطوت مسز مارش الخصلة الكستنائية المتموجة ، ووضعتها فى

درجها إلى جانب خصلة أخرى من الشعر الأشيب القصير ، ثم قالت :
— شكراً لك يا عزيزتى .

وكان فى صوتها رنة حزن دفين ، جعلت الفتيات يغيرن موضوع الحديث ، ويتكلمن فى مرح مصطنع عن لطف مستر بروك ، وأملهن أن يكون الجو صحوّاً فى اليوم التالى ، ثم الأوقات السعيدة التى تنتظرهن عندما يعود أبوهن إلى البيت فى دور نقاهته .

ولم تبد واحدة رغبتها فى النوم ، حتى وافت الساعة العاشرة ، فوضعت مسز مارش أدوات التطريز فى سلتها ، ثم دعت البنات إلى الغناء ، وجلست بث إلى المعزف توقع عليه أحب أنشودة إلى أبيها . ووقف أخواتها حولها يغنين بشجاعة ، ولكنهن سكتن الواحدة بعد الأخرى حتى لم يعد يسمع سوى صوت المعزف ومعه بث تغنى بكل قلبها ، فقد كانت الموسيقى دائماً وسيلتها إلى السلوان والغراء .

ولما انتهى النشيد ، قالت مسز مارش ، وقد لاحظت عزوف بناتها عن الغناء :

— هيا إلى أسرتكن ، فعلينا أن نستيقظ مبكرات ، وأخشى أن يأخذنا النوم إذا أطلنا السهر . سعدتن مساء أيتها العزيزات .

وفى هدوء وسكون قبل الفتيات أمهن ، ثم انصرفن إلى أسرتهن فى صمت ، كأن أباهن المريض يرقد فى الحجرة المجاورة . وسرعان ما غرقت آى وبث فى نومهما ، رغم هموم اليوم وأحزانه ، ولكن ميج ظلت ساهرة

تفكر في أمور جدية ، لم يسبق أن خطرت لها على بال من قبل .
ورقدت چو ساكنة بلا حراك ، فظنتها أختها نائمة ، حتى أفلتت منها
نوحة مكبوتة ، جعلت ميج تنهض إليها وتمد يدها إلى خدها لتجده مبللا
بالدموع . قالت :

— ماذا بك يا عزيزتي چو ؟ أتبكين من أجل أبي ؟

قالت :

— لا . لست أبكي الآن من أجله .

قالت :

— لماذا تبكين إذا ؟

قالت چو :

— شعري .

وانفجرت المسكينة تبكي في حرقه وهي تحاول أن تخفي عبراتها في
وسادتها . ولم يكن في ذلك ما يسر ميج ، فانحنيت على أختها تضمها
بين ذراعيها مشجعة مواسية .

قالت چو ، والعبرات تخنقها :

— لست نادمة على ما فعلت ، ولن أتردد في فعله مرة أخرى ، إنما
هي كبريائي الفارغة تستدرج هذه العبرات السخيفة . لن أبكي بعد الآن ،
فلا تخبري أحداً ، ولكن ، ما الذي أبقاك ساهرة إلى الآن ؟ لقد ظننتك
نائمة ، فأطلقت أنة صغيرة من أجل جمالي الضائع .

قالت ميج :

— إن القلق يسهّدنى .

قالت چو :

— اسرحى بخيالك فيما يسر يعاودك النوم حالا .

قالت :

— لقد حاولت ذلك فزاد بى الأرق .

قالت :

— وفيم كنت تفكرين ؟

قالت ميج وهى تبسم لنفسها فى الظلام :

— فى وجوه وسيمة ، ذات عيون جميلة .

قالت چو :

— وما لون العيون الذى تفضلينه ؟

قالت :

— العسلية . . أقصد الزرقاء فى بعض الأحيان تعجبينى .

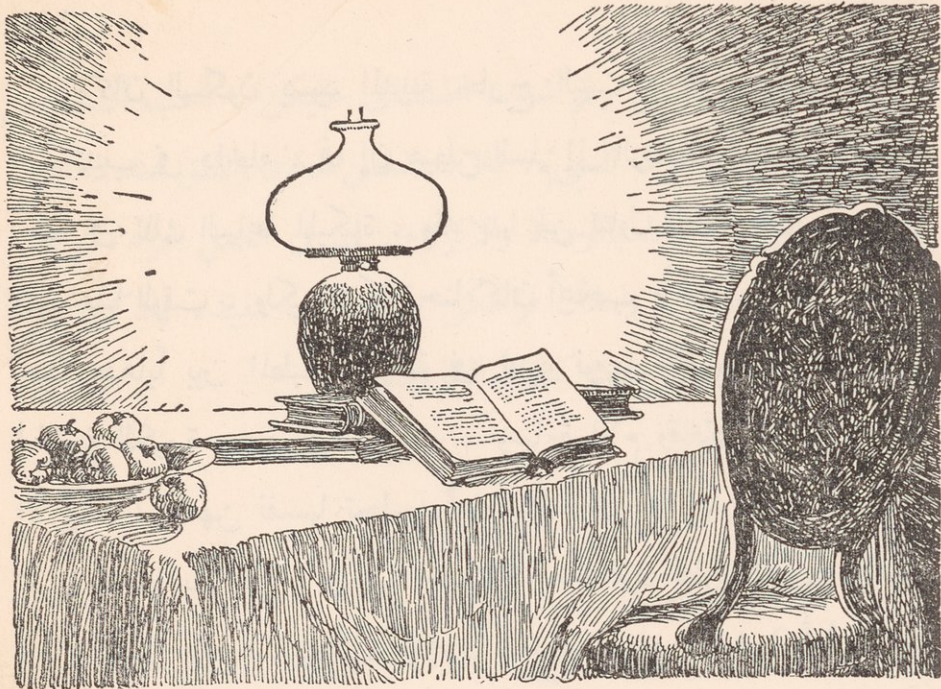
وضحكت چو ، فنهرتها ميج وأمرتها أن تكف عن الكلام ، ثم عادت فوعدها بأن تجعل لها شعرها القصير . وما لبثت ميج أن غلبها النعاس ، لتحلم بالحياة فى قصرها الذى بنته فى الهواء .

وبينما كانت الساعة تدق معلنة منتصف الليل ، انسل شبّح فى هدوء وسكون ، وجعل يطوف من فراش إلى فراش ، يسوى الغطاء على

هذا ، ويعدل وسادة في ذلك ، ويقف ممعناً بعض الوقت في الوجه
 النائم ، ثم يطبع عليه قبلة خفيفة من شفاه ساكتة ، ويدعو الله في
 صلاة حارة ، لا تنطلق إلا من صدر أم حنون . ورفعت مسر مارش
 جانباً من الستائر ، وسرحت ببصرها في الليل الساكن ، وفجأة برز
 القمر من وراء السحب المعتمة ؛ وألقى ضوءه الفضي من قرصه اللامع
 البراق الذي بدا كأنه يهمس قائلاً :

— ليطمئن قلبك العزيز ، إن الغيوم لن تلبث أن تنقشع ، فينبالج

النور بعد الظلام .



الفصل السادس عشر

رسائل

استيقظ الفتيات مع عتمة الفجر البارد ، فأضأن المصباح ورحن
يصلين في إيمان خاشع ، لم يسبق لهن أن شعرن بمثل شدته . إذ كانت
هذه أول مرة يتهددن فيها خطر حقيقى ، وأدركن معه عظم النعمة التي
كانت تملأ حياتهن من قبل . وبعثت الصلاة راحة في قلوبهن ، فارتدين
ثيابهن وقد استقر رأيهن على أن يودعن أمهن في بشر وتفاؤل ، حتى
لا يزدن همومها بالبكاء ، فتبدأ رحلتها مطمئنة النفس راضية .

وكان السكون يسود المدينة خارج البيت ، على عكس الحركة التي تدب في داخله ، فما إن هبطن السلم إلى الردهة حتى رأين الإفطار معداً في تلك الساعة المبكرة ، وقد بدا لهن تناول الطعام أمراً عجيباً في مثل هذا الوقت ، ولكن شكل حنا كان أعجب وأغرب ، وهي تسرع جيئة وذهاباً بين المطبخ والردهة في ثوب نومها وقلنسوة رأسها . ورأين الحقيبة الكبيرة معدة بجوار الباب ، وعباءة الأم وقبعاتها موضوعتين على الأريكة ، وأمهن نفسها تجلس أمام مائدة الإفطار ، وهي تحاول أن تغري نفسها بالأكل ، ولكنها كانت ممتعة اللون لطول الأرق والقلق ، فكان عسيراً على البنات أن يتظاهرن بالهدوء والمرح ، بعدما رأين في سيما الأم من صور الألم والشجن . واغرو رقت مقتلماً ميج بالرغم منها ، واضطرت چو أكثر من مرة أن تخفي وجهها وراء أدوات الطعام التي تحملها ، أما الصغيرتان فقد اكتسى وجهاهما بغشاوة من الوجوم الشديد ، وكأنهما تجربان شعور الحزن لأول مرة .

وجلسن في انتظار العربة هادئتان ، ولم يتبادلن سوى كلمات قليلة ، فلما اقترب موعد الرحيل ، قالت مسر مارش لبناتها اللواتي شغلن بأمرهما : هذه تصلح شالها ، وتلك تسوى شرائط قبعتها ، وثالثة تلبسها حذاءها ، ورابعة تقفل حقيبة يدها :

— إني أترككن يا أطفال في رعاية حنا وحماية مستر لورنس ، فطاهيتنا أصدق مثل للإخلاص ، وجارنا خليك بأن يمنحكن رعاية الأب

الحنون وحمایته ، ولكنی رغم شدید اطمئنانی علیکن ، أحب أن تحسن التصرف فی هذا الظرف السيئ ، فلا تستسلمن للحزن والقلق عند ذهابی ، أو تهربن من الأحزان بالوحدة والانزواء . إن فی العمل عزاء كريماً ، فاعملن بجد واجتهاد ، واملأن فراغكن بكل طيب مفید ، واذكرن دائماً أن شقاوة لن تصیبكن مهما كانت الظروف .

قالت الفتیات :

— سنطیعك فی كل ما تريدین یا أماء .

قالت الأم :

— أنت یا عزیزتی میج ، كونی حریصة وراقبی أخواتك ، واستشیری حنا فی كل ما یشكل علیك ، وإذا استعصت علیك المشورة فاذهبی إلى مستر لورنس . وأنت یا چو ، لا تكونی ضيقة الصدر ، ولا تنسی ضبط النفس ، وعلیک أن تکتبی إلى بالأخبار دائماً ، وكونی شجاعة . مرحة لتعاونی أخواتك علی الاحتمال . وأنت یا بث ، اطلبی العزاء فی معزفك ، فالموسیقی أطیب غذاء لنفسك ، وكونی أمينة فی أداء واجباتك المنزلیة الصغیرة . أما أنت یا آمی ، فابدلی المساعدة ما أمکنك وكونی مطیعة ، وابقی فی البيت سعیدة آمنة .

أجاب الفتیات :

— سنفعل ما تأمرین به یا أماء .

وتعالی فی الطريق ضجیح عربية قادمة ، فأجفل البنات وأرهفن

السمع ، لاقترب اللحظة العصبية . ولكنهن ثبتن أمام لوعة الوداع ، فلم تبك واحدة منهن ، أو تنطق بكلمة محزنة ، رغم ما أثقل قلوبهن من هم . وأوصين أمهن بأن تحمل لأبيهن عبارات الشوق والحب ، على الرغم مما جال بخواطرهن ، من أن تلك العبارات قد لا تصل إليه أبداً .

وكان مستر لورنس وحفيده قد حضرا لتوديعها أيضاً ، وكان مستر بروك يبدو قوياً رزيناً عطوفاً ، حتى قال الفتيات إنه صورة للسيد المهذب الطيب .

ولاذ الفتيات بصدر أمهن مودعات في هدوء ، فهمست مسر مارش وهى تقبل الوجوه العزيزة واحداً بعد الآخر ، قبل أن تصعد إلى العربة :
— إلى اللقاء يا عزيزاتى ! وليباركنا الله ويحفظنا جميعاً .

وتظاهر الفتيات بالبشر ، ورفعن أيديهن مودعات ، وكانت مسر مارش تطل عليهن من نافذة العربة ، فظل وجهها ماثلاً حتى طواها الطريق ، وعندئذ برزت الشمس فوق الأفق ، كأنها تبشرهن بالخير ، وألقت نورها على الجماعة التى تقف أمام باب الدار ، ورأتها الجماعة فابتسموا وهتفوا متفائلين . وكان آخر ما رآته الأم أربعة وجوه صبيحة ، من خلفها يقف مستر لورنس العجوز ، وحنا المخلصة ، ولورى الصديق العزيز ، كأنهم حرس يقوم على حماية بناتها العزيزات .

والتفتت مسر مارش إلى رفيقها فى العربة ، فرأت فى وجهه الفتى معانى جديدة ، كلها عطف واحترام ، قالت :

— لقد غمرتمونا بعطف شديد .

فضحك مستر بروك ضحكة لطيفة ، لم تتمالك السيدة معها إلا أن تبسم . قال :

— هذا أقل ما يجب .

وهكذا بدأت الرحلة الطويلة بشمس مشرقة ، وبسمات طيبة ، وكلمات رقيقة مشجعة .

وعندما ذهب مستر لورنس وحفيده إلى بيتهما لتناول الإفطار ، قالت چو :

— إني أشعر كأنما قد زلزلت الأرض زلزالها .

وقالت ميج في وجوم :

— وأنا أحس بأن نصف ما في البيت قد ذهب .

وفتحت بث فمها لتقول شيئاً ، ولكنها توقفت وأشارت بيدها إلى مجموعة من الأحذية اصطفت فوق منصدة أمها في عناية ونظام ، كأنها تريد بهذه الإشارة أن تؤكد لأخواتها أنها قامت بواجبها ، رغم همومها وأحزانها . وكان جهداً تافهاً في حد ذاته ، ولكن معناه الجميل لمس قلوب أخواتها ، فانهارت مقاومتهن دفعة واحدة ، وانفجرت في عاصفة من البكاء المرير .

ورأت حنا أن تتركهن يفرغن بالبكاء أحزانهن ، فسكن الدمع مدراراً ، حتى هدأت العواصف في قلوبهن ، وعندئذ فقط أقبلت الطاهية

الطبية تحمل إبيريقاً عامراً بالقهوة الساخنة ، ثم قالت :

— والآن يا سيداتى العزيزات ، تذكرن نصيحة أمكن ، واتركن الحزن والبكاء ، وهيا إلى القهوة ، ولنغرق بعدها أنفسنا فى العمل ، لنكون جديرات باسم هذه الأسرة .

وكانت حنا قد بذلت فى صنع القهوة مجهوداً عظيماً ، فجاءت لذينة الطعم جميلة النكهة ، وكانت أبجرتها المشبية أعظم محرض للفتيات على شربها ، فجلسن إلى المائدة يملأن فناجينهن من الأبريق ، ويكفكن الدمع بالمناديل والقوط . ولم تمض دقائق عشر حتى عادت الأمور إلى مجاريها .

قالت چو ، وهى تسترد سيطرتها على مشاعرها :

— علينا بالأمل والعمل ، فبهذا نصحتنا أمى ، ولذلك سوف أذهب كعادتى إلى العمة مارش ، رغم ما ينتظرنى من نصحتها ونقدها .

وقالت ميج ، وقد ساءها احمرار عينيها :

— وسأذهب لعملى عند آل كنج ، وإن كان بودى أن أبقى اليوم فى البيت أدبر شئونه .

فقالت آمى فى اعتداد :

— لا داعى لذلك ، فى وسعى أنا وبث أن نؤدى أعمال البيت على ما يرام .

وكانت بث تعد الحوض للغسيل ، فقالت تتم حديث أختها :

— سوف ترشدنا حنا إلى ما يجب أن نعمله ، وسيكون البيت منظماً



عند عودتكما .

وقالت آمى وهى تلتهم قطعة من السكر :

— إن القلق شعور مثير .

وضحك البنات عالياً لقلوها ، فارتاحت صدورهن بالضحك ، وهزت ميج رأسها عجباً من تلك الفتاة التى تقاوم الحزن بالتهام قطع السكر !

وسرعان ما استعدت چو وميج لعملهما ، وخرجتا من البيت ، وعند منعطف الطريق التفتتا خلفهما كعادتهما ، تنظران إلى النافذة التى اعتادت الأم أن تودعهما منها كل صباح ، فطالعهما وجه بث المتورد ، يومئ إليهما فى ابتسامة مشرقة ، فقد عز على الصغيرة الطيبة أن تنصرف اختها حزينتين ، ولذلك اختارت أن تقوم بدور الأم الغائبة . ولوحت چو بقبعتها تشكر لأختها لفتتها الحنون ، وقالت لميج قبل أن تفرق عنها عند المنعطف :

— هذا ما كنت أتوقعه من العزيزة بث ، إلى اللقاء يا ميجى ، وأتمنى

أن لا يرهقك آل كنج ، ولا تقلقى من أجل أبى .

فردت ميج وهى تكبت بسمة بعثها منظر شعر چو القصير :

— وآمل أنا أيضاً أن لا تثيرك العمة مارش بنقدها المر ، ولا تستائى

إن فعلت ، فإن شعرك جميل وشكله صيبانى لطيف .

فربت چو على قبعتها وقالت :

— هذه عزالى الوحيد .

وسارت فى طريقها ، كما يسير حمال مجزوز الصوف فى يوم عبوس قمطير .

وجاءت الأخبار عن أبيهن تبعث الراحة والأمل ، فرغم خطورة مرضه ، تحسنت حاله على أثر حضور زوجته الطيبة ، التى كانت له أحسن ممرضة وأرق مواسية .

وقام مستر بروك بإرسال نشرة يومية للبنات يطلعهن فيها على صحة أبيهن . وأصرت ميج — بحكم أنها أكبر الأسرة سناً — أن تقرأ عليهن هذه النشرات بصوت مرتفع . وجعلت أخبار النشرات تتحسن يوماً بعد يوم ، فيزداد بها سرور البنات واطمئنانهن ، وتتضاعف قابليتهن لكتابة الخطابات لأمهن ، فكانت المظاريف المفعمة بالصفحات الطويلة المليئة بالأخبار ، ترسل كل صباح إلى مقر الأم فى واشنطن ، أحسن البلاد وعاصمتها . ولما كانت تلك الرسائل تحوى أخباراً ترسم صورة نموذجية ، لذلك نسترق بعضاً منها ، نقدمه فيما يأتى :

« يا أعز الأمهات

لا يمكنك أن تتصورى مبلغ السعادة التى بعثها فىنا خطابك الأخير ، فلم نمالك أنفسنا من أن نضحك ونبكي فى وقت واحد . إنه لحظ جميل أن تستدعى أعمال مستر لورنس بقاء مستر بروك فى واشنطن طوال هذه المدة ، فى وجوده قريباً منك ، عون كبير لك ولأبى . إن الفتيات على

أحسن حال ، فچو تساعدنى فى التطريز ، وتصبر على أداء الأعمال الشاقة .
وهى تعمل فوق طاقتها ، ولكنى غير قلقة عليها ، لمعرفتى بأن « نوبة
التضحية » التى تتملكها الآن ، لن تدوم طويلا . كذلك بث تقوم
بعملها كالساعة الدقيقة ، لا تنسى شيئاً مما أوصيتها به ، ولكن مرض
أبى يحزنها دائماً ، ولا تكف عن حزنها إلا عندما تجلس إلى معزفها . .
أما آمى فهادئة مطيعة ، وأنا أرهاها بكل عناية ، وقد تعلمت الآن أن
تمشط شعرها بنفسها ، كما أنها بدأت تتعلم عمل عروات الأزارار ، وتبذل
جهداً كبيراً فى ذلك ، وسوف يسرك مبدى التقدم الذى بلغته عندما
تعودين

« مستر لورنس يحذب علينا ويرعانا كالدجاجة العجوز ، على حد
تعبيره ؛ ولورى الطيب يرعى حقوق الخيرة ، وعندما يخيم علينا الحزن ،
ونشعر كأننا أيتام لبعدهما عنا ، يقوم هو وچو بتوفير أسباب السرور
والمرح لنا . أما حنا فهى الطيبة بعينها ، لا تؤنبنا مطلقاً ، وتصبر على أن
تنادينى « بالآنسة مارجريت » وتعاملنى بكل احترام .

« إننا جميعاً بخير لا نكل عن العمل ، ولكننا نتوق لعودتكم ، ونفكر
فيكم بالليل والنهار . بلغى أبى خالص محبتى ، ودمت لابنتك ميج . »
وكانت هذه الرسالة المكتوبة على ورق معطر ، تختلف كل
الاختلاف عن رسالة أخرى ، كتبت على ورقة كبيرة ، من النوع
الرخيص ، فى خط كبير الحروف ، تتخلله بقع الحبر ، وقد جاء فيها :

« أُمِّي الغالية

«تحيات ثلاث لأبي العزيز ! كان تصرفاً هائلاً من برك أن يرسل برقية حال وصولكم ليطمئننا على صحة أبي . لقد قفزت في حجرتي سروراً عند وصول البرقية ، وحاولت أن أشكر الله لرأفته بنا ، ولكن الدموع غلبت صلواتي فوجدتني أبكي وأقول :

إني فرحة ! إني فرحة ! أفلا تقوم هذه الحملة مقام الصلاة ؟ إني أشعر بأن قلبي مفعم بالشكر لله عز وجل .

«إننا نمضي بعض وقتنا في الضحك والسرور ، ويمكنني الآن أن أتمتع بهذه السويغات المرحية ، فكلهم يرعانا ويحذب علينا ، كأننا نعيش في برج سعيد للحمام .

«قد يضحكك كثيراً أن ترى ميج الآن ، وهي تترأس مائدة الطعام ، وتحاول أن تكسب نفسها مظاهر الأمومة . إنها تزداد حسناً كل يوم ، وإني أحبها في بعض الأحيان . إن الصغيرتين في طهر الملائكة وطيبتهما ، أما أنا — أنا چو — فسأبقى كما أنا . لقد كادت تنشب بيني وبين لوري معركة حامية ، فقد قلت رأيي بصراحة في أمر تافه صغير ، وكنت على حق ، ولكنني أسأت التعبير ، فغضب مني وقفل راجعاً إلى بيته ، وهو يهدد بأنه لن يعود إلى زيارتنا حتى أعذر له ، وأطلب الصفح منه . فجن جنوني لتحديه ، وأجبت بأنني لن أعذر له أبداً ، ودام الخصام طوال اليوم ، وانتابني حزن شديد ، وتمنيت لو كنت معي لتقوديني

إلى الصواب ، لأن شخصية لورى مثل شخصيتى تماماً ، فكلانا عنيد معتد برأيه . وظننت فى بداية الأمر ، أنه لن يلبث أن يقرنى على ما قلت ما دمت على حق ، ولكنه لم يأت ، ولم يرجع عن رأيه . وعندما ولى النهار ، وأظلمت الدنيا ، تذكرت يوم سقطت آمى فى النهر ، فنصحتنى بأن لا أدع شمس اليوم تغيب وقلبى مفعم بالغضب . وانكبت على كتاب العظات أقرأ فيه بشغف ، حتى ارتاح قلبى قليلا ، وعندئذ هبطت السلم جرياً ، وكلى رغبة فى أن أعذر للورى . وقابلته عند باب الدار قادماً ليعتذر لى بدوره ، فضحكنا معاً ، واعتذر كلانا للآخر ، وبذلك زال التوتر ، وعادت المياه إلى مجاريها .

«لقد نظمت أمس قصيدة ، فى أثناء مساعدتى لحنا فى غسل الملابس ولما كنت أعرف أن أبى يحب سخافاتى ، فقد كتبته فى هذا الخطاب لتسليته ، وأرجو أن تبلغه شوقى وحبى ، وقبللى لى نفسك اثنتى عشرة قبلة .

من ابنتك المهووسة

چو

أغنية من وحى طست الغسيل

يا ملكة الطست إنى أغنى فى حبور

ورغوة الصابون تعلو وترتفع

وأنا أشطف وأعصر في سرور
ثم أشبك الملابس حتى تجف
فوق الجبال ، في الهواء النقي
تحت السماء الصافية المشمسة

كان بوى أن أغسل القلوب والنفوس
وأزيل منها رواسب الأيام الماضية
وأدعو الهواء والماء بسحرهما
ينقيان النفوس بنقاءهما
وعندئذ تصير الدنيا الواسعة
أجمل وأروع أيام الغسل

أيمكن ، ونحن نمضى في حياة كادحة
أن تزهر الراحة في بالنا
ولا يلزم العقل أن يفكر
في الحزن والنصب والهموم
ويزيل السعد الأحران عن قلوبنا
كما تزيل مكانسنا النشيطة أقدار اليوم ؟
إني سعيدة بما أوديه

من عمل ، يوماً بعد يوم
ففى العمل صحة وقوة وأمل
تعلمت منها أن أقول فى سرور :
أيها العقل قد تفكر ، أيها القلب قد تشعر
أما أنت أيتها اليد فستعملين على الدوام .

* * *

أما بث فكتبت تقول :
« أمى العزيزة

« إنى لا أملك سوى أن أرسل لك حبى ، وأن أرسل إلى أبى زهرة
الپانسيه المحففة ، التى ربيتها وعنيت بها ليراها . إنى أقرأ دروسى كل يوم
وأحاول أن أكون بنتاً طيبة ، وفى المساء أغنى لنفسى بعض الأناشيد
التى يحبها أبى ، حتى أنام . ولكنى لا أستطيع أن أنشد أغنية أبى المفضلة ،
لأنها تثير شجونى وتدفعنى إلى البكاء . كونى مطمئنة علىّ ، فكلهم
يرعانى ، وأنا أقوم بواجباتى ، أملأ الساعة بانتظام ، وأجدد هواء الغرف
كل يوم ، ونحن أسعد ما يمكن أن نكون بغير كما . ولذلك أختم خطابى
سريعاً .

« قبلاتى لأبى العزيز ، أطبعها على الخلد الذى يدعوه خدى ، وعودى
سريعاً إلى ابنتك المحبة .
بث الصغيرة »

« أمى الحبيبة

«إننا جميعاً بخير ، وأنا أودى دروسى كل يوم ، ولا أزعج الآخرين أو أرهقهن ، وميج تعطف على جدا ، وتعطينى كل يوم قالبا من الحلوى مع الشاى ، وچو تقول إن الحلوى تكسبنى حلاوة فى الأخلاق . يؤسفنى أن لورى لم يعد يحترمنى كما يجب فى هذه الأيام ، رغم أننى قد بلغت الثانية عشرة من عمرى ، ولم أعد طفلة صغيرة . إنه يجرح شعورى كلما حييته أو شكرته بالفرنسية ، فينطلق يكلمنى بهذه اللغة فى سرعة شديدة ، لا أفهم معها ما يقول .

«إن أكمام ثوبى الأزرق قد بليت تماماً ، فلما وضعت ميج أكماماً أخرى بدلا منها ، أفسدت الثوب كله ، لأن لونها أشد زرقة من بقية الثوب . ولقد حزنت لذلك ، ولكنى لم أغضب أو أتذمر . إنى أتحمل متاعبى فى جلد . ولكنى أتمنى لو أن حنا زادت مقدار النشا فى مروتى ، كما أود لو أنها طهت بليلة كل يوم ، أفلا يمكن ذلك ؟ ألم أتقن رسم علامة الاستفهام ؟ تقول ميج إن كتابتى مليئة بالأخطاء الهجائية ، وهو أمر فظيع ، ولكن ما العمل ، وعندى من الواجبات شىء كثير ؟ وداعا ، وبلغنى أبى مزيد حبى وأشواقى .

ابنتك المحبة

أمى كورتوس مارش »

وكتبت حنا تقول :

« عزيزتى مسز مارش

« أريد فقط أن أقول إن كل شىء على ما يرام ، والفتيات مجندات يعملن سريعاً ، ولا يتوانين عن واجب من الواجبات ، ومس ميج تبشر بأن تكون ربة بيت من الطراز الأول ، فهى تحب عملها ، وتفهم كل شىء بسرعة عجيبة . چو تبذل جهدها ، ولكنها لا تفكر قبل العمل فيما يجب أن تعمله ، ولذلك لا يمكن مطلقاً تقدير النتائج . لقد قامت يوم الاثنين الماضى بغسل ملابس الأسرة كلها ، ولكنها وضعت النشا قبل الموعد المناسب ، ووضعت كذلك ملاءة صفراء فى محلول الزهرة الزرقاء ، فكانت النتيجة مضحكة للغاية . إن بث أحسن مخلوق فى الدنيا ، وهى سند مهم لى بفضل سرعتها واعتمادها على نفسها ، فهى تريد أن تتعلم كل شىء ، وقد أتقنت الشراء من السوق إلى حد يفوق سنها ، وهى كذلك تقيد الحسابات بمعونتى ببراعة فائقة . إننا نقتصد فى النفقات اقتصاداً كبيراً ، وأنا أعطى الفتيات - حسب تعليماتك - القهوة مرة فى الأسبوع ، والحساء فى بقية الأيام . آحى لا تتذمر كثيراً ، ولكنها تلبس أحسن ثيابها ، وتكثر من أكل الحلوى . مستر لورى ملئ بالنشاط كعادته ، وكثيراً ما يقلب البيت رأساً على عقب ، ولكنه يبعث الشجاعة فى قلوب البنات ، ولذلك فإننى أتركه يعمل ما يشاء . أما الرجل العجوز فيغرقنا بالهدايا إلى حد مخرج ، ولكنى لا أعترض لعلمى بصدق

(٩)

رغبته في تدليل البنات ، وسأختم خطابي الآن لأن العجين اختمر ،
وأخشى أن يفسد إذا تأخرت عن خبزه . أقدم لمستر مارش عظيم احترامى ،
وأدعو الله أن لا يصيبه بالتهاب رئوى بعد الآن .

مع أصدق احتراماتى

حنا موليت «

وكتب لورى يقول :

« حضرة رئيسة الممرضات بالعنبر الثانى

« كل شىء هادئ فى الميدان ، والفرق جميعها تعمل فى نظام ، وقلم
المخابرات يقوم بواجبه كاملاً ، والحرس الوطنى تحت قيادة البكباشى
تيدى على استعداد دائم ، والقائد العام اللواء لورنس يستعرض الجيش
كل يوم ، والشاويش حنا يحفظ النظام فى المعسكر ، واليوزباشى ليون
يقوم بالحراسة ليلاً ونهاراً .

«ولقد أطلقنا أربعة وعشرين مدفعاً عندما وصلتنا الأخبار السارة
من واشنطن ، كما قمنا بعمل عرض عسكري بالملابس الرسمية فى دار
القيادة . القائد العام يبعث إليكم بتمنياته القلبية ، كما يشاركه فى
تلك التمنيات

البكباشى تيدى»

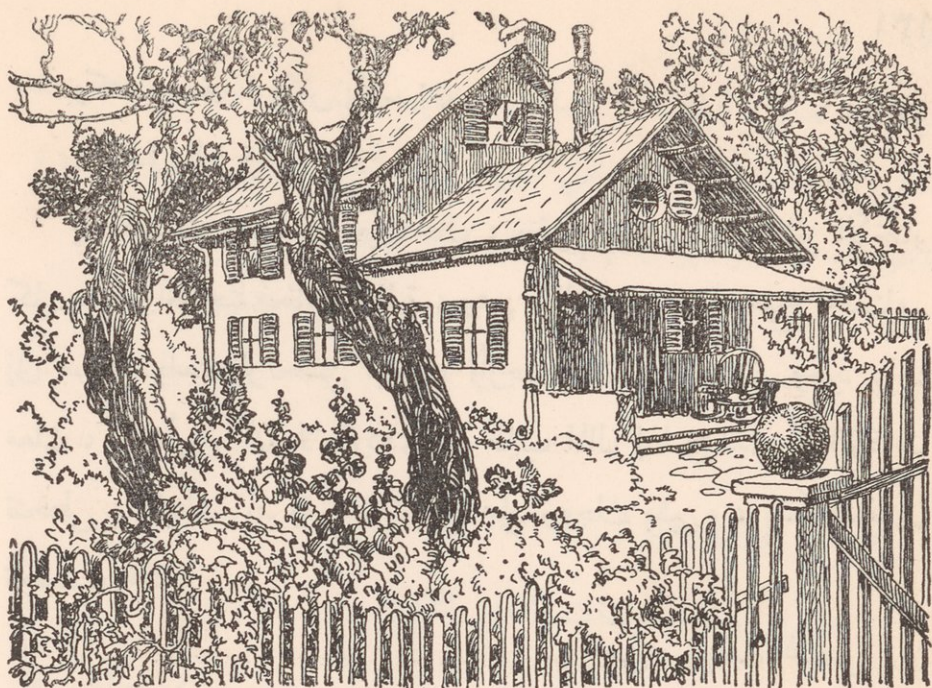
وكتب مستر لورنس يقول :

« سيدتى العزيزة »

إن الفتيات جميعاً فى خير حال ، وتقوم بث وولدى بتلقى الأخبار كل يوم ، أما حنا فخادم مثالية ، وهى كالتنين فى رعاية ميج الحساء .
 إنى سعيد باستمرار تحسن الجو ، وأرجو أن تستفيدى من وجود بروك معك ، كما أرجو أن لا ترددى فى طلب المال إذا وجدت أن النفقات تتخطى ميزانيتك المقررة . لا تبخلى على زوجك بشىء ، وشكراً لله أن تحسنت صحته

من صديقك المخلص

جيمس لورنس»



الفصل السابع عشر

المؤمنة الصغيرة

كانت الفضائل التي انبعثت من البيت القديم خلال الأسبوع الأول ، تكفي الحى كله ، فقد سادت فيه ألوان لا حصر لها من إنكار الذات وصدق الرغبة في التضحية . فلما زال التوتر والقلق ، وهدأت النفوس واطمأنت على صحة الأب ، تراخت جهود البنات في العمل والتضحية ، وعدن شيئاً فشيئاً إلى طباعهن لأولى . حقيقة إنهن لم يتقاعدن عن العمل ، ولكن حماسهن فترت قليلاً ، خصوصاً عقب الجهد الجبار

الذى بذلته فى الأيام الأولى ، واستحققن - فى رأيهن - عطلة قصيرة ، ولكنها كانت عطلات وعطلات متوالية .

وكان أول ما حدث أن أصيبت چو ببرد شديد ، من جراء إهمالها فى تدفئة رأسها ذى الشعر القصير ، فأمرتها عمتها بأن تعتكف فى البيت ، لأنها لا تحب أن يكون صوت من تقرأ لها متحسراً مبحوحاً . وفرحت چو بذلك كل الفرح ، وبقيت فى البيت توزع جهودها بين غرفة السطح والقبو ، حتى نالت كفايتها منهما ، فانزوت على أريكتها تعالج بردها بالدواء والقراءة .

واكتشفت آمى أن الواجبات المنزلية تعطل رسالة الفن الرفيع ، فعادت إلى صلصالها تعمل منه « فطائر الطين » . وكانت ميج تذهب إلى عملها كل يوم ، وفى المساء تعتكف فى البيت على ما تسميه تطريزاً ، ولكنها كانت فى الحقيقة تقضى معظم الوقت فى كتابة الرسائل لأمها أو فى تلاوة رسائل أمها مرة بعد مرة . واستمرت بث فى عملها كالمعتاد تقوم بواجباتها كاملة ، وكذلك تقوم بما يتركه أخواتها من عمل ، فإذا انتظمت شئون البيت ، وأن أوان راحتها ، تضاعف شوقها إلى أمها ، وازداد حزنها لمرض أبيها ، فتتروى فى ركن من البيت ، وتدفن وجهها فى ثنايا ثوبها ، وتطلق لدموعها العنان ، ثم تصلى من أجل والديها العزيزين فى حرارة وإيمان . ولم يكن أحد يعرف كيف يخفف عنها أحزانها ، ولكن جميعهم كانوا يعرفون أن بث حلوة الطبع لا تبخل بالمعونة ، فيهرعون

إليها فيما يعن لهم من أمور .

وفى بداية الأمر كان الفتيات يعلمن أن المحنة التى تمر بهن ، امتحان صادق لأخلاقهن ، فلما هدأت أحزانهن ، واطمأنت قلوبهن ، وشعرن بأن الأدوار التى لعبنها ، كانت عظيمة رائعة تستحق الثناء ، تراخين عن الجهاد ، وتكاسلن فى أداء الواجبات ، وبذلك أخطأن خطأ عظيماً ، لم يكتشفنه إلا بعد درس قاس ، أورثهن الحزن والندم .

قالت بث لأختها ميج ذات مساء ، بعد أن مضت عشرة أيام على سفر مسز مارش :

— ليتك تذهبين لزيارة آل هامل يا ميج ، فقد أوصتنا والدتى بهم خيراً كما تعرفين .

فقالت ميج وهى تطرز وتهز مقعدها المريح :

— ولكنى جد متعبة هذا المساء .

فقالت بث تسأل چو :

— ألا تذهبين أنت يا چو ؟

فقالت :

— إن الجو عاصف ، وأخشى أن تتضاعف إصابتى بالبرد .

قالت بث :

— كنت أظن الجو صحواً .

قالت چو :

— إن الجو صحو للنزهة ، لا لزيارة آل هامل .
وضحكت خجلة من تضارب أقوالها .

فسألت ميج :

— ولم لا تذهبين أنت يا بث ؟

قالت :

— إننى أذهب كل يوم ، ولكن الطفل الصغير مريض ، ولست أعرف ماذا أفعل من أجله ، فمسر هامل تذهب لعملها وتتركه فى رعاية ابنها لوتشون . وأعتقد أن ذهابك أو ذهاب حنا ضرورى ، فحال الطفل يزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

وكانت بث تتكلم فى حرارة وإيمان ، فوعدها ميج بأن تذهب فى اليوم التالى .

وقالت چو :

— اطلبى من حنا أن تعطيك بعض الطعام ، وخذيه إليهم يا بث .

ثم أضافت تعتذر قائلة :

— كنت أود أن أذهب ، ولكنى أريد أن أنتهى من قصتى أولاً .

فقالت بث :

— إنى متعبة جداً أحس بصداع شديد فى رأسى ، ولولا ذلك ما طلبت إلى إحداكن أن تذهب بدلا عنى .

فقالت ميج :

— سوف تحضر آمى حالا ، فترسلها نيابة عنا .

فقال بث :

— إذن أستريح قليلا حتى تعود آمى .

وهكذا استلقت بث على الأريكة ، وعادت كل فتاة إلى عملها ، وراح آل هامل فى عالم النسيان ، ومضت ساعة لم تحضر فيها آمى ، وقامت ميج تجرب ثوباً جديداً فى حجرتها ، وانهمكت چو فى قصتها ، واستسلمت حنا للنوم أمام نيران المدفأة . فلم تجد بث بداً من قطع راحتها ، فقامت عن الأريكة وارتدت قبعتها ومعطفها ، وملأت سلة بالهدايا للأطفال الفقراء ، ثم انسلت خارجة فى الهواء البارد ، وقد ثقل رأسها بالألم ، وارتسم الحزن فى عينيها الصبورتين .

وعادت الصغيرة متأخرة من زيارتها ، فلم ينتبه أحد لعودتها ، ولم يرها أخواتها وهى تتسلل إلى حجرة أمها ثم تغلق الباب خلفها . وبعد نصف ساعة قامت چو تحضر شيئاً من صوان أمها ، فوجدت بث تجلس إلى خزانة الأدوية ، وقد علا وجهها الوجوم ، واحمرت عيناها ، وأمسكت فى يدها بقينة محلول الكافور .

وصاحت بث متعجبة ، وسألها عما بها ، فمدت بث يدها مخدرة إياها أن تقترب منها ، ثم سألتها بسرعة :

— هل سبق أن مرضت بالحمى القرمزية ؟

قالت :

— نعم منذ سنوات عندما مرضت بها ميج ، ولكن لماذا تسألين ؟
قالت :

— لأن الطفل قد مات !

— أى طفل ؟

قالت بث وهى تبكى وتنوح :

— طفل مسر هامل ، لقد مات وهو فى حجرى قبل أن تصل أمه
إلى البيت .

قالت چو فى صوت حزين :

— مسكينة يا عزيزتى ، لا بد أنه كان أمراً فظيلاً ! كان يجب أن
أذهب بدلا عنك .

ثم أخذت أختها وأجلستها على حجرها ، وجلست على مقعد أمها
الكبير تواسيها .

قالت بث :

— لم يكن الأمر فظيلاً مثلما كان محزناً ، فقد لاحظت عند ذهابى
أن حالته ساءت فجأة ، وقال لوتشون بأن أمه ذهبت تستدعى الطبيب ،
فأخذت الطفل فى حجرى لأريح لوتشون قليلا . وبدا على الصغير أنه
نائم ، وفجأة صرخ صرخة خافتة وانتفض ثم سكنت حركته بعد ذلك .
وقد حاولت أن أدفئ قدميه ، وحاول لوتى أن يعطيه قليلا من اللبن ،
ولكن الرضيع لم يتحرك ، فأدركت أنه مات .

فقلت چو تهدي أختها :

— لا تبكى يا عزيزتى ! ماذا فعلت بعد ذلك ؟

قلت :

— ظلت ممسكة بالطفل فى رقة حتى عادت مسر هامل بصحبة الطبيب . وقال الطبيب بأنه مات ، ثم فحص الأطفال الآخرين ، فوجدهم جميعاً مرضى بالحمى القرمزية ، ولذلك أنها لتوانىها فى استدعائه قبل ذلك . وحدثته مسر هامل بفقرها ، وكيف حاولت علاج الصغير بنفسها ، ثم طلبت إليه أن يعنى بالأولاد الآخرين ما دام أمر الرضيع قد انتهى ، وليجزه الله خيراً على إحسانه . فابتسم الطبيب ورق قلبه ، فكان موقفاً محزناً جعلنى أبكى مع الآخرين . وفجأة التفت الطبيب إلى وأمرنى بأن أعود حالا إلى البيت ، وبأن أتناول دواء البلادونا ، وإلا أصابنى المرض .

فارتسم الهلع فى عيني چو ، وضمت الفتاة إلى صدرها وهى تقول :

— لا . لن يحدث هذا ، ولن أصفح عن نفسى أبداً إذا مرضت يا بث ! يا إلهى ! ماذا نفعل الآن ؟

قالت بث :

— لا تجزعى ، فلن يكون مرضى شديداً . لقد قرأت فى كتاب لأمى ، وعرفت أن المرض يبدأ بصداع فى الرأس والتهاب فى الحلق ، وشعور بالضعف ، وهذا ما أعانيه الآن ، ولذلك تناولت قدرًا من

البلاذونا تحسنت بعده قليلا .

ثم وضعت الصغيرة يدها الباردة على جبينها الملتهب ، وهى تحاول أن تبدو فى حالة طيبة .

فقالت چو ، وهى تشعر بأن بينها وبين واشنجتون بعد السماء عن الأرض :

— ليت أمى كانت هنا الآن !

ثم أمسكت بالكتاب ، وقرأت صفحة منه ، ثم تحسنت حرارة جبين أختها ، ونظرت فى حلقها ، وقالت فى وجوم :

— لقد خالطت الطفل المريض أكثر من أسبوع ، كما خالطت إخوته الآخرين ، وقد بدأت العوارض تظهر عليهم ، وأخشى أن العدوى أصابتك بالفعل . إن حنا تعرف كل شىء عن الأمراض ، فدعيني أستشيرها .

فصاحت بث فى لهفة :

— بالله لا تسمحي لآمى بالدخول ، فهى لم تمرض بالحمى القرمزية من قبل ، وأكره أن تنتقل العدوى منى لها . ثم ألا يجوز أن تمرضى بها أنت وميج مرة ثانية ؟

فتمتت چو ، وهى تذهب إلى حنا تستشيرها :

— لا أعتقد ذلك ولا يهمنى أن أمرض ثانية ، فأنا حيوان أنانى أستحق كل شىء ، فقد قنعت بكتابة السخافات ، وترككتك تذهبين

إلى بيت المرضى .

واستيقظت حنا الطيبة بسرعة ، وأمسكت بقياد الموقف ، مؤكدة أن لا داعى للخوف والقلق ، فالقرمزية مرض شائع فى الصغار ، ولا خطر منه مع العلاج الصحيح ، ولا يموت منها أحد معه . وأحست چو ببعض الراحة ، لثقتها فى كل ما تقوله حنا ، ثم ذهبت الاثنتان تستدعيان ميج .

وفحصت حنا بث وسألتها بعض أسئلة ثم قالت :

— والآن سأخبركن بما يجب أن نعمل ؛ فأولا نستدعى الدكتور بانجز ليفحصها ، ويوجهنا فى علاجها التوجيه الصحيح ، وثانياً نبعد آمى عن العدوى بإرسالها إلى بيت العمة مارش بعيداً عن المريضة ، ولتبقى واحدة منكما مع بث يوماً أو يومين .

وشعرت ميج بمسئوليتها فيما حدث ، فقالت فى لهفة :

— سابقى أنا بالطبع ، لأنى أكبرهن سناً .

فقالت چو فى تصميم :

— بل أبقى أنا ، فإلخطأً خطأى ، وعلى تقع المسؤولية فيما حدث .
لقد وعدت أمى بأن أزور آل هامل ، ولكنى لم أف بوعدى .

فقالت حنا تسأل :

— لا داعى لوجود الاثنتين ، فمن منهما تفضلين يا بث ؟

فأسندت بث رأسها إلى كتف چو ، وفى عينيها نظرة الرضا ، وقالت :

— لتبقى چو إن سمحت .

وكان في قولها فصل الخطاب ، فقالت ميج وقد ساءها اختيار أختها ، رغم بغضها للتمريض :
— سوف أذهب وأخبر أمي بالأمر .

ورفضت أمي كلية أن تذهب إلى العمة مارش ، وقالت إنها تفضل أن تمرض بالحمى ألف مرة على أن تذهب إليها . وحاولت ميج أن تقنعها ثم استعطفها ، ثم أمرتها بالذهاب بلا جدوى . وأصرت أمي على البقاء ، ويئست ميج ، وذهبت تسأل حنا كيف تعالج الموقف . وجاء لورى قبل أن تعود ميج ، فوجد أمي تنشج بالبكاء ، وقد دفنت رأسها في حشيات الأريكة . وقصت عليه أمي قصتها ، وقد ظنت أنه سينتصر لها ، ولكن الفتى وضع يديه في جيوبه ، وجعل يسير جيئة وذهاباً ، وهو يصفر في صوت خافت ، وقد عقد حاجبيه في تفكير عميق ، ولم يلبث أن جلس إلى جوارها وقال في صوت رقيق النغمات :
— كوني امرأة عاقلة ، وأطيعي أوامرهن . لا ، لا تبكي واستمعي إلى البرنامج اللطيف الذي أقترحه : سندهين إلى العمة مارش ، وسوف آتي لأخذك كل يوم للتنزه في العربة ، أو سيراً على الأقدام ، فنستمتع بوقتنا كل الاستمتاع . أفلا ترين أن الذهاب خير من البكاء هنا ؟

فقالت أمي في صوت جريح :

— لا أريد أن أبعد عن البيت ، كما أنهم يعاملننى كما لو كنت
عقبة أقف فى طريقهن .

قال :

— يا لطيفة قلبك يا طفلى ، إن أخواتك يحرصن على صالحك ،
ويخفن أن تصيبك العدوى ، فهل تريدن أن تمرضى ؟

قالت :

— لا طبعاً ، ولكنى كنت مع بث طوال هذا الأسبوع ، وأغلب
الظن أنى التقطت المرض منها .

قال :

— وهذا أدعى لذهابك ، فتغيير الهواء يساعدك على الشفاء سريعاً ،
أو يخفف وطأته على أقل تقدير . نصيحتى لك أن تغادرى هذا البيت
بأسرع ما يمكن ، فالحمى القرمزية ليست مرضاً يستهان به يا آنسة .

فقالت آى وقد بدا عليها الخوف :

— إن عمى سليطة اللسان ، وبيتها قابض بغيض .

قال :

— لن يكون البيت قابضاً ، إذا حضرت كل يوم لأصحبك إلى
نزهة طيبة ، وأطمئنك على أحوال بث . زيدى على ذلك أن السيدة
العجوز تحبنى ، وسوف أبذل منتهى جهودى فى استمالتها ، حتى لا تغضب
منا أو تنهرنا مهما أتينا من أفعال .

قالت :

— أتأخذنى فى العربة الصغيرة التى يجرها المهر ؟

قال :

— أعدك بذلك وعد رجل شريف .

قالت :

— وستحضر كل يوم بلا استثناء ؟

قال :

— سوف ترين بنفسك .

قالت :

— وتعيدنى إلى البيت حالما تشفى بث ؟

قال :

— بعد ثمانية واحدة من شفائها .

قالت :

— وهل تصحبنى إلى المسرح أحياناً ؟

قال :

— بل أصحبك إلى عشرين مسرحاً إذا أردت .

قالت متمهلة :

— حسناً . . بهذه الشروط لا أمانع فى الذهاب .

قال ، وهو يربت على ظهرها راضياً ، مما أغضبها كثيراً ، وجعلها

تشعر كأنها طفلة صغيرة :

— أنت بنت طيبة ، اذهبي إلى ميج وأخبريها بعزمك على الذهاب .
وهبطت ميج وحو جرياً لتريا المعجزة التي تحققت ، فقد وعدت
أمي أن تذهب ، إذا ما قرر الطبيب أن بث مريضة بالحمى حقا .
وقال لورى :

— كيف حال الصغيرة العزيزة ؟

وكان لورى يعزّ بث ويدللها ، ولذلك كان يخالج صوته قلق
شديد ، أوضح مما كان يجب أن يكشف عنه .
أجابت ميج :

— إنها ترقد في سرير والدتي ، وهي تحس ببعض الراحة الآن . لقد
أزعجها موت الطفل ، وأعتقد أنها لا تعاني غير آلام البرد ، وهكذا تقول
حنا أيضاً ، وإن كان قلقها الشديد يخيفني .

وقالت چو ، وهي تعبت في شعرها القصير بقلق واضح :
— ما أقسى هذه الدنيا ، فما إن نخرج من همّ حتى يحل بنا همّ
آخر . إني حائرة ، ويبدو أن غياب والدتي أفقدنا كل سند نركن إليه .
فقال لورى ، الذي لم يتعود بعدُ منظرَ صديقه بعد أن جزت
شعرها :

— لا تثيري شعرك هكذا كالقنفذ ، سويه وأسدليه ، حتى لا تفسدى
شكلك ، ثم أخبريني هل أرسل برقية إلى والدتك ، أم ماذا أصنع ؟

فقلت ميج :

— هذا ما يقلقنى ويحيرنى ، وأظن أنه من الصواب أن نخطرها بمرض بث ، ولكن حنا لا توافق ، وتعتقد أن والدى ما زال فى حاجة إلى أمى معه ، وربما أزعجه الخبر وأقلقه . لن يطول المرض ببث ، وحنا نعرف كل ما يجب أن يعمل ، وقد نصحتنا أمى بأن نطيعها ، وعلينا أن نعمل بالنصيحة ، وإن كنت لا أراها صائبة .

قال لورى :

— حسناً ، ورأى أن ننتظر كلمة الطبيب ، ثم نستشير جدى فى الأمر .

فقلت ميج فى لهجة أمرة :

— اذهبي يا چو ، وأحضري الدكتور بانجز ، فلن يتقرر شىء قبل زيارته ، وسنستشير مستر لورنس بعد ذلك .

فقال لورى وهو يهم بالانصراف :

— ابقى حيث أنت يا چو ، فهمتى فى هذا المكان أن أقوم بمثل هذه المهمات .

قلت ميج :

— أخشى أن تكون مشغولاً .

قال :

— لا ، فقد انتهيت من دروس اليوم .

قالت :

— أو تدرس أيضاً في أثناء العطلة ؟

قال وهو يستدير خارجاً من الحجرة :

— إنى أتخذ من جيرانى مثلاً أحذيه .

فابتسمت چو وهى تراه يقفز فوق السياج ، فى طريقه إلى استدعاء

الطبيب ، ثم قالت :

— إنى أعقد على هذا الصبى آمالاً كباراً .

فقالت ميج فى لهجة خشنة ، كأن الأمر لا يهمها فى كثير أو

قليل :

— إنه يتقدم فى حدود سنه .

وجاء الدكتور بانجز ، وقرر بأن الأعراض التى تشكو منها بث هى أعراض الحمى القرمزية ، ولكنه يعتقد بأن وطأة المرض لن تكون شديدة عليها ، كما أسف على ما أصاب آل هامل . وفى الحال صدرت الأوامر إلى آمى بمغادرة البيت ، بعد إعطائها بعض الدواء لحمايتها من خطر الداء ، فخرجت مع لورى وچو ، وهى فى حالة سيئة .

ولقيتهم العمة مارش بكرمها المعهود ، ونظرت إليهم من فوق نظارتها فى حدة ، وصاح البغاء من وراء مقاعدهم يقول : اخرج من هنا ، غير مسموح للصبيان بالدخول .

وسألت العمة قائلة :

— والآن ماذا تريدون ؟

فجعلت چو تسرد قصتها في حين ابتعد لورى إلى جوار النافذة ،
فقالت العمة :

— هذا ما كنت أتوقعه دائماً من حشر أنوفكن في الأوساط الفقيرة .
تستطيع آمى أن تبقى ما دامت صحيحة معافاة ، وإن كنت أشك في ذلك ،
لأنها تبدو بالفعل مريضة علية . لا تبكى يا طفلى ، فإنى لا أطيق أن
يتمخط الناس في حضرتى .

وكانت آمى على وشك البكاء ، ولكن لورى أنقذها في الوقت المناسب
إذ جذب ذيل البيغاء ، فصاح الطير يقول ، وقد أدهشته المفاجأة :

— آه يا ذيلي !

وبدل أن تبكى آمى ، انفجرت ضاحكة ، وقالت السيدة في صوت
خشن :

— ما هي آخر الأخبار عن أمك ؟

أجابت چو في صوت تحاول أن تكسبه رنة حزن :

— إن والدى قد تحسن كثيراً .

أجابت العمة بتشائؤمها المعهود :

— أحقاً ؟ لا أظن التحسن يستمر طويلا ، فأبوك رجل ضعيف ،

لا قدرة له على المقاومة .

وصاح البيغاء ، عندما جعل لورى يدغدغه في أذنه ، وراح يتراقص

على حامله ، ويمد مخالبه نحو قبعة السيدة العجوز :

— ها . . ها . . لا تياس وخذ تنشيقه من هذا السعوط . . إلى اللقاء . . إلى اللقاء .

فصاحت العجوز تنهره قائلة :

— أمسك لسانك أيها الطائر الوقح ! وأنت يا چو ، خير لك أن تعودى إلى البيت فوراً ، فليس من اللائق أن تتسكع بالليل مع صبي أنيق مثل . . .

وصاح الببغاء يقاطعها :

— أمسك لسانك أيها الطائر الوقح !

وهبط الطير عن حامله إلى المقعد ، وراح يجرى وراء الصبي الأنيق ، الذى سره حديث الطير الأخير ، فجعل بدنه يهتز لفرط الضحك .

وما إن انفردت آى بالعمة مارش حتى قالت فى نفسها :

— لا أظنى قادرة على احتمالها ، ولكنى سأحاول .

وصرخ الببغاء قائلاً بصوت وقح :

— هيا اذهبي ، إنك مزعجة ثقيلة !

وعندئذ انهمرت الدموع من عيني الفتاة ، ولم تقو على كبت

بكائها .



الفصل الثامن عشر

أيام سود

اشتدت وطأة الحمى على بث بشكل لم يكن يتوقعه أحد سوى حنا والطبيب ، فقد كان البنات يجهلن كل شيء عن المرض . وبذل الدكتور بانجر كل جهده في علاجها ، وقامت حنا تنفذ أوامره بمنتهى الدقة ، وبذلك أثبتت أنها ممرضة من الطراز الأول . وبقيت مبيج في البيت ولم تذهب إلى عملها عند آل كنج خشية أن تحمل العدوى إليهم ، وكان القلق يملكها كما كان يملكها شعور بأنها تذنّب في حق أمها ، عندما تكتب إليها

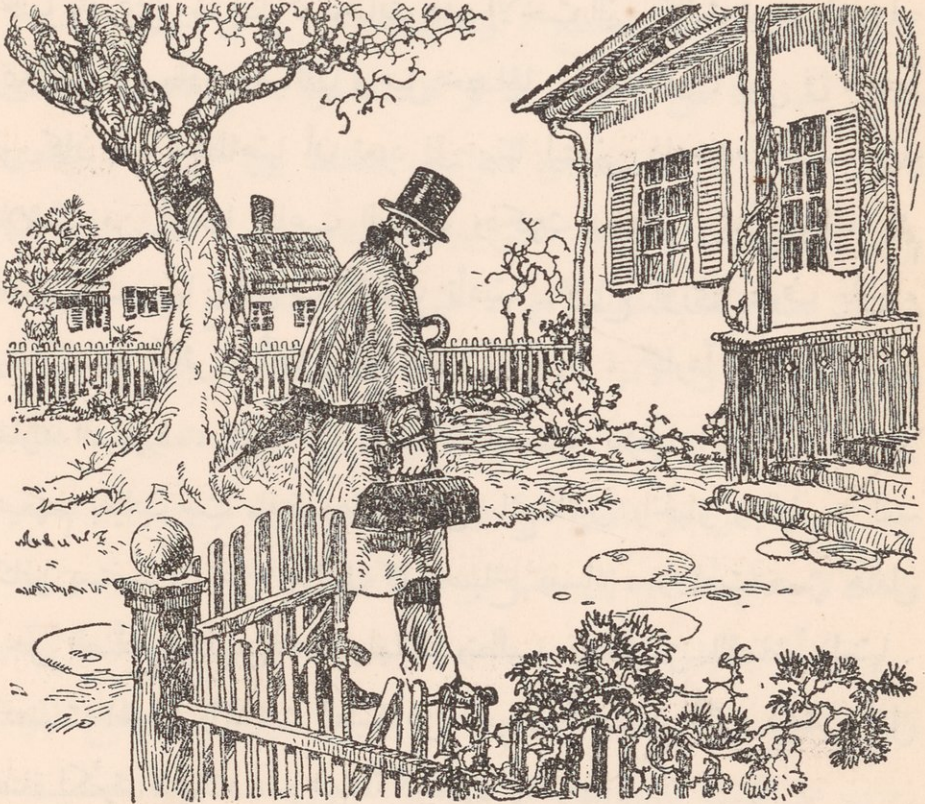
الرسائل ولا تذكر فيها شيئاً عن مرض بث ، وكان هذا التصرف في رأيها خطأ جسيماً ، ولكن حنا أمرت بالصمت ، ولم ترض أبداً أن تزعج مسز مارش ويضاف جديد إلى همومها الكثيرة من أجل مرض تافه كهذا . وكurst چو نفسها لخدمة بث ليل نهار ، ولم يكن في ذلك عناء يذكر ، إذ كانت بث صبورة بطبعها ، تتحمل آلامها صامته بقدر إمكانها .

ولكن المرض اشتد ، وصارت الفتاة ، إذا ما انتابتها الحمى القوية ، تهذى في صوت أجش متقطع ، وتحاول الغناء من حلق متورم ملتهب ، وتحرك أصابعها على الأغطية كما لو كانت معزفاً ، ثم جاء الوقت الذي لم تعد تميز أو تعرف فيه وجوه أخواتها ، فتخلط بين أسمائهن ، وتنادى راجية أن تعود أمها . واستبد القلق بچو لذلك ، وجعلت تتوسل إلى أختها ميج أن تصرح لها بالكتابة لأمها ، حتى بدأت حنا تقتنع بوجهة نظرها ، واعدة بالتفكير في الأمر ، رغم أن حالة بث لم تكن في رأيها قد وصلت إلى مرحلة الخطورة بعد . وساءت الأمور وزاد الموقف تعقيداً ، عندما وصلت رسالة من مسز مارش تقول فيها إن المرض اشتد بزوجها بعد تحسن ولذلك لا ينتظر أن تعود إلى بناتها قبل وقت طويل .

وما أشدما بدت الأيام سوداً حالكة ، وبدا البيت موحشاً حزيناً ، وثقلت قلوب الأخوات بالهموم وهن يعملن ويترقبن ، وشبح الموت يرفرف على البيت الذي ملأته السعادة دائماً . وفي هذا الوقت العصيب ،

جلست مارجريت تبكى وحيدة ، فتساقط دموعها على قطعة النسيج التى تطرزها ، فلقد بدأت ، لأول مرة ، تقدر قيمة السعادة التى كانت تظل الأسرة فيما مضى ، وعرفت أنها كانت تستمتع بالحب والأمن والسلام والصحة ، وكلها تمثل النعم الحقيقية فى الحياة . وكان هذا الوعى لحو بدورها ، عندما كانت تقبع فى الحجرة المعتمة أمام أختها الصغيرة المعذبة ، وتصغى إلى صوتها الضعيف الحزين ، فقد أدركت مدى جمال أخلاق بث وحلاوة شخصيتها ، وأحست بمكانتها التى تملأ القلوب كلها ، وتمثل لها عظم تضحيات هذه الأخت التى كانت تعيش لغيرها ، وتملأ البيت سعادة بفضائلها وجميل خصالها . وتمنت آمى ، وهى فى منفاهها لو كان فى استطاعتها أن تعود إلى بيتها ليتسنى لها خدمة بث ، وقد تلاشت من أمامها متاعب العمل ، وذكرى ، والأسى يملأ قلبها ، كم قامت بث عنها بواجبات أهملت تأديتها . وراح لورى يطوف بأرجاء بيته كشبح حائر ، أقفل جده المعزف الكبير ، كارهاً كل ما يذكره بجارته الصغيرة ، التى طالما أسعدت أمسياته بعزفها الجميل . وأحس جميعهم بغياب بث وافتقدوها ، حتى بائع اللبن والحبار والجزار . لقد كانوا يستفسرون عن حالتها كل صباح ومساء ، وجاءت مسر هامل ترجو الصفح عما سببته بجهلها ، وتطلب قطعة من القماش لبنتها . وانصبت الهدايا والتمنيات الطيبة من الجيران كلهم ، حتى دهش أهل الفتاة لكثرة أصدقاء هذه الطفلة الخجول ومعارفها .

وكانت بث طيلة أيام مرضها ترقد وقد احتضنت دميها القديمة ،
ولم تكفّ حتى في أثناء هذيانها عن ذكر عرائسها الغيزات . وكانت
تتحرق شوقاً إلى قطيقاتها ، ولكنها لم تسمح بإدخالها عندها خشية أن
يصيبها المرض . وإذا ما غادرتها الحمى قليلاً ، راحت تسأل عن چو
وترسل تحياتها وأشواقها إلى آحى ، وتطلب من أخواتها أن يخبرن أمها بأنها
بجير وسوف تكتب إليها في القريب العاجل . وكثيراً ما كانت تطلب



قلما وورقاً تحاول أن تخط كلمة لوالدتها حتى لا يظن أبوها أنها قد أهملت شأنه . ولكن ساعات الصحو كانت تنتهى سريعاً ، وتعود بعدها الحمى شديدة قوية ، فتقلب المسكينة فى فراشها يمناً وشمالاً ، وتهذى بكلمات مبهمه ، أو تروح فى سبات عميق لمدة ساعات ، دون أن تفيد من النوم شيئاً من الراحة .

وكان دكتور بانجز يعودها مرتين فى اليوم ، وتناوبت حنا وچو الجلوس إلى جانبها ، فكانت الخادم تلازمها طوال الليل ، وچو تخدمها طوال النهار ، كما أعدت ميج برقية لأمرها لترسلها لها أية لحظة . وجاء أول يوم من شهر ديسمبر ، وكان يوماً عبوساً قمطيراً ؛ ريح تصفر وتلوج تهطل ، وبدا كأن العام يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وجاء الطبيب كعادته صباحاً ، ونظر طويلاً إلى بث ، وأمسك بيدها الساخنة بين يديه لحظة ، ثم تركها فى رفق ، وقال فى صوت خافت مخاطباً حنا :

— إذا كان من المستطاع أن تترك مسر مارش زوجها ، فمن الخير إخطارها بمرض الفتاة الآن .

فأومأت حنا برأسها ولم تنبس بكلمة ، وقد التوت شفتها فى اضطراب ، وتهالكت ميج فى المقعد وقد تخاذلت ساقاها عند سماع تلك الكلمات . أما چو فقد ابيض وجهها ، وتسمرت لحظة فى مكانها ، ثم خرجت إلى البهو تجرى ، واختطففت البرقية المعدة ، وارتدت معطفها ، ثم هرعت إلى الشارع غير عابئة بعواصف الجو الصاخبة . وسرعان ما عادت ،

وراحت تخلع معطفها في هدوء ، وعندئذ دخل لوري يحمل رسالة ، ويقول بأن مستر مارش بسبيله إلى الشفاء . وقرأت چو الرسالة شاكرة ، ولكن الحمل الذي أثقل قلبها لم تخف وطأته بهذا الخبر ، ولم تبارح وجهها مسحة التعاسة التي تعلوه ، فقال لوري بسرعة :

— ماذا جرى ؟ هل ساءت حال بث ؟

قالت في لهجة آسية ، وهي تخلع حذاءها المطاط :

— لقد أرسلت برقية إلى أمي .

قال وهو يجلسها على مقعد في البهو ويساعدها في خلع حذاءها لارتجاف يديها :

— حسناً فعلت يا چو ! ولكن هل أرسلتها من تلقاء نفسك ؟

قالت :

— لا ، بل بناء على رأى الطبيب .

قال وقد كسا الخوف وجهه :

— أتظنين أن حالتها خطيرة إلى هذا الحد يا چو ؟

قالت :

— حالتها بالفعل خطيرة . إنها لا تعرفنا الآن ، وحتى هذيانها انتهى :

ولم أعد أرى فيها بث التي أعرفها . إن أبي وأمى بعيدان ، وليس معنا من يعيننا على محتنا ، وحتى الله يبدو بعيداً بحيث لا أستطيع أن أصل إليه بدعواتي .

وانهمرت الدموع من عينيها تجرى على خديها ، ومدت يدها في حركة يائسة حائرة ، كأنها تبحث عن شيء في الظلام . وأمسك لوري بتلك اليد وهمس في لهجة هادئة ، وقد أحس بغصة في حلقه :

— إنني هنا ، فاعتمدى على يا عزيزتى چو !

ولم تقل چو شيئاً ، ولكنها اعتمدت على يده العامرة بحرارة الصدق والإخلاص ، فأحست براحة تتسلل إلى قلبها ، كما شعرت بأن يد الله أيضاً تقترب من يدها فتعينها في شدتها . وأراد الفتى أن يقول مزيداً يبعث الراحة والرجاء ، ولكن الكلمات استعصت عليه فوقف ساكناً يربت بحنان على الرأس المطرق ، كما كانت أمها تربت عليه تماماً . وكان هذا العطف الصامت أشد فعلاً في نفسها من الكلمات البليغة ، فأحست چو بالثناء الصامت لحالها ، وعرفت مدى ما يبعثه حنان الأصدقاء من راحة غامرة للنفس . وسرعان ما جففت الدموع التي فرجت عن آلام نفسها ، ورفعت إلى الفتى وجهاً مفعماً بالشكر ، وقالت :

— شكراً لك يا تيدى ، إننى أحسن حالا الآن ، وقد زایلنى اليأس والأسى ، وسأحاول أن أحتمل إرادة الله وحكمه .

قال :

— تعلقى بالأمل دائماً وتفاعلى ، فهذا خير معين لك يا چو . ستحضر

أملك عن قريب ، وتعود المياه إلى مجاريها .

قالت وهى تنشر منديلها على ركبتيها ليجف :

— إني مسرورة أن تحسنت صحة أبي ، حتى تعود إلينا أمي مطمئنة عليه . آه يا صديقي ! إن الهموم إذا حلت تأتي أفواجا ، وإني لأحمل العبء الأكبر منها على كتفي .
قال محتجاً :

— ألا تحمل ميج معك الأعباء نفسها ؟
قالت :

— طبعاً ، إنها تحاول ذلك ، ولكنها لا تحب بث بقدر ما أحبها ، ولن تفتقدها مثلي . إن بث كروحي ولا يمكنني أن أعيش بدونها ، لا يمكنني أبداً ! !

ودفنت چو وجهها مرة ثانية في منديلها ، وراحت تبكي في يأس وقنوط ، فقد احتفظت بسيطرتها على نفسها حتى هذه اللحظة ، ولم تذرف دمعة واحدة قبل ذلك . ورفع لوري يده يغطي عينيه ولم ينطق بكلمة حتى سيطر على الدموع التي ملأت عينيه ، وابتلع الغصة التي وقفت في حلقه ، وأعاد الهدوء إلى شفثيه المرتجفتين . نعم ، قد لا يكون البكاء من شيم الرجال ، ولكنه لم يتمالك نفسه على أي حال . ورويداً رويداً هدأت چو وخف نحيبها ، فقال في لهجة مفعمة بالأمل :

— لا أعتقد أن الله سيأخذها منا ، إنها فتاة طيبة ، ونحن جميعاً نحبها كل الحب .

قالت وهي تنن حزناً :

— إن الله يختار إلى جواره الطيبين دائماً.

ولكن كلمة صديقها بعثت أملاً جديداً في قلبها ، فكفت عن البكاء ،
رغم ما ساور قلبها من شك وخوف .

قال :

— مسكينة يا صديقتي ، لقد أنهكتك الحزن ، فخلي عنك قليلاً ،
وكوني كما عهدتك شجاعة ، وسوف أعينك على الاحتمال بجرعة
منعشة .

وهرع يصعد السلم قفزاً ، وأسندت چو رأسها إلى عباءة بث البنية
التي تركتها في آخر مرة لها ، ولم يفكر أحد في رفعها من مكانها فوق
المنضدة . وكأنما كان في لمس تلك العباءة سحر ، وكأنما بعث روح
صاحبها الطيبة في چو إحساساً بالخضوع والرضا ، فما إن هبط لورى
يحمل كأساً من النبيذ ، حتى تناولته باسمه وقالت في شجاعة :
— لأشرب نخب صحة بث العزيزة . إنك طبيب ماهر يا تيدى ،
وصديق صدوق .

وأنعشها الشراب قليلاً ، كما أنعشتها كلمات صديقها ، وأراحت
بالها . قالت :

— كيف أرد لك الحميل ؟

قال لورى وقد أشرق وجهه غبطة بأمر يفكر فيه ويكتمه في نفسه :
— سوف أرسل لك « فاتورة » الحساب بعد قليل . وسوف أقدم

لك هذا المساء شيئاً يبعث في قلبك حرارة أكثر من هذا الشراب .

قالت چو ، وقد نسيت أحزانها في عجبها لقوله :

— ما هو ؟

قال :

— لقد أبرقت إلى والدتك أمس ، وتسلمت رداً من بروك بعودتها

فوراً ، وستصل هذه الليلة فتهتجن الأُمور . ألا يسرك هذا النبأ ؟

وكان الفتى يتكلم في سرعة شديدة ، وقد احمر وجهه انفعالا ،

لأنه أخفى الأمر سرّاً ، خشية أن يخيب أمل البنات لسبب من الأسباب ،

أو أن تسوء حالة بث . وابتض وجه چو ، ثم قفزت واقفة من مقعدها ،

فما إن انتهى من حديثه ، حتى طوقت عنقه بذراعيها وصاحت في

فرح :

— آه يا لورى ! أمى ستحضر ؟ ! إني سعيدة إلى أبعد حد !

ولم تبك بعد ذلك ، بل راحت تضحك ضحكة هستيرية وهي

ترتجف ، وتتشبث بصديقها كأنما هذا الخبر قد سلبها قوتها . ورغم دهشة

لورى ، فقد تصرف تصرفاً حميداً ، فراح يربت على ظهرها ، فلما رآها

تهداً قليلاً طبع على جبينها قبلة في خجل ، وعندئذ تنبّهت چو فأبعدته

عنها ، واستندت إلى حاجز السلم ، وقالت :

— لا .. لا .. لم أقصد .. لقد كنت في حالة سيئة من الحزن ،

فلما سمعت بما فعلت على الرغم من أوامر حنا ، لم أملك إلا أن أعانقك .

قل لى بالله كل شىء ولا تعطنى مزيداً من هذا الشراب الذى جعلنى أفقد توازنى ووقارى .

قال الفتى وهو يضحك ويصلح رباط رقبتة :

— إنى لا أمانع فيما فعلت ! المسألة وما فيها أن القلق زاد بى ويجدى وخيل إلينا أن حنا تبالغ فى استعمال حقها ، ورأينا من واجبنا أن نحيط أملك علماً بالأمر ، حتى لا تلومنا إذا أصاب بث مكروه . وعندما رأيت الوجوم على وجه الطبيب أمس ، ولمست من غضب حنا ، لما طلبت منها أن تناديك ، أقنعت جدى بأن الوقت قد حان لأخطار أملك بالأمر ، وتسليت إلى مكتب البرق وأرسلت البرقية . وستحضر أملك فى قطار الساعة الثانية صباحاً ، حيث أستقبلها بنفسى ، وما عليك الآن سوى أن تلقى همومك جانباً ، وتحافظى على هدوء بث ، حتى تصل السيدة الطيبة إلى بيتها .

قالت چو :

— إنك ملك كريم يا لورى ، ولست أدرى كيف أوفيك حقك من الشكر . .

قال لورى ، وقد تجلت فى عينيه نظرة مأكرة ، لم ترها چو منذ أسابيع :

— أفضل أن تعانقنى مرة ثانية ...

قالت :

— لا . . شكراً . . أفضل أن أعانق جدك بالنيابة عنك عندما

يحضر ، فكف عن إغاضتي ، وعد إلى بيتك لتستريح ، فأمامك سهر
طويل إلى ما بعد منتصف الليل . بارك الله فيك يا تيدى ! بارك الله
فيك !

وخرج الفتى وهو يشعر أنه أتى أمراً عظيماً حقاً ، وتقهقرت چو إلى
جانب الحائط ، ثم انسلت إلى المطبخ ، وجعلت تحدث القطيطات
بسعادتها البالغة . وعندما علمت حنا بالأخبار الطيبة ، قالت وقد انزاح
عن قلبها حمل ثقيل :

— لم أر إنساناً يتدخل في شئون الناس مثل هذا الفتى ، ولكنى أصفح
عنه على كل حال ، وآمل أن تكون مسر مارش في طريقها إلينا الآن .
واغتبطت ميج بالخبر ، وامتلاً قلبها براحة الهدوء ، وجعلت تفكر
في الخطاب الذى تكتبه ، وعكفت چو على غرفة المريضة ترتبها وتنظفها ،
أما حنا فقد اتخذت احتياطاتها ، وأعدت فطيرتين لمن قد يحضر مع السيدة .
وبدا كأن نسمة من الهواء النقي قد سرت في البيت ، وأن ضوءاً يفوق
أشعة الشمس بهاء قد غمر الغرف الساكنة ، وأن كل ما في البيت
اكتسى بالأمل والتفاؤل ، فغرد عصفور بث مرة ثانية ، وتفتحت وردة
بين شجيرات آمى في النافذة ، وأضاءت نيران الموقد المكان بضوء مرح ،
وتعانقت الأختان الكبيرتان ، وكل منهما تقول للأخرى هامة :

— إن والدتى قادمة يا عزيزتى ، إنها قادمة !
وشمل الحبور أفراد الأسرة عدا بث ، فقد رقدت في فراشها غائبة

عن وعيها ، غير شاعرة بالأمل والسرور ، أو بالشك والخطر . . وكان منظرها يستدر الشفقة ، فهذا الوجه الذى كان مورداً صبوراً ، صار نحيلاً شاحباً ، وباتت الأيدي التى لم تكف عن العمل ترقد ضعيفة خائرة ، وهذه الشفاه الضاحكة أصبحت باهتة صامتة ، وهذا الشعر المرتب الجميل انتثر على الوسادة فى خشونة وفوضى . وانقضى اليوم والفتاة ترقد هكذا ، لا تفيق إلا لحظة قصيرة تتمم فيها بشفتيها الباهتتين كلمة ماء ، وتنطقها بصوت خافت لا تكاد تبينه الأذن ، وطول اليوم كانت چو وميج تهيمان فى أرجاء البيت ، ترقبان وتنتظران وتأملان خيراً فى رعاية الله وعناية الأم . وظلت الريح تصفر خارج البيت طول اليوم ، والثلج يتساقط من السماء على مضى ساعات النهار البطيئة المتوانية . وأخيراً هبط الظلام على الدنيا ، والأختان تجلسان على جانبي سرير المريضة ، وكلما دقت الساعة دقائقها ، التفتت الواحدة منهما إلى الأخرى بعين تلتهم راحة لقرب الفرج ، فلقد جاء الطبيب وقرر أن منتصف الليل سيكون لحظة حاسمة فى سير المرض ، عنده يتقرر مصير الصغيرة العليلة .

وكان التعب قد أعيا حنا ، فاستلقت على الأريكة بجوار السرير ، وسرعان ما غلبها النوم ، وجعل مستر لورنس العجوز يسير فى الردهة جيئةً وذهاباً ، وهو يحس بأنه أقدر على مواجهة فرقة من العصاة من أن يواجه القلق المرتسم على وجه مسز مارش عند حضورها . وقرن لورى

على البساط متظاهراً بأنه يستريح ، ولكنه كان يحملق فى نيران المدفأة بنظرة ساهمة زادت سواد عينيه حلكة وصفاء .

وكانت ليلة ليلاء فى حياة چو وميج ، اختلطت اللففة فيها بالانتظار ، وتعانقت الحيرة بالقلق .

همست ميج فى حرارة :

— إذا عفا الله عن بـث وشفأها ، فلن أشكوهماً طول حياتى ، ولن أتدمر من ضيق مهما بلغ .

وأجابت چو بنفس الحرارة :

— وسأكون ، إذا شفأها الله ، خير عبده فى هذه الدنيا كلها .

فقلت ميج :

— لست أدرى كيف نقوى على الحياة إذا توالى فيها صعب كهذه ؟ !

وهنا دقت الساعة معلنة منتصف الليل ، ونسيت الفتاتان نفسيهما وهما ترقبان التغير الذى بدا لهما على وجه بـث الشاحب . وكان البيت ساكناً كالقبر ، وليس من صوت يعكر سكونه سوى عويل الرياح فى الخارج . وكانت حنا المتعبة تغط فى نومها ، فلم ير أشباح الأسى التى تخيم فوق سرير المريضة غير أختيها . ومضت ساعة ثم خرج لورى فى هدوء ليستقبل القطار ، ومضت ساعة أخرى ولم تحضر أمهما ، وتملكت الفتاتين نوبة من القلق الشديد ، وخافتا أن يتأخر حضورها بسبب العاصفة أو حوادث القطر ، وكان أكثر ما تخشيان أن تسوء حالة الأب ،

فتضطر الأم إلى البقاء معه .

ووقفت چو تتطلع من النافذة إلى الدنيا الحالككة تحت غطاء ثلجها الأبيض ، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ، عندما أحست بحركة فى سرير المريضة ، فالتفت بسرعة لترى ميج راكعة أمام المقعد الذى اعتادت أمها أن تجلس فيه ، وقد أخفت وجهها فى كفيها . وسرى فى بدن چو رعب شديد ، إذ خيل إليها أن بث لفظت أنفاسها وأن ميج تخشى أن تخبرها بذلك . وعادت مسرعة إلى مكانها بجوار الفراش ، فرأت والرعب يملأ نفسها أن تغيراً واضحاً كسا وجه الراقدة ، فقد تلاشت عنه حمرة الحمى والألم ، وحل محلها تعبير من الهدوء والسلام والراحة ، أثار فى نفس چو رغبة شديدة فى البكاء أو العويل . فانحنى على أعز أخواتها تطبع على جبينها المبتل قبلة صدرت من قلبها ، وهمست :

— وداعاً يا بث ، وداعاً ! !

وكان الحركة الصغيرة أيقظت حنا من سباتها ، فقامت مسرعة تتطلع إلى بث ، وتنحس يديها ، وتستمع إلى الأنفاس المترددة من بين شفتيها ، وما لبثت أن ألقت بمرولتها جانباً ، وجلست تتمتم فى عجب :

— لقد زيلتها الحمى ، وهى تنام نوماً طبيعياً ، والعرق يندى جسدها وتنفسها هادئ منتظم . لك الشكر يا إلهى . . . لك الشكر ! !

وقبل أن تؤمن الفتاتان بقولها ، جاء الطبيب ليتأكد من زوال الخطر ،

وكان رجلا عادياً في شكله ، ولكن ابتسامته بدت لهما ملائكية مشرقة ،
قال :

— نعم إنها أحسن حالا ، وسوف تشفى عن قريب ، فاحتفظن بهدوء
البيت لتنام ، فإذا استيقظت فأعطينها . . .

ولم تسمع الفتاتان ماذا يجب أن تجرع المريضة ، فقد رجعتا إلى
الردهة المظلمة ، وجلستا على درجة السلم متلاصقتين ، تنعمان بلذة
الحب الطيب ، ولا تقويان على التعبير عن سعادتهما بكلمة أو إشارة .
وعندما عادتا إلى الحجرة ثانية ، طوقتهما حنا بذراعيها وقبلتهما ، ونظرت
الفتاتان إلى بث فرأتها ترقد في سلام ، وقد انزاح عن وجهها امتقاعه
السابق ، وترددت أنفاسها في انتظام ، كأنها قد استسلمت إلى النوم
لتوها .

وقالت چو وقد كاد الليل البارد ينقضى :

— ليت أمي تحضر الآن !

وقالت ميج وهى تمسك بوردة بيضاء بدأت تتفتح أوراقها :

— انظرى . . ظننت أن هذه الوردة لن تتفتح حتى نضعها في
يد بث إذا ما . . إذا ما ناداها الله إلى جواره ، ولكنها تفتحت في أثناء
الليل ، وسوف أضعها في آنية الزهر ، حتى إذا ما صحت الغريزة من
نومها ، كان أول ما يطالعها هذه الوردة الجميلة ووجه أمي الغريزة .

ولم تشرق الشمس في جمال يعادل إشراقها ذلك الصباح ، ولم تبد

الدنيا أحلى مما بدت ، عندما فتحت الفتاتان جفونهما المثقلة بالنوم ،
بعد أن انقضت ساعات الحزن والأسى .

وقالت مبيج وهى ترقب من وراء ستار النافذة ، ضوء الصباح
الباهر :

— أرى الدنيا اليوم حلماً جميلاً .

وصاحت چو وهى تقفز واقفة :

— ما هذا ؟

فقد علت جليجلة أجراس العربة عند باب الدار ، وصاحت حنا

مهللة ، وتعالى صوت لورى يقول فى مرح هادئ :

— لقد وصلت يا بنات ، لقد وصلت !



الفصل التاسع عشر

وصية أمي

بينما الأحداث تجرى في بيت آل مارش ، كانت أمي تعاني الأمرين في ضيافة عمتها ، فقد حزت في نفسها مرارة النفي ، وأحست لأول مرة ، بمدى ما كانت تنعم به من حب أهلها وتدليلهم ، إذ كانت العمة مارش لا تدلل أحداً ولا تؤمن بالتدليل ، ولكنها كانت تظهر عطفها على الفتاة الملهذبة التي وقعت من نفسها موقعاً حسناً . وكانت تكن لأولاد قريبها مودة في قلبها العجوز ، ولكنها كانت تنكر على نفسها أن تعترف بها

صراحة ، ولذلك بذلت ما بوسعها في توفير أسباب السعادة للفتاة الصغيرة .
ولكن ما أكثر الأخطاء التي وقعت فيها خلال سعيها الطيب . إن بعض
العجائز يحتفظون بقلوب فتية رغم التجاعيد التي تغشى وجوههم ، والمشيب
الذي يكسو شعورهم ، فينسجمون مع الأطفال في أمورهم ومسراتهم ،
وتزول الكلفة فيما بينهم ، وبذلك يصبح في مقدورهم إسداء النصيحة
بطريقة محبة ، تقابلها الصداقة والعطف الحلو . ولكن العمة مارش لم
ترزق هذه الهبة ، فأنهكت الفتاة بسيل من القواعد والأوامر الدقيقة
تصوغها في عبارات ومحاضرات طويلة . وكانت آى أكثر من أختها چو
هدوءاً ومسالمة ، فرأت العجوز أن تقومها ، لتعالج الأثر السيئ للحرية
المطلقة التي نشأت عليها الفتاة . فاستبدت في معاملتها ، كما كانت أمها
تستبد بها منذ ستين عاماً ، مما أثار نفس آى ، وجعلها تشعر كأنها ذبابة
ضعيفة وقعت في براثن عنكب شرير .

وفرضت عليها كل صباح أن تغسل الفناجين ، وتمسح الملاعق ،
وتلمع إبريق الشاي الفضي ، وتنظف زجاج النوافذ ، ثم عليها بعد ذلك
أن تنفض الغبار عن الحجرة وهو أمر عسير . ولم تكن عينا العمة مارش
تغفلان عن أى إهمال يصدر من الفتاة ، ولم يكن يفوتهما أقل غبار
يبقى بين ثنايا نقوش المفروشات القديمة . ولذلك كان على آى أن تعمل
بجد واجتهاد ، فإذا انتهت من واجباتها الكثيرة ، أطعمت البيغاء ،
ومشطت شعر الكلب المدلل ، ونزلت السلم وصعدته عشرات المرات ،

تؤدي الخدمات وتبلغ الأوامر عن عمتها العرجاء التي لا تكاد تغادر مقعدها . وبعد كل هذا النصب تجلس إلى دروسها تستذكرها ، وعند ذلك يسمح لها بساعة تقضيها في الرياضة واللعب . وكان لورى يحضر كل يوم ، ويظل يلح على العمة مارش ، حتى تصرح لآمى بالخروج معه ، لترفه عن نفسها بالترهة في العربة أو سيراً على الأقدام . وبعد تناول الطعام ، تقرأ الفتاة للعجوز بصوت مرتفع ، ثم تجلس ساكنة عندما تغفى العمة ، وهي عادة تنام على كرسيها ساعة ، فإذا صحت يبدأ التطريز وشغل الإبرة ، فتظل الفتاة تعمل في هدوء ظاهر ، وثورة مكبوتة حتى يحل الغسق ، فتطلق لها الحرية إلى موعد الشاي . ثم يأتي المساء ، وهو أفضع ما في اليوم ، إذ تشرع العمة مارش تقص قصصاً لا تنتهى عن شبابها ، وغالباً ما تكون القصص قابضة ، حتى يحين موعد النوم ، فتذهب الفتاة إلى فراشها ، وفي نيتها أن تبكى فيه ما شاء لها البكاء ، ولكن ما إن تذهب فعلاً إليه حتى يغلبها النعاس ، قبل أن تعتصر من عينها دمعة أو دمتين . ولولا زيارات لورى ، ولولا أستر خادم عمتها ، ما أمكن آمى أن تحتمل الوقت العصيب الذى تقضيه في بيت عمتها ، فقد كان البيغاء وحده ، يسبب لها عذاباً شديداً ، بعد أن شعر بكراهيتها له ، فراح ينتقم منها بكل ما يعرفه من وسائل المكر والخبث . كان يشد شعرها كلما اقتربت منه ، أو يغيظها فيقلب وعاء طعامه ومائه بعد أن تنتهى من تنظيف قفصه ، أو يثير الكلب المدلل بأن ينقره ، فينبج أثناء

نوم السيدة ، كما كان يسبها ويشتمها أمام الزوار ، وبالاختصار كان يعمل كل ما يمكنه لازعاجها وتعذيبها . وكان هناك أيضاً ذلك الكلب المدلل السمين الغضوب ، الذى لا ينقطع عن النباح ، ولا يكف عن التكشير عن أنيابه كلما تولت أمر نظافته وتمشيط شعره ، أو يرقد على ظهره ويرفع أرجله فى الهواء معاكساً مشاكساً ، أو يبدى جميع حركات الغباوة والسماجة إذا أراد شيئاً يأكله ، وهو أمر يحدث عشرات المرات فى أثناء النهار .

وبالإضافة إلى هذا كله ، كانت هناك الطاهية الحمقاء الغضوب وسائق العربة الأصم ، ولم يكن فى البيت من يعطف على آذى سوى الخادم أستر .

وكانت أستر هذه فرنسية الأصل ، عاشت مع « المدام » ، كما كانت تسمى العمة مارش ، سنوات طويلة ، وكانت متعنتة مع السيدة العجوز ، لعلمها بأنها لا يمكن أن تستغنى عنها . وكان اسمها الحقيقي أستل ، وقد طلبت منها العمة مارش أن تغير اسمها بأستر ، وقد رضيت بشرط أن لا تطلب منها السيدة أن تغير دينها بعد ذلك . وقد عطف الخادم على « المدموازيل » ، فكانت كلما أتيحت لها فرصة الجلوس معها ، تقص عليها أغرب القصص عن حياتها فى فرنسا ، كما سمحت لها بالتجول فى أنحاء البيت الكبير تفحص ما به من التحف والغرائب المحفوظة فى الأصونة والصناديق القديمة ، والتي طفقت مسر مارش تختزنها فيها على مر السنوات

وكان أكثر ما تحبه أمي ، أن تفحص صواناً هندياً ، به أدراج ورفوف ومخابئ سرية ، امتلأت جميعها بغرائب وتحف ، بعضها ثمين وبعضها تافه . وكان أعظم ما يسعدها أن ترتب هذه التحف وتصنفها ، خصوصاً صندوق الحلى المبطن بالخممل ، إذ كان يحتوى على كثير من الحلى التى عرفها النساء منذ أربعين عاماً . وكان بالصندوق مجموعة من الياقوت تتحلى بها العمة عند خروجها ، وعقد لؤلؤى أهداها إياه أبوها يوم زفافها ، ثم ماسات زوجها وخواتمه ودبايسه وخصلة شعره ، وكذلك صور أصدقاء ماتوا ، وأساور طفلتها الوحيدة التى فقدتها رضيعة . هذا إلى جانب ساعة العم مارش التى تتدلى منها حلية حمراء ، طالما عبثت بها أيدي أطفال عديدين . وفى صندوق آخر حفظت العمة خاتم زواجها بعد أن ضاق قطره عن أصبعها السمين .

وقد سألتها أستر يوماً ، وهى تجلس إلى جانبها ترقبها وهى تفحص هذه التحف :

— أية قطعة من هذه الحلى أحب المدموازيل أن توصى بها عمتها لها ؟
 قالت أمي ، وهى تنظر فى إعجاب إلى عقد ذهبي مطعم بخشب الآبنوس ، وقد تدلى منه صليب ثقيل من المعدن المنقوش نفسه :
 — هذه الماسات تعجبني كثيراً ، ولكنى لا أرى بينها قلادة واحدة .
 وبما أنى أريد قلادة أزين بها عنقى ، فليس أمامى سوى أن أختار هذا العقد الذهبى .

فقالت أستر وهي تنظر بإعجاب إلى الحلية الذهبية :
 — إنها تعجبني أيضاً ، ولكنى أفضل أن أستعملها كتعويذة ، لأننى امرأة متدينة .

فسألتها آمى :

— أتعين أنك تفضلين أن تستعملها كالمسبحة الخشبية ، التى تعلقينها فوق مراكبك ؟
 قالت :

— نعم ، لأصلى بها ، فهذا يرضى القديسين ، أكثر مما يرضيهم أن ألبسها للزينة والبهرج .
 قالت الفتاة :

— إنك تستمدين من الصلاة راحة النفس وهدوءها ، فليتنى كنت مثلك !

قالت :

— لو كنت كاثوليكية مثلى لأحسست بالراحة عند الصلاة ، ولكنك بروتستنتية ، فمن الخير أن تفعلى مثلما كانت تفعل مخدومتى السابقة ، إذ كانت تنفرد كل يوم بنفسها تفكر وتتأمل وتصلى أمام المذبح الذى أقامته فى بيتها ، فتجد فى ذلك راحة وسلواناً .

وكانت آمى تشعر فى وحدتها هذه بحاجة إلى ما يعينها ، ولم تكن تقرأ فى كتاب النصائح إلا نادراً ، إذ لم يكن يذكرها بالقراءة فيه غير

بث . فقالت تسأل الخادم :

— أمن الصواب أن أفعل ما تنصحين به ؟

قالت :

— من غير شك ! سوف تشعرين بمنتهى الراحة والهدوء ، فإذا وافقت على اقتراحى ، هيات لك مذبحاً للصلاة فى حجرة الملابس الصغيرة . فلا تذكرى الأمر لعمتك ، وعندما تنام اذهبى واجلسى وحيدة ، ولا تفكرى إلا فى الخير ، واضرعى إلى الله أن يحفظ أختك المريضة .

وكانت أستر امرأة رقيقة القلب متدينة ، تحس بما تعانيه الفتاة من قلق نحو أختها ، فاطمأنت آمى إلى نصيحتها ، وقبلت أن تهىء المذبح فى الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرتها ، راجية أن يكون الخير فيما تعمل .

وراحت تعيد التحف والحلى إلى مكانها قطعة بعد قطعة ، فلما انتهت أغلقت العلبة ، ثم قالت :

— ليتنى أعرف إلى من تؤول هذه التحف الجميلة بعد موت العمة مارش .

فهمست أستر تقول باسمه :

— ستؤول إليك وإلى شقيقاتك ، فلقد أخبرتنى « المدام » بذلك ، كما أنى كنت شاهدة على وصيتها .

فقالت آمى وهى تلقى نظرة أخيرة على الماسات :

— جميل جداً ! ولكنى أتمنى لو أمكن أن نأخذها ، فإنى أحب
الخيرات العاجلة لا الآجلة .

قالت :

— ولكنكن صغيرات بعد ، ولا يجوز لكن التزين بالجوهر . وقد
قالت لى « المدام » بأنها ستهدى أول من تتزوج منكن عقد اللآلى .
وأعتقد أنها ستعطيك الخاتم الفيروز عند عودتك ، لأنى أرى عليها دلائل
الرضا عن سلوكك وأخلاقك الحميدة .

قالت آمى وهى تجرب الخاتم المنشود على أصبعها ، وقد شاع السرور
فى وجهها ، والعزم على الحصول عليه فى نفسها :
— أعتقدين ذلك حقاً ؟ والله لو كان صدقاً ما تقولين ، لأصبحت
فى وداعة الحمل وخضوعه ! إنه أبدع كثيراً من خاتم كيتى برايانت .
إنى أحب العمة مارش رغم كل شىء !

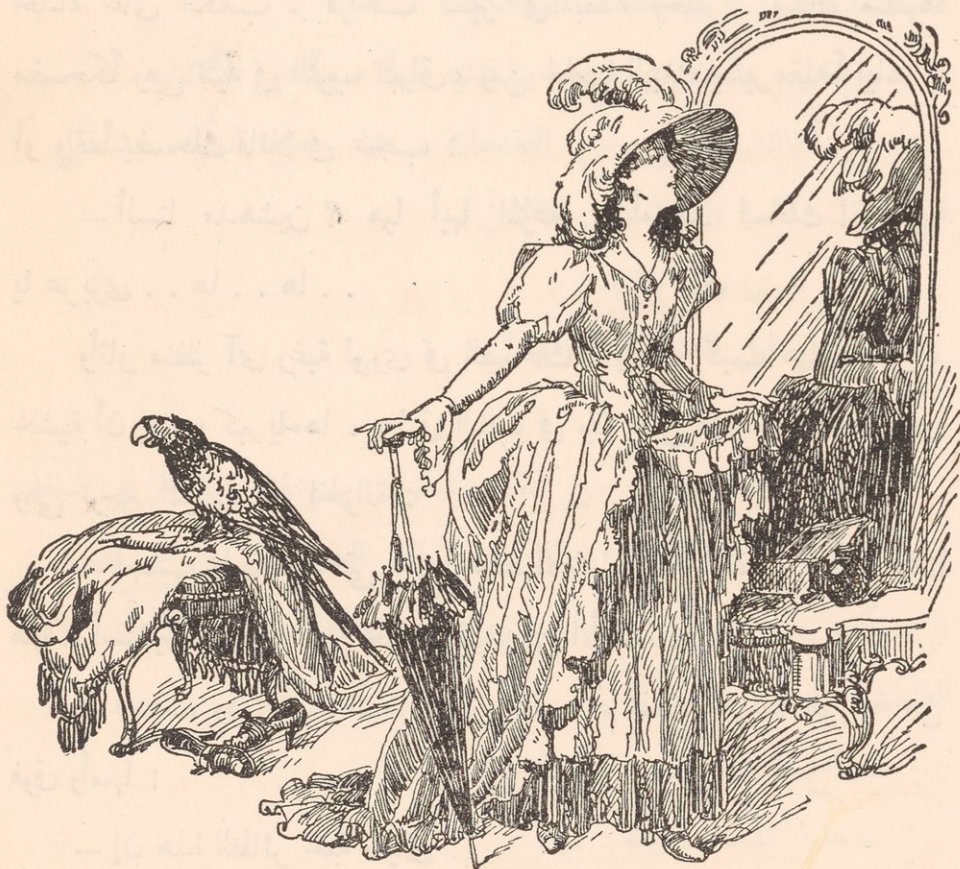
ومنذ تلك اللحظة صارت مثلاً للطاعة ، مما أشاع الرضا فى نفس
السيدة العجوز بنجاح طريقتهما فى التربية . وراحت أستر تعد المذبح
فى الحجرة الصغيرة ، فأحضرت منصدة صغيرة ووضعت أمامها وسادة
للركوع ، كما وضعت صورة للعدراء فوق المائدة أخذتها من بين تحف
« المدام » ، مطمئنة إلى أنها قليلة القيمة ، ولن تغضب السيدة إذا
كشفت فقدتها من صندوقها . ولكن الصورة لم تكن فى الحقيقة تافهة
كما ظنت أستر ، بل كانت نسخة ثمينة جداً لإحدى روائع الفن العالمى .

وقد أحست آحى بجمالها وعظمتها ، فكانت لا تكل من التطلع إليها ،
 وقلبها مفعم بالآمال الحلوة والأفكار السعيدة . ووضعت فوق المائدة أيضاً
 إنجيلا وكتاب الصلاة ، وآنية للزهور الياضعة التي يأتياها بها لورى . وفى
 كل يوم تجلس وحيدة تفكر وتتأمل ، وتصلى إلى الله أن يحفظ أختها ،
 وكانت أستر قد أعطتها صليلاً خشياً بسيطاً تعلقه على صدرها وهى
 تصلى ، ولكن عقيدتها البروتستانتية أبت عليها أن تفعل ذلك ، فقنعت
 بتعليقه على الحائط .

وكانت مؤمنة كل الإيمان بما تفعل ، فقد جعلها بئدها عن بيتها ،
 تشعر بحاجة إلى قوة مشجعة ، ولذلك توجهت إلى الله ضارعة أن يرعى
 الكبار والصغار ويساعدهم على متاعهم . ولم تكن أمها بجانبها ترشدها ،
 ولكن التعاليم التي أخذتها عن أبيها ، أحسنت توجيهها إلى الطريق الصحيح
 دون أن تشعر . وحاولت أن تنسى نفسها وهمومها ، وأن تحتفظ بالبشر
 والرضا بواجباتها . وفى غمرة حماسها الدينية ، قررت أن تحذو حذو
 عمها ، فتكتب وصيتها ، حتى إذا مرضت أو ماتت ، توزعت ممتلكاتها
 بالعدل بين ورثتها . وأحست برجفة الخوف لمجرد تفكيرها فى التنازل عن
 كنوزها الصغيرة ، التي بدت فى عينها غالية ثمينة كمجوهرات عمها
 العجوز .

وفى ساعة من ساعات لهوها كتبت الوثيقة الهامة ، كأحسن ما تستطيع
 أن تكتبها ، وأضافت إليها بعض فقرات قانونية بمساعدة أستر . فلما

انتهت الفرنسية الطيبة من توقيع الوصية كشاهدة ، أحست آى براحة كبيرة ، واحتفظت بالورقة جانباً فى انتظار لورى ، كى يكون الشاهد الآخر عليها . ولما كان الجو مطيراً ، صعدت تسلى نفسها فى إحدى القاعات الفسيحة واصطحبت البغاء معها يسليها . وكان بالغرفة خزانة ملابس كبيرة عامرة بالثياب القديمة . فسمحت لها أستر بأن تلعب بها .



وكانت تسلية كبيرة للفتاة أن تلبس هذه الملابس الباهتة ، وتستعرض شكلها فيها أمام المرأة ، فمرة تنحنى فى تحية رشيقة ، ومرة تسحب الذبول الطويلة فتسمع لها حفيفاً يسر أسماعها . وفى شغلها بمتعتها العظيمة ، لم تسمع لورى وهو يدق الجرس ، ولم تره كذلك وهو يسترق النظر إليها فى أثناء تشنيتها وسيرها أمام المرأة ، وهى تداعب مروحتها ، وتهز رأسها المعممة فى حرير وردى ، فى تيه ودلال . وكانت تلبس حذاء على الكعب ، فراحت تسير فى بطء وحذر . وكان منظرها مضحكاً وهى تتيه فى الثوب البراق ، ومن خلفها البغاء يسير مقلداً إياها ، أو واقفاً يضحك قائلاً فى عجب :

— ألسنا مدهشين ؟ هيا أيها المزعج ! أمسك لسانك ! قبلنى يا عزيزى . . ها . . ها . .

وأثار منظر آى رغبة لورى فى الضحك ، ولكنه كبت هذه الرغبة ، خشية أن يجرح كبرياءها ، وطرق الباب فى رقة يعلن قدومه ، فقالت آى وهى ترجع الثياب إلى الخزانة :

— اجلس واسترح حتى أضع هذه الأشياء فى أماكنها ، وبعد ذلك سوف أستشيرك فى أمر على جانب كبير من الأهمية .

ثم أردفت وهى تعيد البغاء إلى ركنه ، ثم تفك العمامة الوردية من فوق رأسها :

— إن هذا الطائر محنة حياتى .

وجلست على مقعد ، بينما جلس لورى على مقعد آخر قبالتها .
قالت :

— بالأمس راحت العمة فى غفوتها بعد الغداء ، وجلست أنا هادئة ساكتة كالقار ، فإذا بهذا الطائر يصيح ويضرب بجناحيه فى قفصه ، وذهبت لأطلق سراحه ، فرأيت بالقفص عنكباً كبيراً ، هبط يجرى تحت خزانة الكتب ، ومن ورائه البغاء الذى راح يحنى رأسه ويطل على العنكب ويقول له فى لهجته المضحكة :

— اخرج يا عزيزى ، وهيا بنا ننتزه قليلاً سيراً على الأقدام .
ولم أتمالك نفسى من الضحك ، مما جعل البغاء يشتمنى ، فاستيقظت العمة وأنبتنا نحن الاثنين .

فقال لورى وهو يتثائب :
— وهل قبل العنكب الدعوة ؟

قالت :

— نعم ، فقد خرج من تحت الخزانة بسرعة ، مما أفرع البغاء فزعاً مميتاً ، فولى الأدبار ، وارتطم بساقى العجوز ، وراح يصيح :
« امسكوه .. امسكوه .. امسكوه .. » وانطلقت أنا أجرى وراء العنكب .

فصاح البغاء ، وهو ينقر قدم لورى :
— هذا كذب ، والله ..

فصاح لورى بدوره ، وهو يهز قبضته فى وجه الطائر :
 — لو كنت ببغائى ، ما توانيت عن كسر عنقك ، أيها العجوز
 الوقح .

وطأ طأ الطائر رأسه وقال بصوت أجش :

— كلام فارغ !

قالت آمى ، وهى تغلق خزانة الملابس ، وتخرج ورقة من جيها :
 — أنا الآن مستعدة ، أريد منك أن تقرأ هذه ، من فضلك ، وأن
 تخبرنى إن كانت قانونية أم لا . إن الحياة غير مضمونة ، وأرى من
 واجبى أن أكتبها ، حتى لا يذكرنى أحد بسوء فوق قبرى .
 وراح الفتى يقرأ الوثيقة ، متظاهراً بالوقار والثبات . وكانت
 كما يأتى :

« آخر وصية لى »

« أقرر أنا آمى كورتيس مارش ، وأنا فى كامل عقلى ووعى ، أننى
 أوصى بممتلكاتى الشخصية أمام الشهود الموقعين أدناه ، كالآتى بالاسم :
 « أوصى لأبى بجميع صورى ولوحاتى وخرائطى وأعمالى الفنية ، بما فى
 ذلك الإطارات الخشبية . وكذلك أوصى له بالمائة دولار التى أملكها
 يتصرف فيها كما يشاء .

« وأوصى لأمى بملابسى ، ما عدا مرولتى الزرقاء ، ذات الجيوب ،
 وكذلك أوصى لها بأيقونتى مع حبي البالغ .

« وأوصى لأختي العزيزة مارجريت بنجتمى الزبرجدى (إذا كنت سأحصل عليه) ، وبصندوق الأخضر وما فيه من حمام ، وبقطعة الدنتلا الحريية ، وكذلك بالرسم التخطيطى الذى عملته تذكراً .

« وأوصى لحو بمشبك الصدر الذى أصلحته بالشمع الأحمر ، وبمحبرتى البرونزية ذات الغطاء المفقود ، وبأعلى تمثال صلصالى صنعته لأرنب ، كل ذلك لأكفر عن خطأى السابق بإحراق قصتها .

« وإذا عاشت بث بعدى ، أوصى لها بجميع عرائسى ، وبصوان الزينة ، وبمروحتى ، وببنيتاقى التيل وخفى الحديد ، وأعتقد أنه يناسبها الآن ، لأنها ستكون نحيفة بعد شفائها من المرض . وأشهد هنا أيضاً أننى أعتذر لها عن ضحكى من عروستها چوانا ، وسخريتى الدائمة بها .

« أوصى لصديقى وجارى تيودور لورنس بحافظة أوراق رسومى ، وبتمثال الحصان الذى عملته من الصلصال ، رغم ما يقوله من أن الحصان بلا رقبة . ومكافأة له على لطفه وطيبته ، له أن يختار ما يعجبه من رسومى الفنية التى أعتقد أن صورة نوتردام أجملها .

« وأوصى لحامينا الطيب مستر لورنس بصندوق الأرجوانى ذى الغطاء الزجاجى ، لأنه يصلح لوضع أقلامه ، كما أنه سيدكره بصاحبته الراحلة التى تشكره على أفضل كثيرة غمر بها أفراد الأسرة كلهم خصوصاً بث .

« كما أحب أن تأخذ صديقتى كيتى برايانت مروتى الحريية

وخاتمي الذهبي مع قبلاقي .

« وأوصي لحنا بالصندوق الذي أعجبها ، وبأدوات الحياكة ، حتى
تذكرني كلما استعملتها .

« والآن ، وقد وزعت أغلى ممتلكاتي ، أمل أن يكون ورثتي راضين ،
ولا يلوموني بعد موتي . وإني أصفح عنهم جميعاً ، مؤمنة بأننا سنتقابل
يوم ينفخ في الصور .
» آمين .

« وإني أوقع على هذه الوثيقة بيدي وختمي في اليوم العشرين من
شهر نوفمبر .

آمي كورتيس مارش

« شهود :

« أستيل فالنور

« تيودور لورنس »

وكان اسم لورنس مخطوطاً بالقلم الرصاص ، وطلبت آمي من لوري
أن يعيد كتابته بالخير ، وأن يضع الوصية في مظروف ويقفله جيداً .
فقال لوري في وجوم ، عندما ألصقت آمي شريطاً أحمر على
المظروف ، وثبته بالشمع الأحمر وختمته :

— ما الذي جعلك تفكرين في كتابة هذه الوصية ؟ هل قال لك

أحد بأن بث توزع ممتلكاتها ؟

فشرحت له أمى سبب كتابتها لوصيتها ، ثم سألته :
 — قل لى ماذا صنعت بث ؟ هل كتبت وصية هى الأخرى ؟
 قال :

— يؤسفنى أن أخوض فى هذا الموضوع ، ولكن ما دمت قد ذكرته
 فسأقول لك ما جرى . لقد أحسيت يوماً بأنها فى حالة سيئة ، فقالت لحو
 بأنها تود لو أخذت ميعج المعزف ، وبأن تأخذى أنت عصفورها ، وبأن
 تأخذ چو دميتها المسكينة لأنها ستحبها من أجل بث . وقالت بأنها آسفة
 لتفاهة ما تتركه لأخواتها ، وأوصت بخصلات من شعرها لبقية أفراد
 الأسرة ، وبحبها لجدى . ولكنها لم تفكر أبداً فى كتابة وصية كهذه .
 وكان لورى مطرقاً فوق المظروف ، ولم يرفع رأسه إلا عندما سقطت
 دمعة كبيرة على الورق ، وأفعمت نفس أمى بالاضطراب ، ولكنها
 قالت :

— أليست العادة أن يكتب شىء على المظروف الخارجى ، زيادة
 على ما جاء فى الوصية ؟
 قال :

— نعم ، وتسمى تعديل الوصية .

قالت :

— إذاً اكتب تعديلاً بأنى أريد أن توزع خصلات شعرى كلها على
 جميع أصدقائى . لقد نسيت أن أقول ذلك ، وإن كنت أكره أن تقص

خصلاقي كلها ، فيصبح شكلي قبيحاً في موتى .

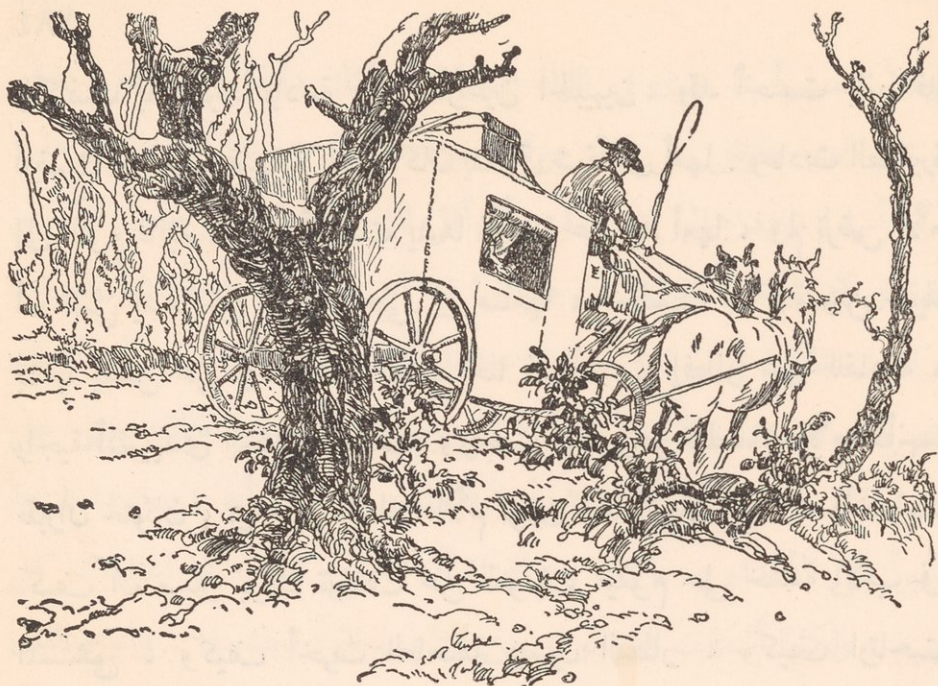
وأضاف لورى ما أرادت وهو يتسم من آخر توضحياتها وأكبرها .
وراح يسليها ساعة ، وعندما استأذنها فى الذهاب ، انتحت به
جانباً ، وقالت وشفتها ترتجفان :

— هل هناك خطر حقيقى على حياة بـث ؟

قال وهو يربت على ظهرها مهدئاً :

— أخشى أن يكون ذلك صحيحاً ، ولكننا نأمل فى الخير دائماً .. لا تبكى
هكذا يا عزيزتى .

وعندما غادرها ، ذهبت إلى مذبحها الصغير ، وفى ضوء الغسق
جلست تصلى من أجل بـث ، والدموع تنهمر من عينيها ، وكان قلبها
يعتصره الألم ، وأحست أن ملايين الخواتم الزبرجدية ، لن تعزيها عن
فقد أختها الصغيرة اللطيفة .



الفصل العشرون

أمور عائلية

إن الكلمات تعجز عن وصف اللقاء بين الأم وبناتها ، ومن أصعب الأمور أن نصف الساعات الجميلة في الحياة ، ولذلك ترك الوصف لخيال القارئ يصوره كما يشاء ، ويكفي أن نقول إن البيت أفعم بالسعادة الحقيقية والهناء العظيم . وصدقت نبوءة ميج ، فما إن استيقظت بث من نومها المريح الشافي ، حتى طالعها شيئان : وردتها البيضاء المفتحة ، ووجه أمها العزيز الباسم . وكانت ضعيفة خائرة القوى ، فابتسمت ،

واكتفت بأن ترقد وادعة بين الذراعين الحبيين ، وقد أحست بأنها قد أرضت في النهاية قلبها ، الذي كان يتحرق شوقاً إلى أمها . وعادت الصغيرة إلى النوم ثانية ، وقد أطبقت يدها الواهنة على يد أمها ، ولم ترض الأم أن تسل يدها من قبضتها حتى في منامها ، فجلست ساكنة ومن حولها بناتها يقرن على راحتها . وكانت حنا قد أعدت إفطاراً شهيئاً للقادمة ، راجية أن يهدئ العمل انفعالها ، وراحت ميج وچو تطعمان الأم كأنهما طيران حنونان ، في حين جعلت الأم تروى لهما أخبار أبيهما ، فأخبرتهما كيف أن مستر بروك تخلف عن العودة ، ليقوم على خدمة الأب في المستشفى ، وكيف أخرت العاصفة وصول القطار ، وكيف ارتاحت نفسها لمراى لورى متفائلاً ، فزال عنها قلقها وحزنها .

وطلع اليوم التالى مشرقاً رغم مفاجآته : ضوء باهر في خارج البيت ، يزيد بياضه الثلج المتراكم على الأرض ، وهدوء شامل في داخله ، إذ كان التعب والقلق والنصب قد أنهك الأسرة ، فنام أفرادها نوماً هادئاً . جلست حنا على باب الغرفة تغنى ، وأغمضت ميج وچو عيونهما ، وقد انزاح عن قليهما حمل عظيم ، فاستسلمتا لنوم عميق ، بعد عواصف الأحداث السابقة . وأبت مسز مارش أن تغادر فراش المريضة ، فنامت في مقعدها الكبير ، وبين الفينة والفينة ، تصحو وتنظر إلى بث وتتحسس يدها ، وتحذب عليها كما يحذب البخيل على كنوزه وذهبه .

وذهب لورى إلى آمى يطمئنها على أختها ، ويخبرها بمجىء أمها ،

وحدثها مسهباً بما جرى في الليلة السابقة ، وكان دقيقاً في وصفه ، حتى لم تقو العمة مارش على كتم عبرة صغيرة طفرت من عينها لشدة تأثرها ، كما أنها لم تردد جملتها المعهودة « ألم أقل لك ذلك ؟ » . وبعثت الأخبار قوة في أمي جعلتها تعتقد بأن صلاتها قد آتت ثمارها ، فجففت دمعها ، وكبت شوقها إلى رؤية أمها ، عندما أقرت العجوز للورى بأن أمي قد تصرفت تصرف « السيدة المهذبة » . وحتى البغاء بدا كأنه يوافق على هذا القول ، فراح يصيح قائلاً بأنها « فتاة » طيبة ، وأنه « يدعوها للنزهة سيراً على الأقدام » . وكان بود الفتاة أن تخرج لتتنزه كما اعتادت كل يوم ، ولكنها أشفقت على لورى من المتاعب التي تجشمها ، والنوم الذي يغالبه في بطولة ورجولة ، فرجته أن يستلقى على الأريكة مرتاحاً ، ريثما تكتب كلمة لأمها . واستغرقت الكلمة وقتاً طويلاً ، فلما عادت الفتاة ، كان لورى ممدداً على الأريكة ، وقد توسد ذراعه وراح في سبات عميق ، فأسدلت العمة مارش الستائر ، وجلست ساكنة ، في نوبة نادرة من الطيبة والتضحية .

ومضت الساعات والفتى نائم نوماً عميقاً ، حتى خيل إليهما أنه لن يستيقظ قبل حلول المساء ، وكان من المحتمل أن يحدث ذلك ، لولا صيحة الفرح التي أطلقتها الفتاة عندما شاهدت أمها تدخل عليها . وربما كان في المدينة فتيات سعيدات في ذلك اليوم ، ولكن ما من شك في أن أمي كانت أسعدهن ، وهي تجلس في حجر أمها تقص عليها

ما مر بها من شدائد ، وتلقى منها بسمات المواساة والتعزية .

وأرتها الفتاة المذبح الذى شيدته ، فلم تمنع أمها فيه ، إزاء الغرض النبيل الذى أقيم من أجله ، وقالت :

— على الضد يا عزيزتى ، إنه يعجبني كثيراً ، وليس أجمل من أن يكون للإنسان مكان هادئ يصلى فيه إذا ما تعقدت الأمور وساءت .
إن حياتنا مليئة بالمتاعب ، ولكن من السهل أن نتغلب عليها إذا اتبعنا الطريق الصحيح ، ولعلك أدركت الآن راحة الإيمان يا فتاتى .
قالت آى :

— نعم يا أماه ، وسوف أهىء ركناً صغيراً فى حجرتى ، أضع فيه هذه الكتب ، وأعلق فيه هذه اللوحة التى نسختها من صورة العذراء .
حقيقة أننى لم أنجح فى نسخها كما يجب ، فوجه السيدة ليس جميلاً كالأصل ، ولكن الطفل الذى تضمه لا بأس به . إن شعورى بأن المسيح كان طفلاً فى يوم من الأيام ، يقربه إلى كثيراً ، ويشجعنى على التوجه إليه بمتاعبى .

وكانت الفتاة تجلس على حجر أمها ، وتشير بأصبعها إلى الصورة ، فرأت الأم فى الأصبع ما جعلها تبتسم . ورغم أن مسز مارش لم تقل شيئاً ، فإن الفتاة فهمت معنى بسمتها ، فترددت برهة ثم قالت فى جد :

— كنت أنوى أن أحدثك عن هذا ، غير أننى نسيت . لقد دعتنى عمى اليوم وقبلتنى ، وقالت إنها تفخر بى ، وتحب أن أبقي عندها دائماً ،

ثم ألبستنى هذا الخاتم فى أصبعى هدية أحتفظ بها . إنه من الزبرجد ، وهو واسع قليلا على أصبعى ، ولكنه يعجبنى ، فهل أستطيع أن ألبسه يا أماه ؟

ونظرت مسر مارش إلى اليد البضة ، وقد تحلت بالأحجار النفيسة الجميلة ، وقالت :

— لست أشك فى أنه جميل ، ولكنك ما زلت صغيرة السن ، ولا يصح أن تزينى بالجوهر .

قالت آمى :

— سأحاول أن لا أتيه به عجباً ، وليس تعلقى به لجماله فحسب ، بل أحب أن ألبسه ليدكرنى بشىء .

فسألتها أمها ضاحكة :

— بالعمة مارش ؟ ؟

قالت آمى فى لهجة مخلصه حارة ، جعلت الأم تمسك عن الضحك ، وتصغى إلى حديثها باحترام :

— لا ، ولكن ليدكرنى دائماً بأن أنكر أنانيتى وأحاربها فى نفسى . لقد أطلت التفكير أخيراً فى مجموعة رذائل ، فوجدت أن الأنانية أكبرها . وقد قررت أن أشفى نفسى منها ما استطعت . إن حب الناس كلهم لبث ، وخوفهم الشديد على حياتها ، ورغبتهم الصادقة فى شفاؤها ، يعود إلى إنكارها لذاتها وخلو نفسها من الأنانية . أما أنا فلن يأسف أحد

علىّ إذا مرضت ، وهذا أقل ما أستحق ، ولذلك ساحاول أن أحذو حذو بث ما أمكن ، حتى أجتذب القلوب ، وأغريها بالعطف علىّ .
إني أقرر لنفسى عادات واتجاهات طيبة ، ولكنى لا ألبث أن أنساها ،
ولذلك أحب أن أستصحب معى شيئاً يذكرنى بها ، وهذا الخاتم خير سبيل
إلى التذكرة على ما أعتقد ، أفسمحين أن أجربه ؟

قالت الأم :

— نعم ، لك أن تلبسيه كما تحبين ، ولكنى أكثر ثقة بأثر الركن
الذى سوف تشيدينه فى غرفتك ، ويقىنى أنك تكسين نصف المعركة
إذا ما اقتنعت بجمال إنكار الذات . والآن يجب أن أعود إلى بث ،
فاجمعى شجاعتك يا بنيتى الصغيرة ، ولن يمضى وقت طويل حتى يجتمع
شملنا مرة ثانية .

وبينما كانت ميج تكتب فى المساء خطاباً لأبيها ، تخبره فيه بسلامة
وصول أمها ، انسلت چو إلى حجرة بث حيث تجلس أمها — كعادتها —
فى المقعد الكبير ، ثم وقفت خلفها وهى تعبت بأصابعها فى شعرها القصير
وقد بدا عليها الشرود والحيرة ، فأمسكت الأم بيد چو ، وقالت ، وفى
عينها نظرة تبعث على الثقة :

— ماذا يحيرك يا چو ؟

قالت :

— أريد أن أحدثك فى أمر يا أماه .

قالت :

— بشأن ميج ؟

قالت چو :

— ما أسرع إدراكك للأمور ! نعم إنه بشأن ميج . هي أمور تافهة ، ولكنها تقلقني بعض القلق .

فقالت الأم في لهجة حادة نوعاً :

— إن بث نائمة ، فتكلمي في صوت منخفض ، وقولي ما يقلقك . آمل أن لا يكون ذلك الفتى موفات قد جاء إلى هنا في غيبتي ؟

قالت وهي تجلس على الأرض عند قدمي أمها :

— لا ، لو أنه حضر لأغلقت الباب في وجهه ، الأمر يختص بشخص آخر ، ولعلك تذكرين أن ميج تركت قفازها في صندوق بريد آل لورنس في الصيف الماضي ، ولكننا لم نجد منه سوى فردة واحدة ، ولقد نسينا أمرها إلى أن أخبرني لوري ذات يوم ، بأن بروك يحتفظ بالفردة المفقودة في جيب صدره ، ولقد سقطت مرة أمام لوري ، فلما سأله عن سرها ، قال مستر بروك إنه معجب بميج ، ولكنه لا يجرؤ على التصريح بذلك ، لأنها ما زالت صغيرة ، وهو ما زال فقيراً . . ألا ترين معي أن الأمر مخيف بهذا الوضع ؟

قالت مسر مارش في لهفة :

— أتظنين أن ميج تهتم بأمره ؟

صاحت چو بلهجة اختلط فيها الاهتمام بالاحتجاج :

— وكيف أعرف وأنا أجهل ما يكون بمسائل الغرام وسخافاته ؟ ؟

إن الفتيات في القصص يظهرن الغرام بإجفلهن واخمرار وجوههن خجلاً ، وبإغمائهن ونحول أجسادهن ، وتصرفاتهن الخرقاء . ولكني لا أرى هذه العوارض على ميج ، فهي تأكل وتشرب وتنام كأى إنسان عاقل ، وإذا ما حدثتها عن الرجل ، نظرت إلى بعين ثابتة ، دون أن يحمر وجهها ، إلا في بعض الأحيان ، عندما يقص تيدى فكاهات عن العاشقين والمحبين . ولقد منعتة ونهرته دون جدوى .

قالت :

— إذاً فأنت لا تعتقدين أن ميج تهتم بأمر چون ؟

صاحت چو مجفلة :

— من ؟

قالت :

— مستر بروك ، إنى أدعوه چون الآن ، بعد أن زالت الكلفة بيننا

في المستشفى ، وهو يرحب بهذه التسمية .

قالت چو وهى تشد شعرها بعنف وغيظ :

— يا إلهى ! كنت على يقين من أنه سيلعب ذلك الدور ،

فيظهر الاهتمام والعناية بأبى ، وعندئذ لن ترفضيه زوجاً لميج . . .

يا للوضاعة ! يغرق أبى فى العناية ، ويمعن فى استرضائك ، حتى ينال رضا كما عنه .

قالت الأم :

— لا تثورى ولا تغضبى يا عزيزتى ، وسأحدثك كيف سارت الأمور إلى وضعها الحالى . لقد ذهب چون معى بناء على رغبة مستر لورنس ، ولقد تفانى فى خدمة أهلك ، حتى لم نتمالك أنفسنا من محبته . وكان صريحاً أميناً فى شأن ميج ، وصارحنا بحبه لها ، وأخبرنا أنه سينتظر حتى يهين لنفسه بيتاً مريحاً قبل أن يتزوج منها . ولم يسألنا شيئاً سوى أن نصرح له بأن يحبها وبأن يعمل من أجلها ، وبأن يجعلها تحبه إذا أمكن . إنه فى ممتاز فى الواقع ، فلم نقو على صده ، ولكن ميج ما زالت صغيرة السن ، ولا يصح أن تتزوج الآن .

قالت چو :

— طبعاً لا توافقين على هذا الغباء ! كنت متأكدة من أنه يدبر المكائد ، وقد أحسست بذلك طوال الوقت ، ولكنى ما تصورت أن تصل النتائج إلى هذا الحد ، ليتنى أستطيع نفسى أن أتزوج ميج ، لأحفظها مصونة فى الأسرة .

وبعثت هذه الأمنية الابتسام إلى شفتى مسر مارش ، ولكنها قالت

فى جد :

— لقد وضعت ثقتى فىك يا چو ، وأطلعتك على سر أريد أن

لا تعرف به ميج فى الوقت الحاضر ، وعندما يعود چون ويجمع بميج هنا ، يمكننى أن أحكم على شعورها نحوه .

قالت الفتاة :

— سوف تقرأ عواطفه فى عيونه التى كثيراً ما تتحدث عن جمالها ، فينتهى أمرها بحبه . إن لها قلباً رقيقاً لا يلبث أن يدوب تحت وطأة نظراته العاطفية . إنها تقرأ الخطابات التى يرسلها أكثر مما تقرأ خطاباتك أنت ، فإذا سألتها لماذا تفعل ذلك ، نهرتنى ، كما أنها تحب العيون العسلية ، وترى أن چون وسيم الشكل ، وسوف تغرق فى حبه ، وسلام على أيام الضحك والهدوء والسرور . إنى أرى المستقبل أسمى واضحاً ، فسوف يروحان ويحيثان ويملآن البيت بالغرام ، وسيشغل حبه قلبها ، فلا يبقى لى متسع فيه ، ولن يعجز بروك عن تدبير المال بأية طريقة ممكنة ، ثم يأخذها منا ، فتترك فراغاً فى الأسرة . إن قلبى يتحطم لفراقها ، والدنيا من بعدها تغدو قبيحة .. يا إلهى ! لماذا لم تخلقنا جميعاً صبياناً ، حتى لا نقاسى مثل هذا المصير ؟ !

وأسندت چو ذقنها إلى ركبته فى حزن وغضب ، وتنهدت مسر مارش ، فنظرت چو إليها وقد علا وجهها الارتياح ، وقالت :

— يسعدنى أن أراك غير مسرورة بهذا الموضوع يا أماء ، فهيا نرسله لحال سبيله دون أن تعرف ميج ، وبذلك تعود حياتنا إلى سعادتها كما كانت دائماً .

قالت :

— لقد أخطأت بتنهدى يا چو ، فالزواج أمر طبعى ، وستذهب كل منكن إلى بيتها الخاص عندما يحين الوقت المناسب . ولكنى أحب أن أحتفظ ببناتى أطول وقت ممكن ، ويؤسفنى أن يحىء دور ميج بهذه السرعة ، فهى فى السابعة عشرة ، وما زال أمام چون بضع سنوات حتى يتمكن من تهيئة بيت الزوجية لها . ولقد اتفقت مع أبيك أن لا نسمح بارتباط أو خطبة قبل أن تتم العشرين . فإذا تبادلا الحب كان الانتظار ممكناً ، وكان فيه محك لهما . إنها فتاة حساسة ولا يقلقنى أن تعامله بالعطف ، وأدعو الله أن يمهدها سبيل السعادة لأنها جميلة طيبة القلب .

فقالت چو ، وقد لاحظت تعثر الكلمات الأخيرة فى فم أمها :

— ألا ترين من مصلحتها أن تتزوج رجلاً غنياً ؟

قالت :

— إن المال شىء جميل نافع ، وأدعو الله أن لا يعوزكن إليه ، كما أضرع إليه أن لا تخدعن بكثرتة . وكل ما أرجوه أن أطمئن إلى أن چون قد أصبح ذا مكانة مالية مستقرة ، تأتية بما يكفل له وليمج الراحة ، وتبعد عنه شبح الديون والفاقة . لست أطمع لبناتى فى ثروة ضخمة أو جاه عريض ، ولكن إذا جاء المال والجاه مع الحب والفضيلة ، فمرحباً بحسن طالعكن . إنى أعلم بالتجربة كيف تعمر السعادة بيوتاً عادية لا تملك سوى قوت يومها ، فبعض الحرمان يكسب مباحج الحياة الصغيرة أهمية ،

ويزيد وقعها جمالا في النفس . إني راضية أن تبدأ ميح حياتها في تواضع ،
وإن لم أكن مخطئة فستكون غنية بحبه العظيم ، وقلبه الكريم ، ورجولته
المتأززة . أفليس هذا أغلى من المال وأعظم ؟

قالت چو بوجه أكثر إشراقاً من ذي قبل :

— إني مقدرة كل ذلك يا أماء ، وأوافقك عليه ، ولكنني صدمت
في أمر ميح ، فقد كنت أتمنى أن تتزوج لوري ، حتى ترفل في حلل
السعادة طول حياتها . ألا توافقيني على ذلك ؟

فقلت مسر مارش :

— إنه أصغر منها سنأ ، كما تعلمين .

فقاطعتها چو قائلة :

— وهل من أهمية لذلك ؟ إنه طويل القامة ، راجح العقل ، قوى
الشخصية ، ويمكنه إذا أراد أن يبدو أكبر سنأ من حقيقته . ثم إنه غني
كريم طيب يحبنا جميعاً ، ويعطف علينا ، ويحزني أن تذهب آمالي
هباء .

قالت أماء :

— أخشى أن لوري لا يناسبها سنأ ، ثم إن العواطف في مثل هذه
المرحلة المبكرة ، تكون كثيرة التقلب والتغير . فلا تضعي خططاً بعد
ذلك يا چو ، واطركي الأمور تسير في مجاريها ، فمن الأسلم أن لا نحشر
أنفوسنا في مثل هذه الأمور ، ومن الخير أن لا نكون « عاطفين سخفاء »

على حد تعبيرك ، وإلا أفسدنا جمال الصداقة بأيدينا .

قالت چو :

— حسناً ، لن أرسم خطأً بعد الآن ، ولكنى أمقت أن نترك الأمور تتعقد هكذا ، في الوقت الذي قد يصلحها جذب منا وشد من هناك . كنت أتمنى أن يقف نمونا عند هذا الحد ، ولكنه أمل مستحيل ، فالبراعم تنمو ، فتخرج أزهاراً ، والقטיפات تصير قطعاً ، مع بالغ الأسف .

وكانت ميج قد انتهت من خطابها فتسللت إلى الحجرة في هدوء ، وما لبثت أن سألت قائلة :

— ماذا تقولين عن القطط والبراعم ؟

فنهضت چو عن مقعدها وقالت :

— هذه إحدى خطاباتي السخيفة ، فهيا بنا يا ميجى إلى فراشنا .

وقالت مسر مارش بعد أن قرأت الرسالة التي كتبتها ميج لأبيها :

— جميلة ، وأسلوبها لطيف ، فأرجو أن تضيفي إليها تحياتي إلى

چون .

فقالت ميج وهي تبسم وتنظر إلى أمها بعيون ساذجة بريئة :

— أتنادينه چون ؟

قالت الأم ، وهي تتأمل وجهها فاحصة :

— نعم ، فقد غدا كولد لنا ، ونحن نكن له كل الحب .

أجابت ميج في هدوء :

— إني مسرورة بذلك ، فهو وحيد في حياته . مساء الخير يا أماه ،
إن في وجودك معنا راحة لا توصف .

وقبلت الفتاة أمها ، وكانت قبلة الأم عامرة بالعطف والإخلاص ،
فلما ذهبت ميج إلى غرفتها ، قالت الأم لنفسها في مزيج من الرضا
والأسف :

— إنها لا تحب چون الآن ، ولكنها ستتعلم أن تحبه سريعاً .



الفصل الواحد والعشرون لورى يصنع الشر وچو تنشر السلام

طلع اليوم التالى وقد أثقل السر قلب چو ، وعلا وجهها تعبير من الغموض والاهتمام . ورأت ميج ما بأختها ، فلم تشأ أن تستفسر منها عن أسبابه ، عالمة بأن التظاهر بعدم الاهتمام خير وسيلة إلى معرفة ما تخفيه عنها . ولكن ، لدهشتها ، ظلت چو تكتم ما بنفسها ، كما راحت تحيطها برعاية مضاعفة ضايقت ميج فابتعدت متعالية وكرست وقتها لخدمة أمها . ولما كانت مسر مارش قد حلت محل چو فى تمريض بث ، راجية أن

تأخذ الفتاة نصيبها من الراحة والرياضة ، فقد وجدت چو أنها وحيدة منفردة ، لا ملجأ لها سوى صديقها لورى . وكانت تميل إلى صحبة الفتى وتجد فيها متعة عظيمة ، ولكنها كرهت أن تقابله فى هذه الآونة ، خشية أن يدفعها بإلحاحه إلى الاعتراف له بالسر الدفين .

وكانت محقة فى خوفها . فما إن شعر الفتى الماكر بأنها تخفى عنه أمراً ، حتى قرر أن يعرفه بكل وسيلة ، وبذا أحال حياتها جحماً . وكانت له أساليب فى إغرائها بالكلام ، فرة يرجوها أن تكون صريحة معه ، فإذا لم تستجب للرجاء ، حاول أن يرشوها بالوعود ، أو يعمد إلى السخرية منها ليغيظها ، أو ينهرها بقسوة دون سبب . وقد جرب أيضاً أن يهمل الموضوع بعض الوقت ، ثم يفاجئها بالسؤال عسى أن يسبق لسانها عقلها ، فتجيبه بالحق دون حذر ؛ ولكن حيله وأساليبه باءت بالفشل ، فأراد أن يرضى كبريائه الجريئة بقوله إن السر الذى تخفيه يتعلق بميج وبروك . . وكانت شكوكه فى الواقع تدور حول هذا الموضوع ، وكان يؤله أن يخفى رائده أمراً من أموره عنه .

وانشغلت أسرة مارش بالاستعداد لاستقبال عائلها المريض ، فبدا كأن ميج نسيت مشاغل چو وبواعث قلقها ، ثم لم تمض أيام معدودات حتى ظهر التغير واضحاً عليها ، فأصبحت تجفل لآى حديث يوجه إليها ، ويحمر وجهها لنظرات أخوتها ، وكسا الوجوم وجهها المشرق ، فكانت تجلس إلى تطريزها صامتة شاردة البال ، وكانت

ضيق الصدر بكل ما حولها ، إذا سألتها أمها عن حالها ، أنكرت أن
أمراً يشغلها ، وإذا أشارت چو إلى وجومها ، نهرتها غاضبة متضايقه .
قالت چو لأمها ، وقد أنمعت أن تقوم بأى عمل إيجابى عفيف
لإنقاذ أختها :

— إنها تسير فى طريق الحب مسرعة ، ومعظم أعراض الغرام قد
ظهرت عليها : فهى نافذة الصبر غاضبة ، لا تأكل ، ولا تنام ، وتفضل
أن تنزوى فى الأركان الهادئة طوال اليوم . ولقد ضبطتها تغنى أغنية
« الغدير ذى الخريز الفضى » ، كما أنها قالت « چون » مرة عند
الحديث عن بروك ، ثم ما لبثت أن احمر وجهها كزهرة الخشخاش
البرى ، فماذا نصنع بالله لإنقاذها ؟
أجابت أمها :

— لا شىء سوى الانتظار ، ومن الخير أن ندعها وشأنها ، قانعات
بالعطف عليها ، حتى يصل أبوك ويسوى الأمور بنفسه .
وفى اليوم التالى دخلت چو ومعها محتويات صندوق البريد ،
وقالت لميج :

— هاك رسالة لك . والغريب أن مظروفها مقفل ، مع أن تيدى
لا يقفل رسائله مطلقاً .

وبينما چو ووالدها فى شغل عن ميج بأموهرما ، ند عن الفتاة صوت
عجيب ، لفت أنظارهما إليها ، فإذا بها تقرأ الرسالة خائفة ، وأسرعت

الاثنان إليها ، الأم تسألها عن فزعها ، وچو تحاول أن تأخذ الرسالة التي تسببت فيه ، قالت الأم :

— ماذا بك يا بنيتي ؟

وأخفت ميج وجهها بين يديها وهي تبكي وتقول :

— لا بد أن هناك خطأ ما ، لا يمكن أن يبعث إلى "بمثل هذه الرسالة.

أنت التي فعلت ذلك يا چو ، فكيف تجرئين ؟ !

وصاحت چو في وجل :

— أنا ؟ ماذا فعلت ؟ وماذا تقصدين بكلامك هذا ؟

وأخرجت ميج من جيبها رسالة مكورة ألقته إلى چو ، وقالت تعاتبها

في غضب :

— أنت التي كتبت هذه الرسالة بمعونة صديقك اللئيم لورى ،

فكيف سول لكما الشر أن تفعل ذلك ؟ إنها خسة وقسوة منكما أنتما الاثنين .

ولم تسمع چو قولها ، لأنها كانت في شغل بقراءة الرسالة التي كانت

مكتوبة بخط غريب ، وقد جاء فيها :

« مارجریت يا أعز الناس

» لم يعد في مقدورى أن أكتب عواطفى بعد الآن ، وأود أن أعرف

مصيرى قبل أن أعود . إني لا أجروء بعد على مفاتحة والدك ، ولكنى

أظن أنهما سيوافقان إذا علما بأن كلا منا يحب الآخر . إن مستر لورنس

سوف يساعدننى فى الحصول على مركز طيب ، وعند ذلك يا فتاتى الحميلة ، سوف نكون سعداء إلى الأبد . أتوسل إليك أن لا تقولى شيئاً للأسرة فى الوقت الحاضر ، كما أتوسل إليك أن ترسلنى كلمة واحدة مع لورى تبعث الأمل فى قلبى .

من محبك

چون»

صاحت چو :

— يا للوغد الصغير ! لقد أراد أن ينتقم منى بهذه الطريقة لكتمانى السر عنه ، سوف أقتله تأنيباً ، وآتى به ليقدم إليك اعتذاراته .

وكانت تلهب غضباً ، وكلها عزم على تنفيذ وعيدها فوراً ، ولكن أمها منعتها ، وقالت لها بلهجة صارمة :

— انتظرى يا چو ، لا تذهبى قبل أن تبرئى نفسك من تهمة الاشتراك فى تحرير هذه الرسالة ، فكثيراً ما قمت بمثل هذه الألاعيب ، وأخشى أن يكون لك يد فيما حدث .

قالت چو فى لهجة حارة تدعو إلى التصديق :

— أقسم لك يا أماه أن لا يدلى فى ذلك ، ولم أر هذه الرسالة قبل الآن ، ولا أعرف شيئاً عنها . وثقى أننى لو أردت القيام بشىء من هذا القبيل ما كتبت هذه الرسالة السخيفة ، لأننى أعرف أن مستر بروك لا يكتب شيئاً مما جاء فيها :

فقلت ميج فى تباطؤ وهى تقارن الرسالة برسالة أخرى :
— إن الخط فيهما متماثل .

فصاحت مسز مارش بسرعة قائلة :

— وهل رددت على الرسالة الأولى يا ميج ؟

فغطت ميج وجهها بيديها خجلاً ، وقالت :

— نعم رددت عليها يا أماء .

فصاحت چو وهى تتجه مرة ثانية نحو الباب :

— هذه هى البلوى الكبرى ! سأتى بهذا الفتى الشرير ليشرح لنا
الأمر ، فنعلمه الأدب . لن يستريح لى بال حتى أقبض عليه .

فقلت مسز مارش فى لهجة أمرة ، وهى تمسك بيد چو لتمنعها من

الخروج :

— صه ! اتركى الأمر لى ، فقد تعقد الموقف أكثر مما كنت أتوقع .

قصى على يا مارجريت كل ما حدث .

قالت ميج دون أن ترفع رأسها :

— وصلنى الخطاب الأول منه ، وقد جاءنى به لورى ، ولم يكن

يبدو عليه أنه يعلم شيئاً مما فيه . . وتملكتنى الحيرة بادئ ذى بدء ،

وكنت أنتوى أن أخبرك بكل شىء ، ولكنى عدت فتذكرت أنك تعترين

بصدافه مستر بروك ، وقد تغضبين عليه إذا عرفت برسالته ، فظننت

أن الاحتفاظ بالسر أياماً لا يضير أحداً . وبينما كنت أجمع شتات

ذهنى لأرد على الرسالة ، شعرت كما تشعر الفتيات فى الكتب والقصص .
اصفحى عنى يا أماء ، فقد نلت جزاء حماقتى . لن أستطيع بعد اليوم أن
أنظر فى وجهه .

فسألتها مسز مارش :

— وماذا قلت له فى رسالتك ؟

قالت :

— لم أقل سوى أنى ما زلت أصغر سنّاً من أن أتخذ قراراً فى هذا
الأمر ، وأنه يسوعنى أن أكنم عن والدتى سرّاً من أسرارى ، ونصحتته بأن
يصارح أبى بكل شىء . ثم شكرته على عطفه ، ووعدت بأن أكون
أبد الدهر صديقة لا أكثر ولا أقل .

وابتسمت مسز مارش كأن جواب ابنتها قد سرها ، وصفقت چو
بكفيها معجبة راضية ، وقالت :

— يا لك من جريئة ! وماذا قال لك ردّاً على هذا يا ميج ؟

قالت :

— كانت رسالته الثانية مختلفة تماماً ، فقد أكد فيها أنه لم يرسل أى
خطاب غرامى ، وأنه يأسف أن تتخذ چو من اسمينا موضوعاً لتفككهها
وسخريتها . كان ردّاً مليئاً بالعطف ، ولكن تصورى فظاعة موقفى ومبلغ
إحراجى .

واستندت ميج إلى والدتها ، وهى فى غاية اليأس والحزن ، وراحت

چو تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وهى تصب اللعنات على لورى . وتوقفت فجأة ثم أمسكت بالخطابين تفحصهما بدقة ، وقالت بثقة :

— لا أصدق أن بروك علم بهاتين الرسالتين أو رآهما . لقد كتبهما تيدى بنفسه ، وتركك تظنين السوء بى ، لأنى رفضت أن أطلععه على سرى .
 قالت ميج تحذر أختها :

— لا تكتمى عن أمنا سرّاً يا چو ، وكونى صريحة معها كما فعلت أنا الآن .

قالت چو :

— لك الله يا طفلى ، إنها والدتى التى أخبرتنى بالسر .

قالت مسز مارش :

— هذا يكفى يا چو ، أحضرى لى لورى ، سوف أفحص الأمر حتى أصل إلى قرارته ، وأضع حدّاً لهذه المهازل .

وعندما انصرفت چو جرياً ، جلست مسز مارش إلى ميج تحدثها بحقيقة شعور مستر بروك نحوها ، وأخيراً سألتها فى رفق :

— والآن يا عزيزتى صارحينى بحقيقة شعورك نحوه ، أتحبينه إلى الدرجة التى تجعلك تنتظرينه حتى يهين لك منزلاً صالحاً؟ أم أنك تفضلين البقاء حرة فى الوقت الحاضر؟

قالت ميج فى ذلة واضطراب :

— لقد أصابنى الخوف والقلق إلى درجة أفضل معها أن لا أحشر

نفسى فى أمور الحب لمدة طويلة ، وربما إلى الأبد . فإذا كان چون
لا يعلم بهذه السخافات التى حدثت اليوم ، فمن الخير أن لا تخبريه
بها ، وشددى على چو ولورى بأن يمسكا لسانيهما . . أيرضيك أن أخدع
ويساء إلىّ وأصبح أضحوة للناس ؟ يا للعار !

ورأت مسز مارش كيف أثارت المزحة الشريرة غضب ميج ذات
الطبع الهادى ، فجعلت تسرى عنها ، وتعدّها بكتمان الأمر كتماناً تاماً .
وما إن سمعت ميج وقع أقدام لورى فى الردهة ، حتى انصرفت عن الغرفة
مسرعة ، وهكذا تلقت مسز مارش المذنب وانفردت به وحدها . ولم
تكن چو قد أخبرته بشىء ، خشية أن يرفض الحضور لمقابلة أمها ،
ولكن الفتى فهم الحقيقة بمجرد أن رأى وجه الأم واستشف حرج الموقف
فوقف يثنى حافة قبعته بيديه فى حركة عصبية ، وقد علا وجهه سيماء
المذنب العارف بذنبه .

وفى خارج الغرفة جعلت چو تذرّع الردهة جيئةً وذهاباً أمام الباب ،
كالديدبان الحارس ، حتى تمنع المتهم من الفرار إذا أراد ، وكانت
الأصوات تصل إليها من الداخل تارة عالية ، وأخرى منخفضة لمدة
نصف ساعة ، ولكنها لم تدرك على وجه التحقيق ما دار خلال تلك الفترة
بين الفتى وأمها . فلما نادتها أمها ، وجدت لورى يقف إلى جانبها ،
وعلى وجهه سيماء الأسف الشديد ، حتى بلغ بها العطف عليه أن صفحت
عنه ، ولكنها لم تعلن صفحتها حتى لا تمحو أثر تأنيب أمها له . وتقبلت

ميج اعتذاره عما بدر منه ، وارتاحت كثيراً عندما أكد لها أن بروك لا يعرف شيئاً على الإطلاق مما جرى ، وقال أخيراً :

— لن أقول له شيئاً حتى يوم الممات ، وأنا على استعداد أن أفعل ما تريدن لتتأكدى من عظيم أسفى على ما بدر منى ، فهلا صفحت عنى يا ميج ؟

قالت فى لهجة عتاب تخفى بها اضطراب نفسها :

— سأحاول أن أصفح عنك ، ولكنك جافيت دواعى الرجولة بما فعلت ، ولم أكن أتصور مطلقاً أن يصل بك المكر والشر إلى هذا الحد يا لورى .

فضم القى يديه فى رجاء ، ونظر إليها بمسكنة واستعطاف ، ثم قال :

— لقد ارتكبت خطأ بالغا ، أستحق من أجله أن تخاصمينى شهراً على الأقل ، ولكن ألا تسامحينى بعد ذلك يا ميج ؟

وكان يتكلم بلهجة كلها إخلاص وصدق ، جعلت من المتعذر عليها أن تقطب وجهها رغم سلوكه الفاضح ، فصفحت عنه ، ولان وجه مسر مارش بعد جمود ، وابتمت عندما سمعته يتضرع إلى الله أن يحوله إلى حشرة تطوها قدما ميج ، جزاء وفاقاً لما فعل .

وكانت چو تقف بعيداً وهى تحاول أن تقسى قلبها عليه ، ولكنها لم تفلح فى ذلك ، فاكتفت بأن تتظاهر بعدم المبالاة به . وتطلع إليها

لورى مرة أو مرتين ، فلما لم ير على وجهها أمارات اللين والعطف ، أدار ظهره لها حتى استرضى الآخرين ، ثم انحنى لها انحناءة كبيرة ، وخرج من الحجرة دون كلمة واحدة .

وعندما غاب الفتى عن ناظرها ، أسفت لمبالغتها في القسوة عليه ، فلما صعدت أمها ومييج إلى الدور العلوى ، أحست بالوحدة والوحشة ، وتاقت نفسها إلى صحبة صديقها تيدى . وحاولت أن تقاوم رغبتها في مصالحته ، ولكن عطفها غلبها على أمرها ، فتأبطت كتاباً كي تعيده للفتى ، وسارت إلى البيت الكبير . وهناك رأت خادماً تهبط السلم فمألتها :

— هل مستر لورنس موجود ؟

قالت الخادم :

— نعم يا آنسة ، ولكنى لا أعتقد أنه يرغب فى رؤية أحد .

سألتها :

— ولم لا ؟ أهو مريض ؟

قالت :

— لا يا آنسة . ولكن حدثت مشادة بينه وبين حفيده مستر لورى

بسبب بعض تصرفات أغضبت السيد العجوز ، ولذا لن أجرؤ على دخول غرفته الآن .

سألتها :

— وأين مستر لورى ؟

قالت :

— فى حجرته ، وقد أغلق دونه بابها ، ولم يشأ أن يجيب على طرقاتى المتتالية ، ولست أدرى ما العمل ، فالطعام على المائدة ، وكلاهما لا يريد أن يأكل .

قالت :

— سوف أذهب لأتبين الخبر ، فلست أخاف واحداً منهما .
وصعدت چو ، وطرقت باب حجرة لورى فى رقة ، فأجاب الفتى بصوت عامر بالوعيد والتهديد ، يقول :

— كفى عن الطرق ، وإلا خرجت إليك ، وأنزلت بك ما تكرهين !
ولكن چو طرقت مرة أخرى ، فانفرج الباب فى شدة ، وعندئذ قفزت چو إلى داخل الغرفة قبل أن يستفيق الفتى من دهشته فيمنعها من الدخول . وبنظرة واحدة أدركت مدى حزنه وغضبه ، فتظاهرت بالخوف والانكماش ، وقالت وهى تركع أمامه بحركة تمثيلية :

— سامحنى يا لورى ، لقد جئت لمصالحتك ، ولن أعود حتى تغفو عني .

قال فى سماحة الفتى النبيل :

— لقد صفحت وعفوت ، فانهضى من ركعتك وكفاك حماقة .

قالت :

— شكراً ، ولكن هل لى أن أسألك عما جرى ؟ لست أراك مرتاح النفس .

فزجر لورى فى غيظ ، وقال :

— لقد نلت من التأنيب أكثر مما أحتمل .

قالت :

— ومن أنيبك ؟

قال :

— جدى ! ولو كان شخصاً آخر ما . . .

وقطع الفتى جملته بحركة عنيفة من ساعده .

فقالت تهدئه :

— وماذا فى ذلك ؟ كم أنبتك ولم تغضب منى ؟

قال :

— هراء ! أنت فتاة وتأنيبك يسلىنى ، ولكنى لن أسمح بذلك لأى

رجل كان .

قالت :

— لن يجرؤ أحد على تأنيبك وأنت فى مثل هذه الثورة العاتية فاطمئن

ولكن أخبرنى بالله عليك ، لماذا غضب عليك كل هذا الغضب ؟

قال :

— لأنى رفضت أن أخبره لماذا أرسلت أمك لاستدعائى ، كنت قد

وعدتها بالكتمان فلم أشأ أن أنقض عهدي .

قالت :

— ألم يكن في مقدورك أن تسترضيه بشكل ما ؟

قال :

— لا ، فقد أصر على معرفة الحق كل الحق ولا شيء غير الحق .

ولو كان بوسعي أن أعترف له بالدور السافل الذي لعبته ، دون ذكر اسم ميج ، ما ترددت ، ولكني لم أستطع فسكتُ وتحملت تعنيفه حتى أمسك بينيقتي ، وعندئذ ثارت براكين غضبي ، فهربت منه قبل أن أفقد سيطرتي على نفسي .

قالت :

— هذا أمر محزن للغاية ، ويقتني أن جدك أسف على ما فعل ،
فهيا بنا نهبط إليه ، أنت تسأله الصفح وأنا معك أعاونك .

قال :

— لن أذهب ولو شنقتني ! ولن أقبل أن يؤنبني الناس كلهم من أجل مزحة بريئة ، لقد اعترفت بخطأي لميج واعتذرت لها ، وفي هذا الكفاية .

قالت :

ولكنه لا يعرف بذلك .

قال :

— كان من الواجب أن يثق بكلامي ولا يعاملني كطفل صغير .

وعلى كل حال يا چو ، لقد آن الأوان أن يعرف بأنى كبرت ولست فى حاجة إلى من يعنى بأمورى ، ولن يرضينى أن أتعلق بأذياله لأعيش .

فتنهدت چو وقالت :

— خل عنك هذه الأقوال اللاذعة ، وخبرنى كيف تنوى أن تنهى

الأمر بينكما ؟

قال :

— عليه أن يعتذر لى ، لأنه لم يثق بكلامى ، ولم يصدق أن لى عذراً

وجيهاً يمنعنى من الإفضاء إليه بما حدث .

قالت :

— رحماك يا إلهى ! لن يعتذر لك .

قال :

— لن أخرج من غرفتى إذا لم يعتذر .

قالت :

— كن عاقلاً يا تيدى ، ولا تعقد الأمور هكذا ، فأنت لا تستطيع

أن تبقى فى غرفتك إلى الأبد ، وفى مقدورى أن أفسر له ما حدث ، وأصلح الموقف .

قال :

— لن أبقى هنا طويلاً على أى حال ، فى نيتى أن أنسل خارجاً من

البيت ، ثم أرحل إلى جهة ما ، وسيأتينى جدى عند ما يفتقدنى .

قالت :

— هذا جائز ، ولكن لا يصح أن تقلقه بغيابك .

قال :

— كفى وعظاً ونصحاً ، ودعيني أسافر إلى بروك في واشنطنجتون ،
فالحياة فيها مرحلة مسلية ، ومن حق أن أرفه عن نفسي بعد هذه المتاعب
الكثيرة .

قالت ، وقد أضعفت صور العاصمة الخلافة قدرتها على نصحه :

— يا للمتعة ! ليتنى أستطيع أن أرحل إليها معك .

قال :

— تعالى معي إذاً ، وسوف يسر أبوك بحضورك ، كما يسر بروك
بحضورى . ستكون فرصة عظيمة ، فهيا بنا نساfer يا چو ، وأرى أن نترك
لهم خطاباً مطمئناً ، ثم نرحل على التو . إن معى من المال ما يكفيننا ، ولن
يضر بك السفر ، بل قد تستفيدين فائدة عظمى إذا ذهبت إلى أبيك .

وراقتها الفكرة رغم ما فيها من جموح ، ومضت لحظة خال الفتى فيها
أن چو على وشك أن تقبل اقتراحه . وكانت تعباً مرهقة تتوق إلى تغيير
أسلوب حياتها الرتيب ، وأغررتها أكثر وأكثر فكرة السفر إلى أبيها ، ومتعة
التفرج على المستشفيات والمعسكرات . ولعلت عيناها وهما تنظران واجتمعتين
خلال النافذة ، ولكن نظراتها وقعت على بيتهم السعيد العتيق ، فارتد إليها
عقلها ، وهزت الفتاة رأسها فى حزن ، وقالت بإصرار :

— لو كنت صبيًا ، ما ترددت في الهرب معك إلى حيث نسعد بأوقاتنا ، ولكني مع الأسف فتاة تعسة ، ومن واجبي أن أراعى الآداب والتقاليد ، وأقنع بالبقاء في البيت . لا تُغرنى يا تيدى ، فإن الفكرة كلها هوس وجنون .

قال لورى ، وقد تملكته الرغبة في الخروج على قواعد العرف المألوف :

— وهذا ما يجعلها شائقة ممتعة ! !

صاحت چو ، وهى تغطى أذنيها كيلا تسمع كلامه :

— أمسك لسانك ، فإن مكانى الوحيد فى البيت ، ويجب أن أسلم بذلك . لقد جئت أنصحك ، فلا يجوز أن أقتدى بك .

قال يحاول إقناعها :

— قد تثبط ميج عزيزتى إذا عرضت عليها خطتى ، ولكنك تمتازين عنها بالجرأة والشجاعة .

قالت :

— اسكت أيها الشرير ! اخل إلى نفسك وحاسبها على خطاياها ، وإياك أن تغرينى بمضاعفة ذنوبى وأخطائى . ماذا تقول إذا جعلت جدك يعتذر لك عما بدر منه ؟ أيكيفيك هذا لتعدل عن السفر إلى واشنطن ؟ أجاب لورى ، وهو يتمنى أن توفق چو فى هذه المهمة كى يرضى كبريائه الجريحة :

— نعم ، ولكنك لن تفلحى .

قالت الفتاة فى نفسها :

— إذا كنت قد نجحت فى إقناع الحفيد العنيد ، فلم لا أنجح فى

إقناع الجد العجوز ؟

وانصرفت چو من الغرفة ، وقد تركت لورى خلفها ينعم النظر فى

خريطة أمامه ، ورأسه بين يديه .

وطرقت باب حجرة مستر لورنس ، فأجابها يقول بصوت خشن

غاضب :

— ادخل .

قالت وهى تدخل الحجرة بجرأة :

— جئت يا سيدى أعيد الكتاب .

فسألها العجوز وهو يحاول أن يخفى غضبه وحزنه :

— أتريدى كتاباً آخر ؟

قالت وهى تأمل أن تسترضيه إذا طلبت كتاباً لمؤلف يعجبه :

— نعم من فضلك ، فقد أعجبنى الجزء الأول الذى نصحتنى به ،

ويسرنى أن أقرأ الجزء الثانى إذا سمحت .

وانفجرت أساريه قليلا ، وناولها السلم الذى تستطيع أن تصل به إلى

الأرفف العليا ، فصعدته غير متوانية ، وهى تتظاهر بأنها تبحث عن

الكتاب الذى تريده .

وكانت فى الحقيقة تبحث فى عقلها عن طريقة تبدأ بها الحديث الخطير الذى جاءت من أجله ، وبدأ على مستر لورنس أنه أحس بشيء مما يحول فى خاطرها ، فبعد أن سار بضع خطوات سريعة فى الحجرة ، التفت إليها يقول فجأة :

— ماذا فعل الصبي ؟ إياك أن تدافعى عنه ، فأنا واثق بأنه أخطأ ، وقد رأيت فى وجهه سيماء المذنب ، ولكنى لم أفصح فى انتزاع كلمة منه ، ولما هددته ، تملص منى وهرب إلى غرفته ، وأقفل بابها دونى .
قالت چو ببطء :

— لقد أخطأ فعلاً ، ولكننا صفحنا عنه ، وأخذنا منه وعداً أن لا ييوح بالأمر لأحد .
قال :

— هذا لا يجوز ، ولن أرضى أن يحتذى بقلوبكن الطيبة من العقاب الذى يستحقه . إذا كان قد أخطأ ، فعليه أن يعترف بخطئه ، ويطلب الصفح ، ويرضى بالعقاب . أخبرينى بالحقيقة يا چو ، ولا تتركينى أتخبط فى ظلام الجهل .

وارتعدت الفتاة لنظراته الرهيبة ، وشعرت برغبة شديدة فى الهرب من حضرته ، ولكن فكرة وجودها فى أعلى السلم بعيدة عنه ، منحتها الشجاعة على مواجهة الموقف . قالت :

— صدقنى يا سيدى إننى لا أستطيع الكلام ، فقد نهتنا أمى عن

الحديث فى الموضوع ، وأمرت أن لا نشير إليه من قريب أو من بعيد .
 أما لورى ، فقد اعترف بخطئه ، وطلب المغفرة ، ونال العقاب الكافى .
 لا تظن أننا نحميه بسكوتنا ، بل نحن نحمى شخصاً آخر ، وأخشى أن
 تتعقد الأمور إذا تدخلت يا سيدى ، فأرجوك أن لا تفعل ذلك . إننى
 مسئولة عن بعض ما حدث ، ولكن الأمور استقامت والحمد لله ، ومن
 الخير أن ننسى الماضى ، ونتكلم فى موضوع أفضل .

قال :

— انزلى عن هذا السلم ، وطمئنى إلى أنه لم يفعل شراً ، وإذا كان
 قد تنكر لجميلك بعد ما أصاب من عطفك ومحبتك ، فوالله لن أتردد
 عن جلده بيدى هذه .

ولم تنزعج چو لتهديده بالويل والثبور ، إذ كانت تعرف أنه لن
 يؤذى حفيده ، بالرغم من وعيده العنيف . وهبطت السلم طائفة ، ثم
 روت له القصة دون أن تشير إلى ميج أو تفسد الحقيقة . قال بارتياح ، وهو
 يحك شعره بيده :

— إذاً فقد رفض الفتى أن يتكلم محافظة على وعده ، إنه صبى عنيد ،
 صعب القياد ، ولكنى سأصفح عنه .

فقالت چو ، تحاول أن تستدر العطف على صديقها ، الذى لا يكاد
 يخرج من مأزق ، حتى يقع فى آخر :

— لست أقل عنه عناداً ، ولكن كلمة عطف واحدة تفعل بى

العجائب ، والقوة لا تقهرنى مثلما يقهرنى العطف واللين .
فقال بجدة :

— أتظنين أننى لا أعطف عليه ؟

قالت :

— معاذ الله أن أظن ذلك يا سيدى ، فأنت تبالغ فى العطف عليه
أحيانا ، ولكنك سريع الغضب ضيق الصدر . أليس الأمر كما أقول
يا سيدى ؟

وكانت هذه فرصتها الكبرى لإزالة الخلاف القائم بين الجد وحفيده ،
فتكلمت بهدوء ، وإن كانت فى الواقع ترتجف انفعالا . ولعظيم دهشتها
وسرورها ، رأت العجوز يخلع عويناته ، ويلقى بها على المنضدة ، ويقول
فى تعجب واضح :

— صدقت يا فتاة ، فأنا كما تقولين ! إني أحب الصبي ، ولكنه
يستنفد صبرى إلى درجة لا تطاق ، ولست أدري ما قد يحدث إذا استمر
الحال هكذا .

قالت :

— ولكنى أعرف ما قد يحدث ، وأخشى أن ينتهى الأمر بأن يهرب
منك .

وندمت على قولها أشد الندم ، وأسفت أن انزلق لسانها فى سعيها إلى
إقناع العجوز بأن لورى لن يحتمل الشدة طويلا . كانت ترجو أن تغريه

بالتسامح ، فأفرطت فى الكلام ، وكانت النتيجة أن تغير وجه مستر لورنس فجأة ، وانهار على مقعده . ورأته ينظر بعينين ملؤهما القلق والاضطراب إلى صورة على المنضدة ، لرجل أنيق وسيم . كانت صورة ابنه والد لورى ، الذى هرب من أبيه فى شبابه وتزوج رغم إرادته . وخيل إلى چو أن العجز يستعيد ذكريات الماضى نادماً ، فأسفت على حديثها ، وتمنت لو أنها أمسكت لسانها فى الوقت المناسب . قالت تطمئننه :

— لن يهرب منك إلا إذا زادت الأمور سوءاً وتعقيداً . إنها فكرة تجول بذهنه عند ما يضيق بالذاكرة ، وكثيراً ما شاركته رغبته فى الهرب خصوصاً بعد أن قصصت شعري ، وأصبحت شبيهة بالفتيان ، فإذا اختفينا يوماً ما فعليك يا سيدى أن تبحث عن صبيين فى السفن المسافرة إلى الهند .

وكانت تتكلم ضاحكة ، فسرى عن مستر لورنس ، واعتبر حديثها مزاحاً من أوله إلى آخره . قال ، وهو يقرص خدها مداعباً :

— يا لك من فتاة ! كيف تجرئين على مثل هذا الحديث ؟ أين احترامك لى ؟ وأين اعتزازك بتربيتك ؟ إن الفتيان والفتيات محنة على السواء ولكنها محنة لا غنى عنها . هيا أحضرى الصبي يتناول الغداء معى ، وطمئنيه إلى أن الخلاف قد زال من بيننا ، وانصحيه بأن لا يظهر غضباً على جده ، إذ يؤلمنى أن أراه حزيناً أو متضايقاً .

قالت :

— لن يطاوعنى يا سيدى ، فقد ساءه أن تكذبه وتظن به الظنون ، وأعتقد أنه متألم كل الألم لتأنيبك له وشدتك معه .

وكانت تصطنع الحزن والأسى ، فلا تنجح فى إتقان تمثيلها ، مما حدا بمستر لورنس أن يضحك عالياً منها ، فاطمأنت وأدركت أن الغمة قد انقشعت عن نفسه .

قال ، وقد ندم على ما بدر منه نحو حفيده :
— إني آسف لما حدث ، وكان يجب أن أشكره لأنه لم يعنفنى !
يا إلهى ! ماذا ينتظر منى هذا الفتى ؟
قالت :

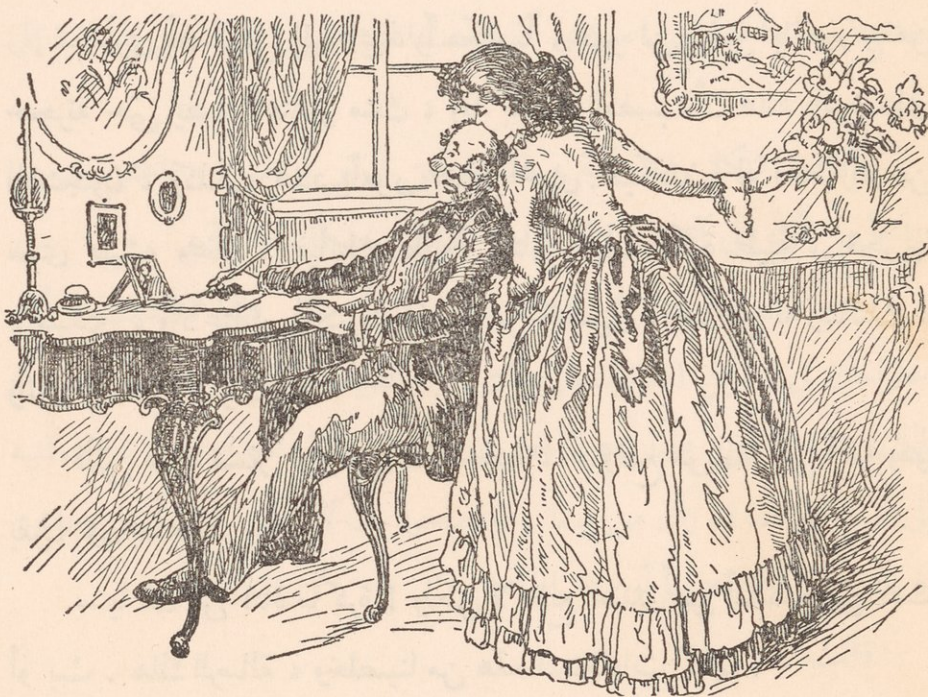
— أرى أن ترسل إليه اعتذاراً مكتوباً ، فهو لن يرضى بالخروج من حجرته حتى يصله اعتذار منك ، وقد بلغ به الغضب أن هدد بالهرب إلى واشنطنجتون ، وكذلك هدد بأمور سخيصة أخرى . سيكشف له اعتذارك عن مدى طيشه وسخفه ، فيأتيك طائعاً مختاراً . إنها فكرة طيبة ، فجر بها يا سيدى ، والاعتذار المكتوب أفضل من الشفوى ، وسأحمل له رسالتك ، وأتولى إصلاح الموقف .

فألقي عليها مستر لورنس نظرة حادة ، ثم وضع عويناته على أنفه وهو يقول فى بطاء :

— يا لك من فتاة ماكرة ! ولكن لا مانع عندى من أن تسيرينى أنت أو بث . هاك الرسالة ، وخلصينا من هذه السخافات كلها .

وكانت الرسالة تحوى اعتذاراً صيغ في أسلوب مهذب ، عامر بالتواضع والاسترضاء ، فطبعت چو قبلة على رأس العجوز ، وخرجت تجرى لغرفة لورى ، حيث وضعت الرسالة تحت عقب الباب ، ثم جعلت تنصحه من خلال ثقب المفتاح بأن يكون مطيعاً هادئاً مهذباً ، إلى غير ذلك من الصفات التى يصعب على الفتى أن يكتسبها . وانتظرت أن يفتح الباب ، فلما لم يفعل ، تركت الرسالة فى مكانها ، وعادت إلى السلم تهبط درجاته .

ولم تلبث أن رأت السيد الصغير يسبقها منزلقاً على حاجز السلم بسرعة



شديدة ، ثم يقف فى انتظارها أسفله ، ويقول بلهجة مليئة بالكياسة والأدب :

— يا لك من فتاة كريمة الأخلاق يا چو !

ثم استطرد وهو يضحك :

— ماذا فعل بك الرجل العجوز ؟ هل فجر فيك براكين غضبه ؟

قالت :

— بالعكس . كان لطيفاً إلى أبعد حد .

قال بلهجة الندم :

— لقد نلت ما أستحق ، فتخلى الناس كلهم عنى حتى أنت ، وشعرت أننى مخلوق غير مرغوب فيه .

قالت :

— خل عنك هذا التفكير العجيب ، واعمل على أن تبدأ صفحة جديدة ، يا ولدى العزيز تيدى .

قال فى حزن :

— إنى أقلب صفحات جديدة كل يوم ، ولا ألبث أن أسودها بأعمالى ، كما أسود صفحات كراساتى . حياتى كلها محاولات جديدة ، لم تنته واحدة منها بما أحب .

قالت چو ، وهى تدلف خارجة من باب البيت :

— اذهب ، وتناول غداءك ، ولن تلبث أن تتحسن معنوياتك ،

فمن طبع الرجال أن لا يكفوا عن التذمر ما داموا جوعاً .
قال :

— هذا تشهير بنا نحن الرجال .

ثم ذهب إلى غرفة الطعام يشاطر جده غداءه . فقابله مستر لورنس باللين ، وتفانى في إظهار عطفه عليه طول اليوم .
وعدت الأسرة أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، اللهم إلا ميج ، التي نسيت إساءة لورى ، ولكنها ظلت تفكر فى بروك . وبالرغم من أنها لم تسع إلى الاتصال به ، إلا أن أحلامها تركزت فيه ، وازداد قلبها تعلقاً به يوماً بعد يوم . وقد حدث ذات مرة أن كانت چو تبحث فى مكتب أختها عن طابع بريد ، فعثرت على ورقة خطت عليها ميج مرات ومرات اسم « مسز چون بروك » ، فتألمت لذلك كل الألم ، وألقت الورقة فى النار مغيظة ، وقد أدركت أن دعاية لورى عجلت قدوم اليوم المشئوم . . .



الفصل الثاني والعشرون

عودة السعادة

مرت أسابيع هادئة ملؤها السلام ، فكانت كضوء الشمس حين يغمر الكون بعد العاصفة ، فقد جاءت الرسائل من مستر مارش تنبئ بعزمه على القدوم في أول العام الجديد ، كما عوفيت بث من مرضها وأصبح في مقدورها أن تترك فراشها لترقد على الأريكة طوال اليوم ، تسلي نفسها بقططها العزيزة ، أو بجياكة ملابس جديدة لدميتها التي طال إهمالها لها . وكان ساقاها متخاذلتين ضعيفتين من أثر المرض الشديد ، فكانت چو

تحملها بين ذراعيها القويتين ، وتطوف بها أرجاء البيت لتروح عنها كلما أعوزها الترويح . كما جعلت ميج تطهى « للعزيزة » ما لذ من الأطعمة وطاب ، غير آبهة لما يصيب أصابعها ويديها الحميلتين من حروق أو اسوداد أما آى فقد باركت شفاء أختها بطريقتها الخاصة ، فتنازلت لها عن كل ما تحبه من كنوزها الصغيرة .

وكان عيد الميلاد يدنو تدريجاً ، فيزداد جو الأسرة بدنوه غموضاً وحماسة ، وكانت الظروف تبشر فى هذه المرة بعيد طيب سعيد ، فاشترك كلهم فى الاستعداد ، وتقدمت چو مرة بعد مرة بمقترحات يستحيل تنفيذها حتى كان أخواتها ينفجرن ضاحكات لغرابتها . ولم يكن لورى أقل منها تعقيداً للأمور ، فرأى أن يكون الاحتفال باستعمال ألعاب نارية ، أو بإقامة أقواس النصر ، إلى غير ذلك من المقترحات المستحيلة . وبعد مناقشات ومناوشات طويلة ، استقر رأى على استبعاد اقتراحات كل من چو ولورى ، لاستحالة تنفيذها ، فخرج الاثنان بوجهين حزينين ، ثم لم يلبثا أن انفجرا فى عاصفة قوية من الضحك .

وكانت الأيام السابقة للعيد متوسطة البرودة ، تبشر بجو بديع ، وقالت حنا : إن عظامها تتنبأ بعيد لا تنقصه السعادة أو الدفء ، وقد تحققت نبوءتها بفضل توافر الرغبة فى إنجاح الاحتفال بالعيد . وكان أول ما حدث من المفرجات أن أعلن مستر مارش قرب عودته ، ثم تقدمت صحة بث فى ذلك الصباح تقدماً ملحوظاً ، فارتدت المعطف الأحمر الذى

أهدتها إياه أمها ، وجلست بجوار النافذة تنتظر هدية چو ولورى . وكان الصديقان قد أحسنا إعداد هديتهما لبث ، وهياً لها جواً يبعث على المرح والغبطة : ففي وسط حديقة الدار أقاما تمثالاً من الثلج لفتاة صغيرة جميلة ، على جبينها إكليل من الغار ، وفي إحدى يديها سلة مليئة بالفاكهة والأزهار وفي اليد الأخرى مجموعة من المؤلفات الموسيقية ، وعلى كتفها شال متعدد الألوان ، ومن فيها تتدلى ورقة وردية كتبت فيها أغنية تقول :

عروس الجليلد هدية بث

حفظك الله أيتها الملكة بث

وذاذ عنك الأحزان

ومتعك بالصحة والسعادة والسلام

هدية عيد الميلاد

هاك يا نحلتننا الكادحة فاكهة تأكلينها

وهاك أزهاراً تشمينها

وهاك موسيقى تعزفينها

وهاك شالا يغطي قدميك الصغيرتين

تقبلى منا هذا الشريط القرمزى

واربطى به ذيل قطتك الحسنة

ونخدى مثلجات صنعتها ييجى
فكانت كجبل من الجليد وضع فى إناء

لقد جمع صانعاى حبهما
وأودعاه قلبى الثلجى
فاقبليه ، واقبلينى هدية
من صديقك لورى ، ومن أختك چو .

وضحكت بث سعيدة بالهدية ، وتطوع لورى بنقل الهدايا من
التمثال إلى البيت ، فى حين وقفت چو تقدم كلا منها بخطبة بليغة .
وتنهدت بث فى سرور بعد أن حملتها چو إلى الغرفة لتستريح وتتذوق
قليلا من العنب اللذيذ الذى أهدته إياها عروس الجليد . قالت :
— إن قلبى مفعم بالسعادة ، ولا ينقص إلا وجود أبى معنا الآن ،
ولولا غيابه لا كتمل هنأى ، ولم أعد فى حاجة إلى مزيد .
وقالت چو ، وهى تتحسس فى جيبتها كتاباً طالما تآقت نفسها إليه :
— وأنا مثلك .

وقالت آمى ، وهى تنعم النظر فى صورة العذراء المحاطة بإطار جميل :
— وأنا أيضاً بلا شك .
وصاحت مبيج ، وهى تسوى ثنايا ثوبها الحريري الأول ، الذى أصر

مستر لورنس أن يهديها إياه :

— وأنا مثلكم بالطبع .

وقالت مسز مارش :

— وأنا مثلكم سعادة وهناء .

وجعلت تنقل بصرها من خطاب زوجها إلى وجه بث الباسم ، ويدها تتحسس القلادة التي جدلت من شعور بيضاء وذهبية وكستنائية وبنية ، وكان بناتها قد وضعنها حول جيدها .

أحياناً ما تكون الحياة كالقصة ، تسير فيها الأمور أحسن سير ، وهكذا كان يشعر آل مارش وقد اكتنفتهن السعادة وأظلهن الهناء ! ولم يكد يمضي من الوقت نصف ساعة ، حتى فتح لورى باب الردهة ، وأطل برأسه من فرجته فى هدوء ، وكان وجهه ينطق بالانفعال المكبوت والحماسة البالغة . قال بلهجة مرحة ماكرة جعلت الكل يقفز واقفاً :

— هاكم هدية أخرى لآل مارش بمناسبة عيد الميلاد .

وقبل أن يتم جملة ، أزيح عن الباب بطريقة ما ، وحل مكانه رجل طويل القامة يلتحف بالأغطية حتى عينيه ، ويستند إلى رجل طويل آخر أراد أن يتول شيئاً ، ولكنه لم يستطع ، إذ اندفع البنات وأمهن نحو القادم فى ثورة عاطفية كادت تفقدن الرشداً : فقد عاد مستر مارش ، ولم يكن أحد يتوقع هذا الحدث العظيم !

واختفى مستر مارش بين أحضان بناته ، واستبد الانفعال بچوحتى

كاد يغشى عليها ، وقبل مستر بروك ميج على سبيل الخطأ ، ثم يعتذر عن فعلته بألفاظ متقطعة متلعثمة . وسقطت آى الأنيقة على الأرض بعد أن تعثرت قدمها فى المقعد ، فلم تحاول الوقوف ، بل لزمت مكانها من الأرض ، وقد طوقت ساقى أبيها بتأثر بالغ .

واستعادت مسز مارش هدوءها ، فرفعت يدها محذرة وقالت :
— حذار أن نزعج بث .

ولكن التحذير جاء متأخراً ، فقد انفتح الباب بشدة ، وظهرت من ورائه بث ، متدثرة بمعطفها الأحمر ، وقد بعث السرور فى ساقها قوة جديدة ، فجرت إلى أحضان أبيها ترمى فيها . وتوالت المواقف المؤثرة ، ولكننا لا نرى ما يدعونا إلى ذكرها ، ويكفى أن نقول : إن السعادة غمرت القلوب ، فغسلت مرارة الماضى ، ولم تبق إلا الرضا بروعة الحاضر وبجماله . وبينما كانت الضحكات تتعالى فى أرجاء الغرفة ، وقفت حنا وراء الباب ، ودموع التأثير تنساب من مقلتيها ، فتسقط على الديك الرومى الذى تحمله بين يديها . وتركت مسز مارش بناتها حتى نلن غايتهن من الترحيب بأبيهن ، ثم انشنت إلى مستر بروك تشكره على بالغ عنايته بزوجها ، وعندئذ نذكر الشاب واجبه فى توفير أسباب الهدوء لمريضه الناقه ، فاستأذن فى الانصراف ، وخرج مع لورى إلى البيت الآخر .

وجلس مستر مارش على مقعد كبير مريح يقص على بنانه كيف كان يتوق إلى مفاجأتهم بعودته ، وكيف حالفه الحظ ، فاعتدل الجو على

غير انتظار ، وأذن له الطبيب بالسفر . وكذلك حدثهن بخدمات بروك ،
وتفانيه في توفير أسباب الراحة له ، مما زاده إيماناً بكرم نفسه وعلو أخلاقه .
وتمهل مستر مارش في حديثه عن بروك ، ونظر نحو ميج ، التي تشاغل
بتقليب النار في المدفأة ، كأنها غير مصغية لكلامه ، ثم نظر إلى زوجه
بتساؤل أجابته عليه بإيماءة من رأسها ، ثم أسرع بتغيير الموضوع ، فسألته
إذا كان يريد أن يأكل شيئاً . وشاهدت چو هذه الحركات ، وفهمت
المقصود منها ، فقطبت جبينها ، وانصرفت من الغرفة تحضر طعاماً ونبيداً .
قالت في نفسها ، وهي تصك الباب خلفها :

— إني أكره الرجال الذين يستحقون التقدير ، خصوصاً إذا كانت
عيونهم عسلية .

وجاءت وليمة العيد فريدة في نوعها ، لم يرد لها مثيل في حياة الأسرة :
فقد كان الديك الرومي السمين تحفة أبدعت حنا في حشوها وطهيها ،
وكانت فطيرة العيد كبيرة الحجم متقنة الصنع ، شأنها في ذلك شأن صحن
الفالودج الشهى ، الذى صالت فيه آمى وجالت ، وكأنها ذبابة هببت على
عسل .

قالت حنا ، عند ما انتهى العشاء بفضلها على ما يرام :

— لست أدري كيف أمكننى إتقان الأكل مع مفاجآت اليوم وأحداثه
وأحمد الله أنى لم أحمر الفطيرة بدل الديك ، ولم أحش الديك بدل الفطيرة
بالزبيب والسكر .

وقد اشترك في وليمة العشاء مستر لورنس وحفيده ، وكذلك اشترك
مستر بروك ، الذى عاملته چو بتحفظ شديد دهش له لورى وتعجب .
وكان على رأس المائدة كرسيان مريحان لبث وأبيها ، فجلسا عليهما يأكلان
قطعة من الديك وبعض الفاكهة ، وسارت الولىمة سيراً حسناً ، فتبادل
الجالسون الأنخاب ، ورووا القصص والفكاهات ، وأنشدوا الأغاني ،
وبالاختصار كانت وليمة ناجحة إلى أقصى حد . وبعد العشاء ، اقترح
مستر لورنس أن يخرج الفتيات في عربته إلى النزهة ، ولكنهن أبين مفارقة
والدهن ، فاستأذن الضيوف في الانصراف مبكرين ، وما إن خيمت
عتمة الغسق ، حتى التأم شمل الأسرة السعيدة من جديد حول نيران
المدفأة .

وسار الحديث طويلاً بينهم ، وفي فترة سكوت قصيرة ، قالت چو :
— في مثل هذا الوقت من العام الماضى ، كنا نتوقع عيداً قابضاً .
فقالت ميج ، وهى تنظر إلى لهب النيران ، راضية بأسلوبها في معاملة
مستر بروك :

— لقد كان عاماً سعيداً في مجموعه .

وقالت آمى ، وهى تفحص الخاتم في أصبعها :

— أظن أنه كان عاماً شاقاً .

وهمست بث ، وهى تجلس على ركبة أبيها :

— إنى سعيدة بانقضائه ، فقد عدت إلينا يا أبى .

فقال مستر مارش ، وهو ينظر إلى بناته راضياً :

— كانت مرحلة شاقة في طريق حياتكن ، يا حاجاتى الصغيرات ، ولكنها انقضت بسلام ، وعن قريب تلقين أحمال الهموم عن ظهوركن ، إن شاء الله .

سألته چو :

— هل أخبرتك أُمى كيف كانت حياتنا شاقة يا أبى ؟

قال :

— سمعت منها قليلا ، ولكن لى عينا ترى ، وقد لاحظت بنفسى أشياء كثيرة .

فصاحت ميج تقول :

— إذأ أخبرنا بما لاحظت !

قال ، وهو يمسك بيدها ، ويشير إلى أصابعها الخشنة ، وآثار الحروق المنتشرة فيها :

— هذه إحدى ملاحظاتى ، فإنى أذكر أن يدك كانت بيضاء ناعمة ولم يكن لك هم سوى العناية بجمالها ، ولكنى أفضل خشونتها الحاضرة على نعومتها السابقة ، ففيها أقرأ قصة انتصارك على خيلائك ، وأتلو صفحات جهادك فى أداء واجباتك . ثقى يا عزيزتى ميج بأنى أقدر فى النساء تضحيتن من أجل المحافظة على كيان بيوتن ، أكثر مما أقدر أيديهن البضة الفارغة ، ويسعدنى أن أشد على يدك الصغيرة المكافحة ، وآمل أن

لا يطلبها منى أحد في القريب العاجل .

وكانت ضغطة أبيها على يدها ، وابتسامة الفخر التي ارتسمت على شفتيه ، أعظم مكافأة نالتها ميج جزاء الأيام العصيبة التي مرت بها .
قالت بث تهمس في أذن أبيها :

— وما رأيك في چو ؟ إنها تستحق كلمة طيبة ، فقد اجتهدت كثيراً وكانت كريمة معي إلى أبعد حد .

فضحك مستر مارش ، ونظر إلى الفتاة الطويلة ، التي تجلس أمامه وعلى وجهها الأسمر هدوء غير عادى ، ثم قال :

— بالرغم من شعرها المقصوص ، فإننى لا أرى فيها الفتى چو الذى تركته منذ عام ، بل أرى فتاة أنيقة الهندام ، لا تصغر ولا تتكلم باللغة العامية ، ولا ترقد على البساط كما اعتادت فيما مضى . إن وجهها نحيل باهت ، من أثر القلق والانتظار ، ولكنى أحب أن أتطلع إليه ، فقد أصبح أرق تعبيراً وأكثر هدوءاً . وهى لا تقفز الآن بل تسير فى هدوء ، وتعنى ببعض الناس عناية الأم الرؤوم ، وكل هذا يسعدنى ويسرنى . حقيقة أننى أفتقد فتاتى الشاردة الجاحمة ، ولكنى استعصت عنها بامرأة قوية النفس ، رقيقة القلب ، محبة للخير ، تواق إلى المعونة . ولست أدري إذا كان قص شعرها قد أعاد عقلها إلى رأسها ، ولكنى أعرف أننى لم أجد فى واشنطنون كلها ما يستحق أن أدفع فى شرائه المبلغ الذى باعت به جدائلها .

واغرورت عينا چو تأثراً ، واحمر وجهها انفعالا ، وهى تصغى إلى

مديح أبيها ، وتحس أنها جديرة ببعض ما قاله في تقريلظها .

قالت بث وهى تتعجل دورها :

— والآن ، ماذا لاحظت فى بث ؟

قال بمرح ، وهو يضم إلى صدره صغيرته التى كاد يفقدها :

— لم يبق من بث سوى قليل ، وأخاف أن أقول عنها كثيراً فلا يبق شىء منها ، ولكنى مسرور على كل حال أنك تغلبت على حيائك ونجلك ، ويسعدنى أن أعود فأجلك سليمة ، وسوف تبقيين دائماً سليمة بإذن الله .

وسكت لحظة ، ثم نظر إلى آمى التى تجلس عند قدميه ، وقال وهو يربت على رأسها :

— لقد لاحظت أن آمى تخدم الأسرة فى أثناء الطعام ، وتلبى طلبات أمها بعد الظهر ، وقد أعطت الليلة مكانها لميج ، وساعدتنا جميعاً بمرح وصبر وشجاعة . وقد لاحظت أيضاً أنها لا تتذمر ، ولا تطيل النظر فى المرأة ، كما أنها لم تذكر شيئاً عن الخاتم الذى تضعه حول أصبعها ، وأستنتج من ذلك أنها تعلمت أن تفكر فى غيرها أكثر مما تفكر فى نفسها ، وأنها تحاول أن تصوغ نفسها فى قالب جديد ، كما تفعل بتمثيلها الصلصالية وإنى سعيد بذلك وفخرى عظيم بفتائى الحبيبة ، التى تزيد الحياة جمالاً لنفسها ولبن حولها .

وبعد أن شكرت آمى أباه ، وأخبرته بقصة الخاتم الذى تلبسه ،

سألت چو أختها بث قائلة :

— فيم تفكرين يا بث ؟

قالت :

— قرأت اليوم في كتاب النصائح ، أن الحجاج وصلوا بعد عشاء إلى مروج السلام الخضراء ، حيث تزدهر الزنايق طول العام ، وكذلك قرأت أنهم استراحوا ، كما نستريح نحن الآن ، قبل أن يستأنفوا المسير إلى غايتهم الأخيرة .

ثم قالت ، وهي تنسل من أحضان أبيها ، وتسير إلى معزفها ببطء :
— حان وقت الغناء ، وأريد أن أسترده مكاتني من الغزف ، وسأحاول أن أنشد أغنية « الراعي الصغير » ، الذي سمعه الحجاج يغنى بصوت رخيم وقد لحت المقطوعة التي أعرف أن أبي يحبها .

وجلست إلى معزفها الصغير ، ولمست أصابعه برفق ، وارتفع صوتها الرخيم الذي كانت الأسرة تخشى أن يحرمهم الموت منه ، وجعلت تغنى وتقول :

« من يعيش على الأرض لا يخشى السقوط

ومن يتنازل لا يخشى الغرور

ومن يتواضع دائماً

يكن الله له نعم الدليل .

أنا راض بما وهبني الله

إن قليلا كان أو كثيرا
 لأنني أنشد القناعة يا إلهي
 وأنت يا إلهي حليف القنوع

إن الامتلاء حمل ثقيل
 لمن إلى الحج يذهبون
 فعسر هنا ، ويسر هناك
 سنة الخير ، جيلا بعد جيل «



الفصل الثالث والعشرون

العمة مارش تحل المشكلة

جاء اليوم التالى والتف البنات وأمهن حول مستر مارش المريض الناقه يغدقن عليه من العناية والرفق ، ما جعلهن يهملن أعمالهن فى سبيل خدمته والتمتع بالنظر إليه ، والاستماع إلى أخباره ، فكان فى ذلك أشبه بالنحل حين يلتف حول ملكته . كن فى غاية السعادة ، والأب يجلس على مقعد مريح جانب أريكة بث ، ومن حوله البنات الثلاث ، وبين حين وآخر تطل حنا برأسها من الباب « لتطمئن على الرجل العزيز » . ولكن كبار

الأسرة كانوا فى قلق مكبوت ، ينتههم شعور بأن أمراً ينقصهم ، فلا يصرحون به ملتزمين الصمت : فقد كانت نظرات مستر مارش وزوجه تتبع ميج بقلق ولهفة ، واستبد الغضب بيجو فجعلت تهز قبضتها مهددة منذرة لمظلة مستر بروك التى نسيها فى الردهة ، كل هذا وميج شاردة الذهن صامتة خجول ، تجفل إذا ما رن جرس الباب ، ويحمر وجهها إذا ما ذكر اسم چون على مسمع منها .

قالت آمى :

— لست أدرى ماذا جرى ، فكلنا فى قلق وحيرة ، مما لا يتفق مع عودة أبى إلينا سالماً .

وأبدت بث ، فى براءة ، دهشتها لتأخر آل لورنس عن زيارتهم فى هذه المناسبة الهامة .

ومر لورى بالبيت فى مساء ذلك اليوم ، فلما رأى ميج تطل من النافذة ، ركبه شيطان التمثيل فجأة ، فركع على إحدى ركبتيه فوق الجليد وهو تارة يشد شعره ، وتارة أخرى يرفع يديه فى توسل وضراعة ، كأنه يطلب الرحمة . وعند ما نهزته ميج وطلبت منه أن يتأدب أو ينصرف ، رفع يده إلى عينيه يحفف بمنديله دموعاً خيالية ، ثم سار يترنح فى يأس ، حتى وصل إلى منعطف الطريق .

وضحكت ميج وقالت لحو ، وهى تتظاهر بأنها نسيت ما فعل :

— ماذا يقصد هذا الغبي ؟

فقلت چو فى تهكم :

— إنه یرىك ماذا سیفعل رجلک چون فى المستقبل . منظر مؤثر !

أليس كذلك ؟

فقلت میج بهدوء كأن الکلام یلذ لها :

— لا یلیق بک أن تقولى رجلى چون ، فهذا غیر صحیح . لقد أخبرتك

مراراً إنى لا أهتم به ، وقد اتفقنا جميعاً أن لا نتحدث فى هذا الموضوع .

ورجائى أن لا تضایقینى یا چو ، حتى نظل دائماً فى صداقة ووثام .

قالت چو متألة :

— لسا نستطیع ذلك الآن ، فقد قیل ما قیل ، وفعلت مزحة لورى

فعلها فىک . إن أمورک تبدلت ، وقد لاحظت أنا وأمى التغير الذى أصابک

ولست أرى أن أضایقک ولذلك سأحتمل فجیعتى فىک احتمال الرجال .

إن وقوع البلاء أهون من انتظاره ، وأنا بطبعى أكره الانتظار ، فإذا كان

فى نیتک الموافقة فهىا عجلى بها .

قالت میج وهى تنحنى فوق تطریزها وعلى شفתיها ابتسامة غامضة :

— لا یجوز أن أتکلم قبل أن یتقدم رسمياً ، ولن یفعل ذلك ما دام أبى

یرى أنى ما زلت صغيرة .

قالت چو :

— بل یجب الاستعداد من الآن ، حتى لا یفاجئک بالکلام ، فیحمر

وجهک وتبکین ، وبذلك تترکینه ینفذ رغباته ، بدل أن ترفضیه رفضاً حاسماً

قالت :

— لست غبية أو ضعيفة كما تعتقدن ، وقد رسمت خطة كيلا أؤخذ على غرة ، ومن الخير أن نستعد للأمور حتى لا نفاجأ بها .

ولم تتمالك چو من أن تبسم للهجة الجدية التي تكلمت بها ميج دون أن تدري ، والتي صحبها احمرار وجهها الحميل ، وقالت في لهجة أكثر احتراماً :

— هلا أخبريني بما استقر عليه رأيك ؟

قالت :

— لا مانع لدى مطلقاً ، فقد بلغت السابعة عشرة من عمرك ، وأصبحت بنضج تفكيرك أهلاً لثقتي فيك ، وقد تفيدك التجربة التي أمر بها عند ما يحين دورك .

فقالت چو ، وقد أفرعها مجرد التفكير في أن تمر بها تجربة أختها :

— لن أمر بما تمرين به ، ولست مجنونة أن أجرب هذه التجربة بنفسى ، إنما يلزنى أن أراقب غيرى في ظرف كهذا .

وسرحت ميج بنظرها إلى الطريق الضيق الذى طالما رأت العاشقين يسرون فيه جنباً إلى جنب فى ليالى الصيف الدافئة ، وقالت كأنها تحدث نفسها :

— سيكون لك رأى آخر عند ما تجدن من يحبك وتحبينه .

قالت چو فى حدة ، وقد أغضبها خيال أختها الحميل :

— أليس فى نيتك أن تخبرينى بما استقر عليه رأيك ؟

قالت :

— سأقول له بمنتهى الهدوء والتصميم : أشكرك يا مستر بروك على كرمك العظيم ، ولكنى أتفق مع أبى فى أنى ما زلت أصغر سناً من أن أفكر فى خطبة أو زواج ، ولذلك أرجو أن تترك الكلام فى هذا الموضوع ، وأملى أن نظل أصدقاء كما كنا فيما مضى .

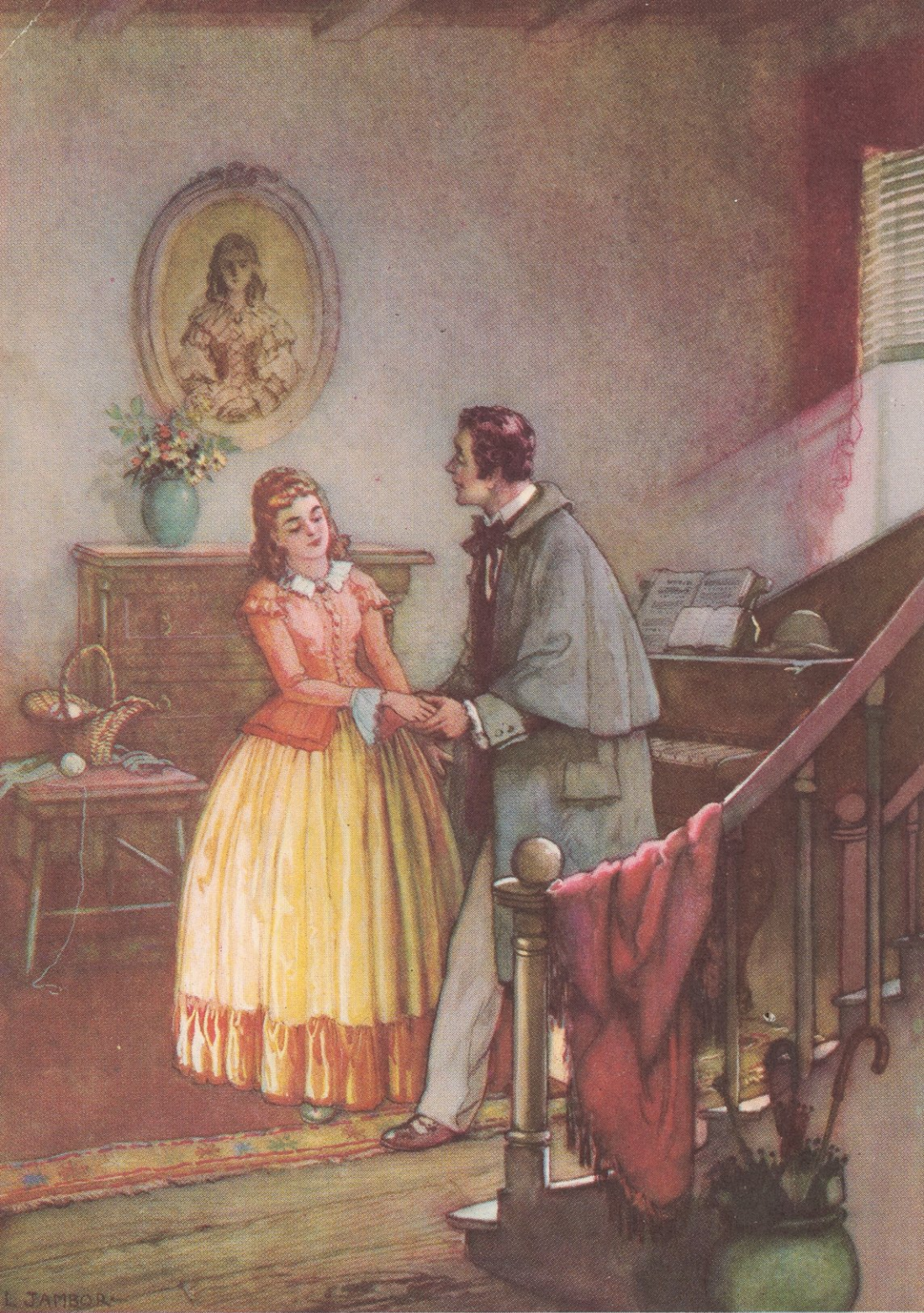
قالت :

— هذا كلام حازم قاطع ، ولكنك لن تقولى ، وحتى إذا قلته ، فلن يرجع الرجل عن عزمه ، وسوف يتصرف تصرف المحيين الذين نقرأ عنهم فى القصص ، فتدعنين لطلبه خشية أن تجرحى شعوره .

قالت :

— لا لن أذعن ! سأعلنه بأننى مصممة على رأى ، ثم أنصرف من الحجرة فى تعال وكبرياء .

وقامت ميج واقفة وهى تتكلم ، وكانت على وشك أن تجرب الانصراف فى تعال وكبرياء ، غير أنها سمعت وقع خطوات فى الردهة جعلتها تعود إلى مقعدها جرياً ، ثم تعكف على تطريزها بهمة ونشاط . وكتمت چو ضحكة لهذا التغير المفاجئ ، وقامت إلى الباب تفتحه مستجيبة للطرقات الخفيفة عليه ، وقد كست وجهها جموداً لا يدل على ترحيب بالقادم . ووقف مستر بروك عند الباب ، ونظره ينتقل من وجه هذه إلى وجه تلك ، ثم قال بارتباك ملموس :



— لست أبتغى غير الاطمئنان إلى أنك تهتمين بى ولو قليلا

— مساء الخير ، لقد جئت لأخذ مظلتى ، وأزور والدك لأطمئن على حالته اليوم .

قالت چو فى ارتباك جعلها تخطط بين أيها والمظلة :

— إنها فى خير حال ، وهو يجلس على المشجب ، وسوف أحضره لك ، ثم أخبرها بأنك هنا .

وانصرفت من الغرفة فوراً ، حتى تتهياً الفرصة لميج ، فتكاشفه بما استقر عليه رأيها ، ولكن ميج شرعت بدورها فى الانسحاب ، وقالت له بنجل : — يسر أُمى أن تراك ، فتفضل بالجلوس حتى أستدعيها .

قال ، وفى لهجته ألم شديد ، ظنت ميج معه أنها قد عاملته بخشونة :

— لا تذهبي . أتخافين منى يا مارجريت ؟

واحمر وجهها حتى وصل الاحمرار إلى جذور الشعر فى جبينها ، لأنه ناداها باسمها مارجريت ، وهو ما لم يفعله من قبل ، وأدهشها أن يكون نداؤه طبيعياً لا كلفة فيه . ومدت يدها فى حركة مطمئنة ، وقالت بلهجة من تحرص على إبداء صداقتها فى غير تكلف أو اصطناع :

— كيف أخافك وقد كنت مثال العطف على أبى ؟ ليتنى أستطيع

أن أفيك حقلك من الشكر .

فأمسك بيدها الصغيرة بين يديه الكبيرتين ، ونظر إليها بعينيه العسليتين المليئتين بالحب ، مما جعل قلبها يضطرب بين جنبها ، وكانت تريد الإفلات منه ، ولكنها كانت تريد أيضاً أن تبقى لتسمع ما يقول . سألها :

— أخبرك كيف تشكريني ؟

قالت وهي تحاول أن تسحب يدها ، وقد بدا الخوف عليها وهي لا

تدرى :

— لا . أرجوك ! أفضل ألا تقول شيئاً .

قال مستر بروك فى رقة وحنان :

— لن أزعجك ، ولست أبتغى غير الاطمئنان إلى أنك تهتمين بى ولو

قليلاً يا ميج . إني أحبك كل الحب يا عزيزتى .

وجاءت اللحظة الحاسمة كى تقول ما استقر عليه رأيها من قبل ،

ولكنها لم تقل شيئاً ، فقد غابت عن ذهنها الكلمات التى سبق أن أعدتها

بإحكام ، وكل ما فعلته أن رفعت رأسها ، وقالت :

— لست أدرى .

كان صوتها ناعماً منخفضاً ، فانحنى چون عليها لىسمع ردها التافه ،

ويبدو أنه اغتبط لجوابها ، إذ ابتسم راضياً ، وضغط على يدها البضة فى

رشاقة ، وقال بلهجة مقنعة :

— هلا حاولت معرفة حقيقة شعورك ؟ إني مشوق جداً إلى استطلاع

رأيك ، فلن أتمكن من التفرغ إلى عملى قبل الاطمئنان إلى مكافأتى فى

النهاية .

قالت متلعثمة ، وهي لا تدرى لماذا تضطرب هكذا رغم اغتباطها بما

تسمع :

— إلى ما زلت صغيرة السن جداً .

قال :

— سوف أنتظر ، ولن يضيرني الانتظار إذا حاولت أن تحبيني ،

فهل ترين أنها مهمة عسيرة يا عزيزتى ؟

قالت :

— لن تكون مهمتى عسيرة لو أردت ، ولكن . .

فقاطعها چون وهو يمسك بيدها الأخرى ، بحيث لم تستطع أن تخفى

وجهها من نظراته :

— إنى أحبك كثيراً يا ميج ، فأرجو أن توفى فى الاستجابة لعاطفتى .

وكانت لهجته محكمة فى ضراعتها وتوسلها ، ولكن نظرة استرقها إلى

وجهه ، كشفت لها عن مبلغ سروره واغتيابه ، بل كشفت أيضاً ثقته

الشديدة فى بلوغ غايته ، وتذكرت دروس آنى موفات فى الدلال ،

وتملكها أنانية الحب وقوته ، التى تظل كامنة فى نفوس الفتيات ، ثم تظهر

فجأة فى الوقت المناسب . وأحست بشعور غريب ، وتحيرت فيما تفعل ،

ثم أوحى إليها الدلال بالتمنع ، فسحبت يدها من بين يديه ، وقالت :

— لن أفعل ما تريد ، فهلا ذهبت الآن وتركتنى لشأنى ؟

وارتاع مستر بروك المسكين لقولها ، وقد أحس بأن القصور التى بناها

فى ~~الطريق~~ تنهار على رأسه ، ولم يكن قد رأى ميج فى مثل هذه الحالة من

قبل ، ولذلك أفرعه نفورها ، فسألها فى قلق وهو يتبعها إلى خارج الحجرة :

— أحقاً نقولين ؟

قالت :

— نعم ! ولست أحب أن أشغل نفسي بمثل هذه الأمور ، وأبى يرى ذلك أيضاً . وما زال الوقت أمامي متسعاً ، فالأفضل أن أنتظر .

قال :

— قد تغيرين رأيك قريباً ، وسأنتظر صامتاً حتى أمنحك وقتاً كافياً للتفكير . لا تلعبى بعواطفى يا ميج ، فلست أظنك أهلاً لذلك .

قالت ميج ، وقد لذ لها أن تعذب حبیبها ، وتختبر احتمالها لسلطانها عليه :

— أفضل أن لا تفكر فىّ على الإطلاق .

وشحب وجهه وأظلم حزناً ، وبدا فعلاً كأنه بطل من أبطال القصص غير أنه لم يضرب جبينه بيده مثلهم ، كما لم يسر جيئةً وذهاباً فى الحجرة ، إنما وقف ينظر إليها متألماً ، حتى أحست بقلبها يعطف عليه على الرغم منها ولو لم تحضر العمة مارش فى هذه اللحظة الهامة ، ما أمكن التكهن بنهاية الموقف .

وكانت العمة قد قابلت لورى وهى تنتزه ، وعلمت منه بعودة مستر مارش ، فلم تقو على مقاومة شوقها إلى رؤيته ، ولذلك توجهت إلى بيته فوراً . وكان أفراد الأسرة جميعهم فى نهاية الدار مشغولين بأمورهم ، فسارت فى البيت بهدوء تريد أن تفاجئهم بزيارتها . وكان دخولها بالفعل مفاجأة

للمتحدثين ، إذ جعلت ميج كما لو أن شبحاً ظهر لها ، واختفى بروك مسرعاً في غرفة المكتب .

صاحت العجوز وهي تضرب الأرض بعصاها ، وتنقل بصرها من وجه الشاب الشاحب إلى وجه الفتاة المتورد :

— ارحمني يا إلهي ، ما هذا كله ؟

فتلعثمت ميج ، وهي تتوقع أن تنال عليها عمتها بالنصح والتعنيف ، وقالت :

— هذا صديق لأبي . لقد أدهشتني رؤيتك كثيراً .

قالت العمة مارش وهي تجلس :

— دهشتك واضحة ، ولكن ماذا كان صديق والدك يقول لك ، حتى يحمر وجهك هكذا ؟ إنني أحس بالشر ، ولذلك يجب أن أعرف ما يجري هنا .

قالت ميج ، وهي تتمنى لو أن مستر بروك كان خارج البيت آمناً :

— جاء مستر بروك يسترد مظلمته ، وكنا نتبادل بعض الحديث .

صاحت العمة مارش تستوضح الأمر :

— بروك ؟ رائد الولد إياه ؟ لقد فهمت الآن . إنني أعرف كل شيء .

فقد أخطأت چو وفتحت رسالة من رسائل أبيك ، وقد أكرهتها أن تقول

لي عما جاء بها . فهل قبلت خطبته يا ترى ؟

قالت ميج في اضطراب :

— صه ! إنه فى الغرفة الأخرى وقد يسمع حديثك ! ألا أستدعى والدتى لتراك ؟

قالت العجوز فى اهتمام :

— لا ، ليس الآن إذ لدى ما أقوله لك حتى يستريح ضميرى .
أخبرينى ، أثنوين حقيقة أن تتزوجى كوك هذا ؟ إذا كان الأمر كذلك
فلن تنالى بنساً واحداً من ثروتى . تذكرى هذا وكونى فتاة عاقلة .

وكانت العممة مارش قديرة على إغضاب الناس واستشارة عنادهم إلى
أقصى حد . ولو أنها طلبت إلى ميج أن تتزوج بروك ، ما ترددت الفتاة
لحظة فى الرفض ، ولذلك أثار اعتراضها روح العناد فى قلب الفتاة ،
وقررت لفورها أن تقبله . وقد ساعدها على معاندة عمتها ، ميلها الشديد
للفتى ، فقالت وهى تهز رأسها فى تصميم قاطع :

— سأتزوج بمن أحب يا عمتى ، ويمكنك أن توصى بمالك لمن

تريدين .

قالت :

— أنت غبية متعجرفة ! أهكذا تقابلين نصيحتى يا آنسة ؟ سوف

تندمين يوم تجربين فشل الحب فى بيت يظلمه الفقر والحرمان .

أجابت ميج :

— لن يكون حالى أشقى من حال بعض سكان القصور .

ولم تكن العممة قد رأت ميج فى مثل هذه الحالة من قبل ، فوضعت

عويناتها على أنفها ، وتطلعت إلى الفتاة تفحصها . وأثار حديث العمة روح التحدى فى نفس الفتاة ، فأحست بالشجاعة والاستقلال يغمران قلبها ، كما سرها أن تدافع عن جون ، وتثبت حقها فى حبه أو الزواج منه . وشعرت العمة مارش بأنها أخطأت فى معاملة الموضوع ، فسكت لحظة ثم استأنفت حماتها بأسلوب آخر توخت فيه اللين على قدر استطاعتها . قالت :
 — ميج ، أيتها العزيزة ! كونى عاقلة وخذى بنصيحى ، فأنا أريد لك الخير ، ويؤلمنى أن تفسدى حياتك بخطأ ترتكبينه فى بدايتها . يجب أن تتزوجى رجلا غنياً ، حتى تجدى الراحة وتعاونى أسرتك .
 قالت :

— ولكن أمى وأبى يخالفانك فى رأى ، وهما معجبان بـجون رغم فقره .
 قالت العمة :

— إن أملك وأباك لا يدركان من أمور الدنيا أكثر مما يدرك الأطفال السذج .

قالت ميج فى كبرياء :

— وأنا سعيدة بذلك .

ولم تهتم العمة مارش بإجابة الفتاة ، ومضت فى نصيححتها تقول :

— إن هذا الشاب روك فقير ، وليس له أقارب أغنياء .

قالت الفتاة :

— نعم ليس له أقارب أغنياء ، ولكن له أصدقاء مخلصين .

قالت العمة :

— لن تجدى من الأصدقاء عوناً على معاشك ، وسينكرونك يوم
تحتاجين إليهم . ألهذا الشاب عمل يتكسب منه ؟

قالت :

— ليس له عمل فى الوقت الحاضر ، ولكن مستر لورنس وعد بمساعدته

قالت :

— إن چيمس لورنس عجوز متقلب لا يؤمن له جانب ، فلا تعتمدى
على مساعدته طويلا ، واعتبرى أنك تتزوجين رجلا بلا مال ولا جاه ولا
عمل ، مما يضاعف كدك فى الحياة ، وكل هذا لأنك لا تأخذين
بنصيحتى . ظننتك أرحم عقلا وأعمق تفكيراً يا ميج .

قالت ميج ، وقد زادها الإخلاص تورداً وجمالاً :

— لن أجد أفضل منه زوجاً مهما فعلت ، فچون رجل طيب القلب ،
راجح الفكر ، له مواهب لا تحصى ولا تعد . إنه يبحث عن العمل جاداً
وسوف يوفق دون شك بفضل نشاطه وذكائه وشجاعته . وهو فوق ذلك
محبوب ، يحبه الناس ويحترمونه ، ومن حسن حظى أن يهتم بى رغم فقرى
وحماقتى وصغرى سنى .

قالت العمة :

— ولكنه يعرف أن لك أقارب أغنياء ، وهذا سر اهتمامه بك على
ما أعتقد .

وكان رأى العجوز اتهاماً ظالماً لـحون ، فثار غضب الفتاة ، وصاحت
بعمتها تقول :

— كيف تجرئين أيتها العممة على مثل هذا الكلام ؟ ! ليس رجلى
چون خسيساً أو وضعياً ليتزوجنى من أجل المال . إن الفقر لا يخيفنى ،
وسوف نعمل لنعيش ، وفى نيتنا أن ننتظر حتى تتحسن أحواله . يكفى أنى
سعيدة ، وسأكون معه سعيدة دائماً ، لأنه يحبنى ولأنى . . .

وسكتت ميج ، وقد تذكرت فجأة أنها لم تقرر بعد قبوله زوجاً لها ،
وأنها طلبت إلى « رجلها چون » عدم التفكير فيها ، وربما كان فى الغرفة
المجاورة يستمع إلى حديثها .

وكانت العممة تريد أن تختار زوجاً غنياً لابنة أخيها المليحة ، فلما
رأت سعادتها بچون الفقير ، ولمست حماسها البالغة فى الدفاع عنه ، غضبت
لخيبة أملها ، وقالت بمرارة وغيظ :

— أنت فتاة عنيدة ، وقد خسرت بحماقتك أكثر مما تتصورين ،
فلا تتوقعى معونة منى بعد أن خيبت أملى فىك ، وسرى كيف يساعدك
أصدقاء هذا المستر بوك . لقد انتهيت من أمرك تماماً ، ولن أ تدخل فى
شئونك بعد اليوم ، ولست أجد بنفسى رغبة فى رؤية أبيلك .

وخرجت العجوز غاضبة بعد أن صكت الباب فى وجه ميج ،
فانهارت بخروجها قوى الفتاة ، واستبدت بها الحيرة ، فلم تعد تدري أتضحك
أم تبكى . وقبل أن تمالك جأشها ، دخل عليها مستر بروك ، وقال لها وهو

يحتويها بين ذراعيه :

— لم يكن هناك سبيل لالتحاشي سماع ما قلت يا ميج ، فشكراً
لدفاعك عني ، وشكراً للعممة مارش ، إذ بفضلها عرفت أنك تهتمين بي
بعض الاهتمام .

قالت :

— لم أكن أقدر حقيقة مكانتك عندي ، حتى شرعت تذكرك أمامي .

قال :

— لست أرى الآن داعياً لأن أتركك يا عزيزتي ، فهل تحبين أن
أبقى وأسعدك ؟

وكانت هذه فرصة أخرى تستطيع فيها أن ترده عنها بكبرياء ، كما
وعدت چو ، ولكنها بدل أن تفعل ذلك ، أخفت وجهها في صدره ،
وقالت بصوت خفيض :

— نعم يا چون !

وبعد ربع ساعة من انصراف العممة مارش ، هبطت چو السلم في
هدوء ، وتوقفت لحظة عند باب غرفة الاستقبال . فلما لم تسمع صوتاً
ينبعث منها ، بدا عليها الارتياح وقالت لنفسها :

— لا شك أنها أرسلته إلى حال سبيله كما اتفقنا ، وبذلك يكون أمره
قد انتهى ، فلا تدخل لأتسلى وأضحك مما حدث بينهما .

ولكن چو لم تنعم قليلاً أو كثيراً بالتسلية أو الضحك ، فعند ما

فتحت الباب ، رأت ما جعلها تقف في مكانها مندهشة مندهلة ، لا تصدق عينيها ، فبدل أن تجد آثار هزيمة عدوها المبين على يدي أختها المتكبرة المتعالية ، طالعها منظر تلك الأخت ، وقد جلست على ركبتى من كانت چو تود له الخذلان كل الخذلان . وصدمت الفتاة بما شهدته في وجه أختها من أبلغ معانى السعادة والاستسلام ، فشقت منزعة ، كما لو كان ماء مثلج صب على رأسها . وتنبه الحبيبان إلى وجودها ، فقفزت مبيج عن ركبتى چون فى خجل شديد ، ولكن « ذلك الرجل » على حد تعبير چو ، تقدم إليها ضاحكاً وهو يقول :

— أختى چو ! ههنا يا أختاه !!

واغتاضت چو لكلامه ، بعد أن اغتاضت لخيبة أملها ، ووجدت في قوله وقاحة لا تغتفر ، فلوحت له بيدها في خشونة ، ثم خرجت من الحجرة دون أن تنطق بكلمة واحدة . وصعدت السلم مسرعة إلى غرفة الناقهين ، وأزعجتهمما وهي تنفجر قائلة :

— فليسرع أحدكم بالنزول ؛ لأن مستر بروك يتصرف تصرفاً مخيفاً ، ومبيج راضية بذلك .

وعند ما خرج مستر مارش وزوجه من الغرفة مسرعين ، ارتمت چو على الفراش ، وفي عاصفة من البكاء ، جعلت تروى لأختها الصغيرتين ما حدث ! ولكنهما قابلتا النبأ السار بكل ترحيب واغترباط ، فلم تنعم چو الغاضبة بشيء من راحة البال ، ولذلك لاذت بملجئها في أعلى الدار ،

وراحت تقص همومها على الفيران التي تعبت حولها .

وأغلق باب غرفة الاستقبال على الوالدين والحبيين ، ودار بينهم حديث طويل ، أبدى فيه بروك الهادئ منتهى الحماسة والبلاغة ، ودافع عن قضيته خير دفاع ، حتى اقتنع مسر مارش وزوجه بتحقيق رغباته .

وظل بروك يصف اللجنة التي يريد تقديمها لميج ، حتى حان موعد الشاى ، فتأبط ذراعها باعتزاز ، وسار بها إلى المائدة والسعادة تشع من عينيها ، إلى حد هزم غيرة چو ، وقهر اعتراضاتها . وتأثرت آمى بعطف جون وتحفظ ميج ، وراحت بث تختلس إليهما النظرات مسرورة ، أما مسر ومسر مارش فقد جلسا ينظران إلى الخطيبين برضا وحنان ، مما أثبت قول العمة مارش لهما لا يفقهان من أمور الدنيا أكثر مما يفقه الأطفال . ولم يقبل أحد على تناول الطعام ، ولكن السعادة كانت تغمر القلوب كلها خصوصاً قلب الأب العجوز ، الذى بلغ غاية سعادته بأول حادث عاطفى فى أسرته . قالت آمى وهى تفحص الحبيين ، وتفكر فى الوضع الذى سترسمهما فيه : — أما زلت عند قولك السابق يا ميج بأن لا مكان لمزيد من السعادة ؟ أجابت ميج ، وكأنها فى حلم سعيد يرتفع بها فوق الأحداث العادية : — لا ، طبعاً . فكم حدثت أمور سعيدة ، بين أمس واليوم ، ويخيل إلى أن عاماً مضى منذ ذلك الحين .

قالت مسر مارش :

— إن بعد العسر يسراً ، والسعادة تأتى بعد طول الألم ، وفى كل أسرة

تمر سنوات يغشاها الحزن ، ثم تنقشع الغمة ، وتحسن الأحوال ، وأظن أن هذا التغير قد بدأ الآن في حياتنا .

وتمتت چو تقول :

— أملی أن تكون نهاية هذا العام الجديد خيراً من بدايته .

وكانت چو لا تسرف في حبها إلا مع أفراد معدودين ، فكانت تخشى أن تصدم في إخلاصهم لها ، ولذلك آلمها كل الألم أن ترى ميج تنزلق من بين يديها ، وتتجه بعواطفها نحو رجل غريب تحت سمعها وبصرها .

قال مستر بروك وهو يبتسم لميج ، كأنما تحققت مشروعاتها كلها :

— وستكون نهاية العام الثالث أجمل وأجمل ، وستحقق بإذن الله

مشروعاتي وآمالی .

قالت آمی ، وهي تتعجل الأيام لحفل الزواج :

— أليست هذه مدة طويلة ؟

قالت ميج بلهجة جدية حلوة ، لم يسبق أن تحدثت بها من قبل :

— بل إنها مدة قصيرة جداً ، فما زال أمامي كثير أتعلمه .

قال چون :—

— أنا أعمل وأنت تنتظرين .

وبدأ يعمل لفوره ، فتناول المنشفة وقدمها لميج بأناقة اغتاضت لها چو

ولم تمض لحظة حتى سمع صوت الباب الخارجى يصفق ، فشاع الارتياح

في نفس چو ، وهزت رأسها وهي تقول لنفسها :

— ها قد جاء لورى ، وآن الأوان لنسمع حديثاً ليس فيه شىء من هذه السخافات .

ولكن لورى خيب ظنها هو الآخر ، إذ دخل يقفز وقد استخفه الطرب ، وجاء يحمل باقة جميلة من الورود إلى « مسز چون بروك » .

وكان يعتقد أن كل هذه الأحداث ، ما جاءت إلا نتيجة لخطته الماهرة السابقة . قال بعد أن هنا الخطيبين وقدم لهما هديته :

— كنت واثقاً أن بروك سينال ما يريد ، فهذا شأنه دائماً ، فهو إذا ما انتوى أمراً ، نفذه ولو انطبقت السماء على الأرض .

قال مسز بروك ، وقد بعثت نشوة السعادة فيه روح المسالمة ، حتى نحو تلميذه الماكر :

— شكراً على تهنتك . إنى أستبشر خيراً بالمستقبل ، ولذلك أدعوك إلى حفلة زواجي منذ الآن .

قال :

— سألبى الدعوة ولو كنت في أقاصى الأرض ، فإن مجرد رؤية وجه چو ، في هذه المناسبة ، يغرى الإنسان بالحضور مهما طال السفر .

والتفت لورى إلى چو ، وهي تقبع في ركن بعيد من الحجرة ، وسألها :

— ماذا بك ؟

قالت في حزن :

— إني غير موافقة على هذا الزواج ، ولكنى سأحتمله ولن أعترض عليه . إنك لا تدرك كم يشق علىّ أن أتنازل عن ميج .
قال لورى يواسيها :

— لن تتنازلى إلا عن نصفها ، وسيتبقى لك النصف الآخر .

تهتت چو وقالت :

— بل أنا فقدت صديقة عزيزة ، وسيختلف شعورها نحوى بهذا الزواج .

قال وهو يعنى ما يقول :

— ولكنى معك يا چو ، وإذا كنت لا أضارع ميج مكانةً فى نفسك ، غير أنى سأقف إلى جانبك طول حياتى ، ولك منى عهد بذلك .
قالت ، وهى تصافحه شاكرة :

— أنت عزائى الوحيد يا تيدى ، وأنا أثق بوعدك ، وسأكون مدينة لك إلى الأبد .

قال :

— لا تحزننى إذآ ، وكونى فتاة طيبة . إن الأمور تسير على ما يرام ، وميج سعيدة جداً ، ولن يلبث بروك أن يسافر للبحث عن عمل ، وقد وعد جدى بمساعدته فى تقرير مستقبله ، وعندئذ ترين ميج فى بيتها الصغير . لن تنقص سعادتنا بذهابها ، فعن قريب أنتهى من دراستى الجامعية ، وأسافر معك فى رحلة إلى الخارج . ألا تجددين فى ذلك تعزية كافية؟

قالت وهى شاردة الفكر :

— أعتقد ذلك ! ولكن من يدري ماذا يحدث فى خلال هذه السنوات
الثلاث القادمة ! ؟

قال لورى :

— الحق معك . ولكن ألا تحبين أن تتصورى ما قد يحدث إذ ذاك ؟

قالت وهى تجيل بصرها فى الحجرة ، وقد التمعت عيناها :

— لا ، فقد أتصور ما لا يسرنى . وما دمننا الآن سعداء ، فلا فائدة
من التطلع إلى المستقبل .

وجلس الأب والأم معاً ، يرقبان أول فصل غرامى فى تاريخ بناتهما ،
ويذكران أيامهما الماضية منذ عشرين عاماً . وعكفت آمى على لوحة ترسم
فيها الحبيبين اللذين جلسا فى ركن من الحجرة ، يرفلان فى حلل من
السعادة ، وقد أشرق وجهاهما بنور استعصى على الفتاة الصغيرة أن تصوره
ورقدت بث على أريكتها تتحدث إلى أبيها العزيز ، وتشد على يده بيدها
النحيل ، كأنها تستمد منها قوة ترشدها إلى طريق السعادة والسلام .
وقبعت چو فى مقعدها المنخفض المحبوب ، وفى وجهها مظاهر الجذال والهدوء
على حين وقف لورى وراءها وهو يبتسم فى أخوة ، ويومئ برأسه مشجعاً
لصورتها المنعكسة على المرآة المقابلة .

وبهذا الوضع انسدل الستار على ميج وچو وبث وآمى ، ليرتفع مرة
أخرى فى الجزء التالى من قصة نساء صغيرات .

[illegible]

السعيد، امينة

نساء صغيرات

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030700

